مذكرات الشاذلي

الجزء الثاني 74 - 1978

أربع سنوات في السلك الدبلوماسي



الدار التونسية للنشر

مذكرات الشاذلي

الجزء الثاني 74 - 1978

أربع سنوات في السلك الدبلوماسي

الجزء الثاني

المؤسسة الوطنية للكتاب
3 ، شارع زيروت يوسف
الجزائر

رقم النشر 83/1420

المؤسسة الوطنية للكتاب

الجزائر ـ 1984

تقـديم

هذا هو الجزء الثاني من مذكراتي وهو يغطي الفترة من 13 مايو 1974 وحتى آخر يونيو 1978 وهي الفترة التي قضيتها في العمل الديبلوماسي كسفير لبلادي في المملكة المتحدة والبرتغال . لقد كان هدف السادات من تعييني سفيرا هو إبعادي عن القاهرة ، وفي نفس الوقت إلهائي بالمزايا والمكاسب المادية التي تعود علي من هذا التعيين . وقد كانت الاغراءات شديدة لكي أقبل هذه الأوضاع ولا أنتقد سياسة السادات . لقد كان ما أتحصل عليه كسفير من ماهيات وعلاوات ومزايا في عام واحد ، يعادل ما تحصلت عليه من ماهيات وعلاوات خلال ثلاثة وثلاثين عاما قضيتها في خدمة القوات المسلحة . ولكن السادات قد أخطأ التقدير عندما تصور أنه يمكن أن يشتري الأحرار بالمناصب والأموال .

وفي 12 أغسطس 74 أي قبل مرور ثلاثة أشهر من وصولي إلى لندن ، وفي اجتماع علني انتقدت سياسة السادات وترتب على ذلك استدعائي إلى القاهرة للتحقيق معي . لكن نظام السادات عجز عن أن يتخذ ضدي أي إجراء ، واضطر إلى الاذعان أمام إصراري على عدم تكذيب ما سبق أن قلته في اجتماع 12 أغسطس . وعدت إلى لندن واستمر الخلاف بيني وبين نظام السادات واستمرت انتقاداتي له بشكل علني في مناسبات عدة ، إلى أن نقلت من لندن إلى لشبونه بعد عام واحد من تعييني سفيرا لدى بريطانيا . وان هذا النقل من لندن إلى لشبونه ـ وبعد تلك الفترة الوجيزة ـ هو في حد ذاته شهادة بمدى ما كان يحس به السادات من ضيق وضجر نتيجة لانتقاداتي التي كنت أوجهها اليه من لندن .

وقد كانت هذه السنوات الأربع التي قضيتها كسفير لبلادي في لندن وفي لشبونه ، ذات فائدة كبيرة لي . لقد ذكرت في الجزء الأول من مذكراتي (حرب أكتوبر 73) كيف أني رفضت منصب سفير في لندن عندما عرض علي في ديسمبر 1973 . أما اليوم وأنا أنظر إلى الماضي فإني أعتقد أن قبولي لهذا المنصب في يناير 74 ، كان من فضل ربي . لقد تعلمت الكثير وفعلت الكثير خلال تلك السنوات الأربـــع .

لقد تعلمت الديمقراطية واقتنعت تماما بأنها هي الحل الوحيد الذي يجب أن نبدأ به في مصر كمنطلق لحل مشاكلنا . لقد كان من حسن حظي أن أعين سفيرا في أنجلترا التي تعتبر من أعرق الديمقراطيات في العالم . كذلك كان من حظي أن أكون سفيرا لبلادي في البرتغال في خلال مرحلتين

هامتين من تاريخ تلك البلاد . كانت المرحلة الأولى هي مرحلة التحول من النظام الأوتوقراطي إلى النظام الديموقراطي وقد انتهت هذه المرحلة في يونيو 76 ، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة استقرار الديموقراطية والتي بدأت مع تشكيل أول حكومة دستورية في البلاد في يوليو 1976 . لقد شاهدت كيف يستطيع المرء أن يعبر عن رأيه بصراحة دون أن يخشى انتقام السلطة . لقد شاهدت كيف تعقد الندوات التليفزيونية حيث يجتمع رؤساء الأحزاب المختلفة ليواجهوا بعضهم البعض في نقاش حر تنقله الشاشة الصغيرة على الهواء مباشرة إلى كل منزل . لقد رأيت كيف يقوم مذيع تليفزيوني بمحاصرة رئيس الحكومة بالكثير من الأسئلة المحرجة لكي يغطي تساؤلات الجمهور عن مشكلة معينة ، ودون أن يخشى انتقام من أحد . لقد رأيت كيف تقوم الأحزاب المعارضة بتنظيم الاجتماعات العلنية التي تعارض الحكومة وكيف تقوم أجهزة الإعلام في الدولة من رادبو وتليفزيون بنقل هذه الاجتماعات إلى الجمهور وعلى الهواء مباشرة وبدون أن تمتد اليها يد الرقيب . لقد رأيت الكثير والكثير .

وفي البرتغال تعلمت اللغة البرتغالية . وقد كان هدفي من تعلم اللغة في أول الأمر هو التأقلم والاعتماد على النفس في التخاطب بما يكفل لي حل المشاكل اليومية . ومع مرور الأيام اتضح لي أن المسلمين البرتغاليين ينطقون القرآن نطقا خاطئا . وبدراسة المشكلة اتضح لي أن كتابة القرآن بالحروف البرتغالية يشوبه الكثير من القصور ، لأن هناك أصوات في اللغة العربية لا يوجد لها مثيل في اللغة البرتغالية . ولكي أتغلب على هذه المشكلة أدخلت 16 حرفا جديدا على الحروف الأبجدية البرتغالية وأصدرت كتابا أسميته «كتابة اللغة العربية بالحروف البرتغالية» *Fonética arabe Com Letras. Portuguesas* ولم يكن هذا الكتاب إلا مدخلا للعمل الكبير الذي كنت أنوي عمله وهو كتابة القرآن الكريم بالحروف الأبجدية البرتغالية . وقبل أن أغادر البرتغال في يونيو 1978 كنت قد أصدرت الجزء الثلاثين من القرآن الكريم بالحروف الأبجدية البرتغالية .

وفي البرتغال بدأت في كتابة مذكراتي عن حرب أكتوبر 73 وانتهيت منها في أكتوبر 77 . ومرة أخرى فإني أقول شكرا لله لأني نقلت إلى البرتغال فلو أني بقيت في لندن لما توفر لدي الوقت الكافي لكتابة هذه المذكرات ولتأجل كتابتها عدة سنوات أخرى .

لقد تم تجهيز هذا الجزء الثاني من المذكرات للنشر في منتصف عام 1980، ولكن الخلاف الذي قام بيني وبين مؤسسة الوطن العربي حول نشر الجزء الأول من مذكراتي (حرب أكتوبر) لأسباب سياسية ، دفعني لأن أكون أكثر حرصا وتدقيقا في اختيار دار النشر التي أتعامل معها . وبعد أن حكم القضاء الفرنسي لصالحي ضد مؤسسة الوطن العربي ، وبعد أن صدر حكم الاستئناف لصالحي أيضا وأصبح الحكم نهائيا ، قررت أن أنشر هذا الجزء الثاني من مذكراتي ، وذلك بعد فترة تأخير تقرب من ثلاث سنوات .

وعندما قمت بمراجعة هذه المذكرات في مارس 1983 ، وجدت أن بعض الأمور التي كانت غامضة وقت تسجيلها قد انكشفت أسرارها . مثال ذلك ما يتعلق بزيارة الرئيس أنور السادات إلى القدس في نوفمبر 77 . لقد أثيروقتئذ إشاعات كثيرة حول مقابلات سرية تمت في المغرب للتمهيد لتلك الزيارة ، ولكن تفاصيل هذه المقابلات لم تكن تعرف على وجه اليقين . أما اليوم وقد عرفنا الكثير عن تلك المقابلات ، فمن حق القارىء أن يعرفها . ولكن ، وحتى يعيش قارىء اليوم في نفس الجو

التاريخي الذي كنا نعيش فيه وقت وقوع هذا الحدث ، فقد قررت أن أبقي المذكرات الأصلية على ما هي عليه . وأن أبين في ملحق منفصل في نهاية الكتاب ما انكشف من أسرار حول هذا الموضوع حتى مارس 1983 . وفي حالات أخرى كنت أكتفي بأن أشير إلى بعض الأحداث في الهوامش .

فريق سعد الدين الشاذلي

مارس 1983

البَابُ الأوَّل

سَفيرٌ في المملَكةِ المتحدَة

الفصل الأول

في بلاط صاحبة الجلالة

تعييني سفيرا لبلادي في بريطانيا :

لقد تم تعييني سفيرا لبلادي في لندن بطريقة تتنافى مع جميع أصول العرف الدبلوماسي . فمن المسلم به في التقاليد الدبلوماسية أن يكون للدولة المضيفة الكلمة الأخيرة في قبول سفير أي دولة أخرى . ومن هنا جرى العرف على أن يبقى قرار تعيين السفير سرا إلى أن تصل موافقة الدولة المضيفة على الترشيح الذي تتقدم به الدولة صاحبة الشأن . والغرض من ذلك هو عدم إحراج الدولة الطالبة إذا ما رفضت الدولة المضيفة قبول تعيين السفير المرشح لها بواسطة الدولة الطالبة وحتى لا يتسبب مثل هذا الرفض في تدهور العلاقات بين الدولتين ، لاسيما وأن الدولة التي ترفض قبول تعيين سفير بالذات لديها ليست ملزمة بإبداء الأسباب التي اعتمدت عليها في هذا الرفض . ولكي تحظى الدولة الطالبة بموافقة الدولة المضيفة فإنها ترفق مع طلبها نبذة تاريخية عن السفير المرشح *Curriculum* وتشمل ذلك المناصب الهامة التي سبق أن شغلها هذا الشخص في بلاده والنياشين والأوسمة التي حصل عليها وذلك لكي تثبت للدولة الأخرى أن المرشح لمنصب السفير لديها هو شخص مرموق في بلاده ، وأنه لا تشوبه أية شائبة .

لقد شرحت في مذكراتي عن حرب أكتوبر كيف عرض علي السادات منصب سفير من الدرجة الممتازة مع الترقية إلى رتبة فريق أول يوم 12 ديسمبر 73 وكيف رفضت هذا العرض . وبالرغم من رفضي لهذا المنصب فقد نشرت الصحف المصرية في أواخر ديسمبر 73 بأنه قد تم تعييني سفيرا في لندن مما اضطرني إلى طلب مقابلة السادات لتأكيد رفضي لهذا

المنصب . وقد تمت هذه المقابلة في أسوان يوم 6 يناير 74 . وفي هذه المقابلة فقط أعلنت قبولي لهذا المنصب ، بعد أن اعتبرت أن ما قاله السادات كان ترضية كافية لي . وبعد أن صدقت ما ادعاه السادات بأن منصبي في لندن سيكون امتدادا لخدماتي للقوات المسلحة . وأنني سأكون مسؤولا عن الإشراف على عملية تسليح واسعة تتم عن طريق ألمانيا الغربية .

وفي 7 يناير 74 عادت الصحف المصرية تؤكد من جديد نبأ تعييني سفيرا لبلادي في لندن ، بينما كانت وزارة الخارجية المصرية لم تبدأ بعد في تحرير الـ Curriculum الذي يتعلق بشخصي لكي ترسله إلى المملكة المتحدة طالبة منها الموافقة على هذا الترشيح . لماذا ضربت مصر عرض الحائط بجميع التقاليد الديبلوماسية ؟ لماذا تعجلت في إعلان هذا التعيين قبل أن تحصل على موافقة المملكة المتحدة بل حتى قبل أن تتقدم بطلبها الموافقة على هذا التعيين ؟ . لا شك أن السادات كان متلهفا لأن يتخلص مني في أقصر وقت ممكن .

لا شك أن هذه اللهفة هي التي دفعته إلى خرق قواعد الديبلوماسية الدولية . ولكن هل تحقق ذلك ؟ لا . لقد سبب هذا الإعلان المتسرع تعطيلا كبيرا . فلم تصل موافقة الحكومة البريطانية على تعييني سفيرا لديها إلا في أواخر أبريل أي بعد ما يقرب من أربعة شهـور .

لقد ركز الصهاينة في بريطانيا هجومهم علي ، وأخذوا يكيلون التهم ضدي بقصد تلويث اسمي ، وقاموا بتنظيم حملة صحفية تطالب الحكومة البريطانية برفض قبول تعييني سفيرا لديها ؛ كما قاموا بتنظيم المظاهرات العدائية التي كانت تتجمع باستمرار حول سفارتنا في لندن احتجاجا على هذا التعيين . كانوا يتهمونني أحيانا بأنني السفاح الذي أمرت بقتل الأسرى الاسرائيليين أثناء حرب أكتوبر 73 ، وأحيانا أخرى كانوا يتهمونني بأنني فاشي النزعة وأنني كنت على اتصال بحزب بريطاني صغير فاشستي الميول أثناء خدمتي كملحق حربي في لندن 61 ـ 63 . والغريب حقا أن الحكومة المصرية لم تقم بالرد على هذه الحملة الصهيونية ، بل صمتت صمتا رهيبا وكأن الأمر لا يعنيها . وفي ظل المعلومات التي اتضحت لنا ما بين 74 ـ 78 ، فإني أميل إلى الاعتقاد الآن أن السادات كان يبارك هذه الحملة الصهيونية ، ويحاول أن يستفيد منها لكي يحطمني ، إني لا أتصور مطلقا كيف تتقدم دولة بطلب تعيين شخص ما ليشغل منصب سفير لها في بلد ما ، وتصف هذا السفير في طلبها بأنه يتمتع بالأخلاق الحميدة والصفات النادرة ، ثم تقف موقف اللامبالاة أمام حملات التجريح التي تشنها عناصر معادية ضد مرشحها ؟ ولكن وللأسف الشديد فإن وزارة الخارجية المصرية لم ترد على أي من هذه الحملات سواء على المستوى الحكومي أو على مستوى الرأي العـام البريطاني .

وفي خلال شهر أبريل بدأت الصحافة المصرية تتحدث عن احتمال تعيين السيد حافظ اسماعيل سفيرا لمصر في لندن ، بعد أن اتضح تلكؤ الحكومة البريطانية في إرسال موافقتها على تعييني . ولكن يبدو أن الحكومة البريطانية كانت قد حزمت أمرها أخيرا ـ وبعد طول تردد ـ وأرسلت موافقتها على تعييني في أواخر شهر أبريل . وفي مقابلة عاجلة في وزارة الخارجية ، أبلغني السيد / اسماعيل فهمي وزير الخارجية بتلك الموافقة وطلب إلي الاستعداد للسفر في أقرب وقت .

السفر إلى لنـــدن :

في يوم 13 مايو تحركت سرا أنا وزوجتي إلى مطار القاهرة حيث استقلينا الطائرة المصرية المتجهة إلى لندن . كانت هيئة المخابرات العامة المصرية قد أخبرتني أن جماعة صهيونية متطرفة برئاسة حاخام متطرف يدعى كاهان قد اعتزمت اغتيالي في لندن ، وان هذه المعلومات أكدتها أيضا المخابرات البريطانية . وبناء على ذلك فإنه يجب ألا يعلن عن سفري ، بل ويجب ألا يعلم به أقربائي وأصدقائي في مصر. أما بخصوص لندن فقد أخبرتني المخابرات أن الصهاينة يستعدون لاستقبالي في مطار لندن بمظاهرة عدائية في حين أن الطلبة العرب في المملكة المتحدة مصممون على أن يقوموا باستقبالي بمظاهرة تأييد ، وأنه لتلافي وقوع أحداث شغب بين الطائفتين فإنه سيتم التنبيه على القائم بالأعمال المصري في لندن أن يكون هو وحده في استقبالي وألا يخطر أحدا بقدومي .

وفي مطار لندن وجدت في استقبالي جميع أعضاء السفارة المصرية ، واعتذر لي القائم بالأعمال بأنه لم يخطر أحدا من السادة السفراء العرب في لندن بالرغم من أنهم جميعا كانوا قد طلبوا اليه أن يخطرهم بميعاد حضوري ليكونوا في استقبالي ، وعلل ذلك بأنه كان ينفذ تعليمات القاهرة التي كانت تقضي بألا يبوح بميعاد وصولي لأحد . وفي المطار اقترب مني أحد الأشخاص وعرفني بنفسه بأنه مندوب للصحف البريطانية وأنه يغطي الأخبار التي تتعلق بسفر وحضور الشخصيات الهامة في مطار هيثرو . وسألني عن رأيي في الاتهامين اللذين كان أقطاب اليهود في بريطانيا يوجهانهما إلي . كان الاتهام الأول هو أنني ما بين عامي 61 ـ 63 كنت على اتصال مع الحزب الوطني الاشتراكي British National Socialist Party وأنه من المعروف أن هذا الحزب كان ولا يزال معاديا للسامية . أما الاتهام الثاني فهو أني أصدرت أوامري للضباط والجنود المصريين ابان حرب أكتوبر بقتل الأسرى اليهود . كانت هذه هي أول فرصة تتاح لي لكي أدافع فيها عن نفسي أمام الرأي العام البريطاني ، فلم أترك الفرصة تفلت من يدي وتكلمت .

وقد نفيت وجود أي اتصال بيني وبين الحزب الوطني الاشتراكي وأوضحت أن إسرائيل وحلفاءها من البريطانيين ، رأوا في موضوع القبض على زعيم هذا الحزب عام 62 . فرصة ذهبية لتسوية حساباتهم مع من يعتبروهم خصوما لهم وللدولة الصهيونية التوسعية . وهكذا أشاعوا بأنني كنت على اتصال مع هذا الحزب وأنني كنت أقوم بتمويله لكي يقوم بتنفيذ مخططه المعادي للسامية . ورغم الضجة التي أثيرت في ذلك الوقت في الصحف البريطانية حول هذا الموضوع ، فإن السلطات البريطانية الرسمية التي قامت بتحقيق هذا الموضوع لم تجد أي دليل يثبت تلك الادعاءات . ولو ثبتت هذه الادعاءات ، لطلبت السلطات البريطانية إبعادي فورا عن بريطانيا على أساس أني شخصية غير مرغوب فيها *Persona non grata* وذلك طبقا للعرف الديبلوماسي . ولكن لم يحدث شيئا من هذا ، وبقيت أشغل منصبي كملحق حربي لمدة عام كامل بعد هذه الضجة الصحفية . أليس في ذلك دليل كاف على بطلان هذه الادعاءات ؟ ثم أضفت ساخرا «كيف أكون معاديا للسامية Anti Semetic وأنا نفسي سامي الأصل . ألا تعلم أن العرب ساميون ... ؟ إنني لست ضد اليهود أو اليهودية ، ولكنني ضد الصهيونية» .

وعن الاتهام الثاني أجبت بأنه اتهام باطل وظالم . إنه يتعارض مع معتقداتي الدينية ومع شرفي العسكري الذي يدفعني إلى احترام آدمية كل من يقاتل في سبيل عقيدته ووطنه حتى ولو كان عدوا لي . إننا نقتل أعداءنا في الميدان فإذا ألقوا السلاح واستسلموا فإنهم يصبحون أمانة في عنقنا . وطالبت بأن تكلف لجنة تحقيق دولية لبحث هذا الموضوع ولكي تعلن للعالم أجمع بطلان هذه التهمة التي تحاول إسرائيل والصهيونية العالمية أن تلصقها باسمي .

نشرت الصحف البريطانية يوم 14 مايو خبر وصولي إلى لندن ومعه ملخصا للحديث الذي أدليت به في المطار . ومنذ ذلك اليوم وحتى تاريخ انتهاء خدمتي كسفير في المملكة المتحدة ومغادرتي لندن في 6 سبتمبر 75 لم تتوقف الصهيونية عن ملاحقتي بهدف الإيقاع بي أو تلفيق التهم ضدي .

حياة الرفاهية التي اختارها السادات لي :

تقع السفارة المصرية في أرقى أحياء لندن . ويتكون منزل السفير من قصر من ثلاث طوابق يرجع تاريخه إلى القرن الثامن عشر وتزين حوائطه وأسقفه صور ورسومات رائعة . وقد قامت الحكومة المصرية منذ الثلاثينات بتأثيثه تأثيثا فاخرا يتناسب مع عراقته التاريخية . وبالرغم من عوامل الزمن التي ترتب عليها فقدان بعض الصور والتحف الفنية ـ سواء بالنقل أو التلف أو البيع ـ فإن المنزل كان لا يزال من أجمل البيوت وأكثرها بهاء . ويقوم على

خدمة السفير خمسة من الخدم وثلاث عربات بسائقيهم . وتتولى الدولة دفع جميع المصاريف التي تتعلق بدار السكن من أجور وكهرباء ومياه وتليفونات وتأثيث وإصلاح الخ . لم يكن للسفير من أوجه للإنفاق سوى المأكل والملبس واستهلاك البنزين لواحدة من العربات الثلاث ، وكنت أتقاضى ماهية شهرية حوالي 1300 جنيه استرليني خالية من الضرائب . كانت هذه الماهية والامتيازات التي تصاحبها تضمن لي أن أعيش في مستوى يفوق كثيرا – بل وكثيرا جدا عن المستوى الذي كنت أعيش فيه وأنا أشغل منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة ، وهذا هو ما كان يريده السادات .

كان السادات يريد أن تفتنني الحياة السهلة والمريحة . طعام جيد وملابس فاخرة وحفلات وولائم مستمرة وأضواء وحياة اجتماعية مسلية . كان السادات يريد أن أصبح عبد وأسيرا لهذه الحياة التي اختارها لي فأتمسك بها وألتمس الاستمرار فيها مقابل الثمن الذي يريد أن يحصل عليه ، وهو أن أصمت . لم يكن السادات يطمع في أن أجامله ببرقيات التأييد والتهنئة على ما يقوم به من أعمال أسوة بالوزراء وكبار موظفي الدولة ، لأنه كان يعلم جيدا أن هذا لا يمكن أن يحدث . إنه كان يطمع فقط في أن أصمت وألا أوجه اليه نقدا . ولكن هيهات هيهات . ان السادات كان يرى الناس من خلال نفسه . إنه يعتقد أنه يستطيع أن يشتري الناس جميعا بالمال والمناصب .

تقديم أوراق اعتمادي إلى الملكة :

في صباح يوم 31 مايو كنت أقف في بهو السفارة الفخم أنتظر وصول الجنرال ميخائيل فيتزلان هوارد sir Michael Fitzalan Howard المسؤول عن السلك الديبلوماسي في بلاط الملكة . كان هذا هو اليوم المحدد لتقديم أوراق اعتمادي للملكة اليزابيث الثانية . كنت ألبس ملابس التشريفة الكبرى (جاكته ذات الذيل ، البابيون الأبيض والقبعة العالية) وكانت زوجتي وثمانية آخرون من أعضاء السفارة ينتظرون معي في البهولمرافقتي إلى قصر باكنجهام Buckingham Palace

وفي الوقت المحدد وصل الجنرال هوارد إلى السفارة وصعد إلى حيث كنت في انتظاره . وبعد أن تبادلنا التحية أخذ يستعيد معي جميع الإجراءات التي يجب علي أن أقوم بها قبل وأثناء وبعد مقابلة الملكة . ان بريطانيا بلاد ذات تقاليد وتعمل جاهدة على المحافظة على هذه التقاليد . كنت قد قابلت الجنرال هوارد قبل ذلك بأسبوع في مكتبه بالقصر حيث قام بتلقيني بكل ما يجب علي أن أفعله منذ أن أغادر السفارة المصرية في طريقي إلى مقابلة الملكة وإلى أن تتم المقابلة الملكية وأعود مرة أخرى إلى السفارة . وها هو اليوم يتأكد للمرة الأخيرة من أنني على إلمام تام بجميع هذه الإجراءات .

وبينما كنت أضحك وأقول له بأنني قد استوعبت جميع الدروس التي أعطانيها نظر الجنرال إلى صدري الخالي من النياشين وقال لي مستغربا «أين أوسمتك ؟ أولم أقل لك أنه في هذه المناسبة يجب أن تحمل الأوسمة ؟ وأنا أعلم أنك تحمل الكثير من الأوسمة» أخبرته بأنني لم أحضر أوسمتي معي من القاهرة وأنني كنت قد أرسلت في إحضارها بعد أن أخبرني بذلك منذ أسبوع ولكنها للأسف لم تصل في الوقت المناسب . لم تكن ذلك هي الحقيقة . ولكن الحقيقة هي أني خجلت أن أحمل أوسمة ليس من بينها وسام واحد عن أعظم عمل قمت به في حياتي وهو حرب أكتوبر 73 المجيدة . حقا لقد كرمتني سوريا ومنحتني نجمة الشرف ـ وهي أعلى وسام عسكري سوري ـ عن دوري في حرب أكتوبر ولكني خجلت أن أحمل هذا الوسام السوري دون أن يكون بجواره وساما مصريا عن نفس هذه المناسبة . كنت أشعر أنني لو فعلت ذلك لكان فيه إهانة لمصر أكثر مما فيه إهانة لي . ان العالم أجمع يعلم بدوري في حرب أكتوبر ، فإذا علم الناس أن بلدي لم تكرمني لهذا الدور الذي قمت به فسوف يسيء ذلك إلى سمعة بلادي . ولكني كنت أعلم أن بلادي مغلوبة على أمرها وان السادات وحده وليس مصر هو الذي وراء كل هذه الأفعال المشينة [1].

وفي الوقت المحدد ركبت العربة الملكية التي تجرها أربعة خيول وبجواري الجنرال هوارد ومن خلفنا أربعة عربات أخرى يجر كل منها حصانان ويستقلها أعضاء السفارة الثمانية الذين تم اختيارهم لهذه المناسبة . أما زوجتي فكانت تستقل عربة ملكية أخرى (سيارة) وترافقها إحدى سيدات البروتوكول وتتحرك من السفارة بعد خروجنا ببعض الوقت لكي نصل إلى القصر بعد وصولي اليه بوقت قصير . وبينما كنت استقل العربة الملكية التي تقف أمام مبنى السفارة كان بضع عشرات من الصهاينة يقفون على مقربة من المبنى يحملون اللافتات والشعارات المعادية ويرددون بعض الهتافات المعادية .

وتحرك الركب إلى قصر باكنجهام حيث تمت مراسيم الاستقبال الخارجية ، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى حيث قابلت جلالة الملكة وقدمت لها أوراق اعتمادي ثم قدمت لها زوجتي وأعضاء السفارة . وقد استغرق كل ذلك بضع دقائق انسحب على إثرها أعضاء السفارة وبقيت أنا وزوجتي بعد ذلك مع الملكة ما يقرب من نصف ساعة . وبعد انتهاء المقابلة عاد الركب إلى السفارة بنفس النظام الذي حضر به إلى القصر .

وهكذا فإن يوم 31 مايو 74 يعتبر بداية حياتي في عالم الديبلوماسية وفصلا جديدا من مراحل النضال من أجل عزة مصر ورفع شأنها . ترى هل تتغلب طبيعة الجندي فتفرض نفسها على الرجل الديبلوماسي . أم أن طبيعة حياة الديبلوماسي وظروفه هي التي تفرض نفسها وتغير من أخلاق الجندي . هذا ما سوف نراه في الفصول القادمة .

الفصل الثاني

الصراع بيني وبين الصهاينة

كما سبق أن قلت فإن الصراع بيني وبين الصهيونية لم يتوقف قط طوال مدة إقامتي في المملكة المتحدة وأنه أخذ يتسع ليشمل عدة مواضيع أخرى غير هذين الموضوعين الذين أثاروهما عند بدء تعييني وهما موضوع قتل الأسرى الإسرائيليين وموضوع اتصالاتي السابقة مع الحزب الوطني الاشتراكي البريطاني . ويبدو أنهم اقتنعوا بأنهم ينقصهم الحجة بالنسبة للموضوع الثاني فركزوا هجومهم علي بالنسبة للموضوع الأول وهو قتل الأسرى . وقد تزعم هذا الهجوم المستر جريفيل جانر Mr Greville Janner وهو عضو في مجلس العموم البريطاني والمستر ماركوس شلويموفيتس Mr Marcus Shloimovitz أحد كبار التجار اليهود في مانشستر .

وقد اعتمد الصهاينة في هجومهم علي على ترجمة محرفة لكتيب كنت قد وزعته على الجنود قبل حرب أكتوبر وعنوانه هو «عقيدتنا الدينية هي طريقنا إلى النصر» وكانت بعض هذه الكتيبات قد استولى عليها العدو من بعض الأسرى الذين سقطوا في أيديهم . وقد قامت وزارة الإعلام الإسرائيلية بحملة ضخمة ضد هذا الكتيب وترجمته إلى عدة لغات أجنبية . ولكن ليتهم قاموا بترجمته ترجمة أمينة . لقد قاموا بترجمة بعض الصفحات دون الأخرى كما قاموا بتحريف خطير في ترجمة الأجزاء التي نقلوها حتى ظهر الكتيب في النهاية صورة ممسوخة ومحرفة تسيء إلى سمعتي باعتباري صاحب هذا الكتيب ، كما تسيء إلى المصادر الرئيسية التي أخذت عنها وهي القرآن الكريم والإنجيل . لقد وصلني مئات الخطابات حول هذا الموضوع وكنت أرد عليها جميعا . وانتقل الصراع أحيانا إلى صفحات الجرائد عندما قام البعض بنشر رسائلهم إلي وما وصلهم مني ردا عليها . ويبدو أن البعض منهم

قد اقتنع بوجهة نظري ، مثال ذلك المستر شلويموفيتس الذي نشر خطابي اليه في جريدة الجارديان بتاريخ 21 يونيو 74 وأعلن أنه بالرغم من أنه كان من المعارضين في تعييني سفيرا بالمملكة المتحدة إلا أنه يعتبر ردي مرضيا بالنسبة لهذا الموضوع .

أما النائب المحترم جريفيل جانر فإنه لم يقتنع بحجتي ونشر في جريدة الجارديان بتاريخ 25 يونيو 74 ترجمة لبعض الفقرات التي وردت في الكتيب السابق الإشارة اليه وفيه يقول «اقتلوهم حيث ثقفتموهم ولا تأخذكم بهم شفقة ولا رحمة ، فقد قتلوا أبناءنا ولم يدفنوا شهداءنا وتركوا جثثهم في العراء تنهشها الكلاب والوحوش الضارية . انتقموا لأنفسكم ولشهدائنا . يجب أن ندخل الحرب وشعارنا النصر أو الشهادة . فإذا كان هذا هو شعارنا فالنصر حليفنا بإذن الله» ثم أضاف ساخرا «ان هذا الكلام المتعالي وهذه التعليمات النبيلة ممهورة بتوقيع الفريق سعد الدين الشاذلي» . ثم استمر بعد ذلك في انتقاده وهجومه علي . وقد رددت عليه بخطاب طويل نشر في جريدة الجارديان بتاريخ 3 يوليو 74 جاء فيه ما يلي «نعم لقد أمرت جنودي بقتل عدوهم في الميدان . رجل ضد رجل وسلاح ضد سلاح . وهل كان السيد النائب المحترم ينتظر مني أن أطلب اليهم أن يقابلوا عدوهم في الميدان بالإحضان والقبلات ؟ وعموما فشتان بين هذه الأوامر التي أصدرتها وتلك الأوامر التي يصدرها القادة الإسرائيليون إلى طياريهم الذين يغيرون كل يوم على جنوب لبنان حيث يدمرون المنازل ومعسكرات اللاجئين ويقتلون النساء والأطفال العزل من السلاح دون أن تتحرك ضمائرهم ودون أن يتأثر السيد النائب المحترم بهذه الفظائع التي يرتكبها هؤلاء الذين يدافع عنهم» .

محاولة فاشلة ولكنها قـذرة :

كان الصراع بيني وبين الصهاينة حول موضوع قتل الأسرى وموضوع اتصالي بزعيم الحزب الوطني الاشتراكي البريطاني ، يدور على صفحات الجرائد بعنف ، ولكن نتائجه كانت في صالحي . فقد كانت حجتي قوية واقتنع الشعب البريطاني بأنني لم أصدر أي أوامر بقتل الأسرى وأن الادعاءات بأنني كنت أقوم بتمويل الحزب الوطني الاشتراكي هو اتهام باطل . وكان على الصهاينة أن يبحثوا عن ثغرة ينفذون منها إلي حتى لو احتاج الأمر أن يلفقوا تهمة ضدي . وجاءتهم الفرصة ـ أو إن شئنا الدقة فنقول خلقوا الفرصة لذلك ـ يوم 21 يونيو 74 .

في يوم 19 يونيو قبضت الشرطة البريطانية على سيدتين مصريتين في محلات ماركس ان سبنسر (وهو محل يملكه يهودي ويدخل ضمن المحلات المفروض على المصريين والعرب مقاطعتها) بتهمة النشل وقدمت السيدتان إلى المحكمة في صباح اليوم التالي فحكم القاضي

بتغريم كل من السيدتين بمبلغ 300 جنيه استرليني واخلاء سبيلهما . كانت إحدى السيدتين تحمل جواز سفر ديبلوماسي وان كان زوجها لم يكن ديبلوماسيا . وكان جواز سفر الثانية يبين أن زوجها يعمل في وزارة السياحة . وفي صباح يوم 21 يونيو صدرت الصحف البريطانية تحمل الخبر وعنوانه «حرم وزير السياحة المصري وحرم أحد السفراء المصريين an egyp tian ambassador تم تغريم كل منهما أمس بمبلغ 300 جنيه استرليني لارتكابهما نشل بضائع قيمتها 74 جنيها» وقد ذكرت الصحف أسماء السيدتين والقصة بالكامل في أماكن واضحة وظاهرة . وتدخلت السفارة المصرية بسرعة فأرسلت بيانا إلى الصحف تنفي فيه أي علاقة زواج أو قرابة بين وزير السياحة المصري أو أحد السفراء المصريين بأي من السيدتين المذكورتين وتم نشر هذا البيان في الصحف يوم 22 يونيو .

وقد كان من الممكن أن ينتهي هذا الحادث المؤسف عند هذا الحد ، لولا أن أصابع الصهيونية التي لا تهدأ أرادت أن تستغل هذا الحادث لتشويه سمعة مصر بصفة عامة وسمعتي بصفة خاصة . ففي خلال نهار يوم 21 يونيو أخذت إحدى محطات الإذاعة البريطانية التجارية الصغيرة والتي يسيطر عليها اليهود في بريطانيا وهي محطة اتحاد إذاعة لندن(L.B.C (London Broadcasting Corporation) تذيع الخبر على مستمعيها كل ساعة ولمدة خمس مرات ولكنها بدلا من أن تقول حرم أحد السفراء المصريين قالت حرم السفير المصري The wife of the egyptian ambassador ان كل ما قامت به الإذاعة هو استبدال كلمة أحد an بحرف التعريف ال The. وبالرغم من أنها لم تذكر اسمي وبالرغم من أنها ذكرت أن اسم الزوجة هو سعاد وأن هذا هو ليس اسم زوجتي ، إلا أن المستمع العادي لابد وان يتصور ان إذاعة لندن عندما تقول حرم السفير المصري فلابد أنها تقصد السفير المصري في لندن سواء ذكرت كلمة لندن أم لم تذكرها . كما وأن ملايين المصريين العرب والمصريين الذين يعرفونني لا يعرفون اسم زوجتي وبالتالي فقد يتصوروا خطأ أن اسمها هو سعـاد .

وقد اتصلت فورا بأحد المحامين وطلبت اليه أن يرفع دعوى ضد الإذاعة المذكورة ، وكنت أعتقد أنني قد استطعت أن أحسم الموقف ولاسيما بعد أن توقفت الإذاعة المذكورة عن ترديد الخبر بعد أن كانت قد رددته بصورته المحرفة لمدة خمس مرات . ولكن يبدو أنني في تصوري هذا لم أكن أقدر النفوذ الصهيوني حق قدره . ففي صباح اليوم التالي اتصل بي تليفونيا سفيرنا في إسبانيا وأبلغني أن الإذاعة والتليفزيون والصحافة هناك أذاعت الخبر المحرف بل وأضافت كلمة لندن إلى صفة السفير فأصبح الخبر يذاع في إسبانيا على أن السيدتان المذكورتان هما حرم وزير السياحة المصري وحرم السفير المصري في لندن . ثم توالت المعلومات علي من

أثينا Athens ، فيينا Vienna ، ومن بلاد أوروبية أخرى بأن الإذاعة والصحافة تقوم بإذاعة الخبر بنفس تلك الصورة المحرفة . وبالرغم من قيام سفاراتنا في تلك البلاد بإصدار البيانات التي تكذب هذا الخبر ، إلا أن التشويه المقصود للسمعة كان قد وجد طريقه إلى ملايين المستمعين والقراء في أوروبا .

وفي أثناء بحث القضية مع المحامي اتضح أنني لا أستطيع أن أقاضي وسائل الإعلام التي نشرت الخبر في البلاد الأجنبية إلا أمام محاكم تلك البلاد حتى ولوكانت لندن هي مصدر هذا الخبر وأن الجهة الوحيدة التي يمكنني أن أقاضيها في لندن هي محطة الإذاعة البريطانية L.B.C. . كتبت خطابين إلى القاهرة أحدهما إلى وزير الخارجية والآخر إلى وزير السياحة وطالبت وزارة الخارجية أن تتولى هي رفع الدعوى حيث أن قضية التشهير واضحة واننا سوف نربح القضية لا محالة ونقوم بفضح وسائل الإعلام التي تساندها الصهيونية . كان من واجب وزارة الخارجية أن تتحمل مسؤوليتها في هذا المجال فهي وحدها التي تستطيع أن تجمع المعلومات وتتابع القضية بواسطة سفرائها في الخارج ولكنها وللأسف الشديد لم ترغب في القيام بهذا الدور . وردا على خطابي الذي أرسلته إلى الوزارة بتاريخ 22 نوفمبر 74 حول هذا الموضوع والذي تضمن أربعة صفحات كاملة وصلتني برقية من السيد اسماعيل فهمي وزير الخارجية بتاريخ أول ديسمبر وفيها يطلب الوزير مني أن أصرف النظر عن هذا الموضوع لأنه قد يدفع وسائل الإعلام هذه إلى أن تقف ضدنا في القضايا السياسية . ولو أن لدي الإمكانيات المادية لوقفت وحدي ضد تلك الوسائل الإعلامية الصهيونية ولكن كيف السبيل إلى الذهاب إلى مدريد وأثينا وفيينا وغيرها من البلاد متحملا مصاريف السفر والمحاكم الخ بينما تقف وزارة الخارجية المصرية موقف المتفرج واللامبالاة ؟

اكتفيت بالسير في إجراءات الدعوى ضد الإذاعة وأخذت الأمور تسير في مجراها الطبيعي ولكن ببطء شديد إلى أن وقفت الإذاعة المذكورة أمام المحكمة يوم 18 يونيو 75 وأعلنت اعتذارها ودفعت لي تعويضا ماليا مقابل الأضرار التي ألحقتها باسمي نتيجة إذاعتها الخبر على النحو الذي أذاعته كما أسلفت . وهكذا انتصرت على الدعاية الصهيونية مرة أخرى ولكنه لم يكن انتصارا حاسما وشاملا لأنه كان قاصرا على بريطانيا فقط . أما الدعاية الصهيونية في البلاد الأخرى فإنه بالرغم من أن اتهاماتها كانت أكثر تحديدا إلا أنها فلتت من مخالبي وذلك نظرا لتخلي الحكومة المصرية عن الوقوف بجانبي في هذا الصراع .

الدعوة لمقاطعة احتفال 6 أكتوبر :

عندما اقترب شهر أكتوبر 74 أعلنت السفارة المصرية بأنها ستحتفل بمناسبة 6 أكتوبر ووجهت الدعوة إلى ما يقرب من 1000 مدعو . وثارت ثائرة الصهاينة وكتبت جريدة الديلي

اكسبرس Daily Express تدعو إلى مقاطعة هذا الحفل لسببين : السبب الأول هو اعتبارها أن يوم 6 أكتوبر هو رمز للحرب والعنف وأن العالم المتحضر لا يجوز له أن يمجد مثل هذه الأيام ، أما السبب الثاني فهو أن الفريق الشاذلي هو صاحب هذا اليوم وهو في نفس الوقت صاحب الدعوة للاحتفال بهذا اليوم . وقمت بالرد على هذه الحملة بخطاب مطول بعنوان «الذئب يتخفى في جلد شاه» ونشر بنفس الجريدة بتاريخ 5 أكتوبر . ومع أن الجريدة قد أسقطت جزءا هاما من خطابي اليها كما أنها غيرت عنوان المقال ليكون «نقطة تحول» فإن هذا لم يمنع من أن هذا الرد كان حاسما ضد كل الادعاءات التي أثيرت لمقاطعة هذا الحفل . وأنه لمن المثير حقا أن إقبال الناس على حضور هذا الحفل كان يفوق كل التوقعات ، ونجح الحفل نجاحا باهرا .

حفل تكريم قتلى الحرب في هارو :

اتفق أهالي مقاطعة هارو Harrow في أنجلترا على إقامة نصب تذكاري لقتلاهم في الحرب العالمية الثانية ، على أن يقام هذا النصب التذكاري على قطعة حجر مصرية من منطقة العلمين في صحرائنا الغربية حيث سقط الكثير من الجنود البريطانيين . وقد تحدد يوم 27 أكتوبر 74 للاحتفال بإزاحة الستار عن حجر العلمين الذي أهدته الحكومة المصرية لأهالي هارو . وقام عمدة هارو بدعوتي لكي أكون ضيف الشرف في هذا الاحتفال . وثارت ثائرة للصهاينة في بريطانيا وأخذوا يضغطون على عمدة هارو لكي يسحب دعوته لي ولكنه صمد أمام ضغوطهم وأصر على أن الدعوة قائمة وأنه لن يقوم بسحبها . وهنا حول الصهاينة مدافعهم نحوي فأخذوا يهددونني في محادثات تليفونية وفي خطابات بدون توقيع بأنهم سوف يغتالونني إذا ذهبت إلى هذا الاحتفال ولكن ذلك لم يزدني إلا إصرارا على الحضور وأعلنت ذلك على الملأ لكي يعرفوا أنهم لن يخيفونني بهذه التهديدات . وهنا أعلن زعماء اليهود في هارو بأنهم سيقاطعون الاحتفال ، وطالبوا أنصارهم بمقاطعته . وفي اليوم المحدد حضرت الاحتفال الذي تخلف عنه إثنان من زعماء اليهود في هارو ، ولكن هذا التخلف لم يؤثر مطلقا في سير الاحتفال ونجاحه . لقد خرجت من هذه المعركة بأصدقاء جدد في هارو ، أما الأعداء فلم يزد عددهم وان كان قد تم تحديدهم وحصرهم وهذا في حد ذاته يعتبر ربحا كبيرا لأن من لا يعرف عدوه فإنه بالطبع لن يستطيع أن يجابهه ولن ينتصر عليه .

الوجه العربي القبيح :

تحاول الصهيونية أن تصور الوجه العربي على أنه وجه قبيح غير متحضر يسفك الدماء ويقتل الأبرياء . وإذا اعوزها الدليل على ذلك فإنها لا تتورع أن تختلق بعض الأحداث

أو تشوه بعض الأحداث لكي تقنع القراء والمستمعين بما تريد لهم أن يفهموه وأن يقتنعوا به .
في يوم 6 يناير 75 اختطف أحد الشبان طائرة من طائرات شركة الخطوط الجوية البريطانية بينما كانت في إحدى رحلاتها الداخلية في بريطانيا . وعندما هبطت الطائرة بمختطفها في مطار لندن كانت المعلومات عن هوية خاطف الطائرة وأهدافه لازالت شحيحة ولكن مختطف الطائرة سرعان ما استسلم إلى الشرطة البريطانية واستأنفت الطائرة رحلاتها في نفس اليوم .
وقد فرضت الشرطة البريطانية نطاقا من السرية على التحقيقات التي كانت تجريها مع مختطف الطائرة لمدة 48 ساعة ، قبل أن تعلن نتيجة التحقيق التي أظهرت أن مختطف الطائرة كان بريطاني الجنسية ، وأنه كان يحمل مسدسا من مسدسات لعب الأطفال التي تشبه المسدسات الحقيقيـة .

وفي خلال اليومين التي سبقت إعلان تحقيق الشرطة البريطانية كانت معلوماتنا عن هذا الحادث تعتمد على ما تنشره وسائل الإعلام المختلفة . وكانت معظم هذه الوسائل تشير بطرف خفي أن مختطف الطائرة هو شاب عربي . وقد ذهبت إحدى الجرائد إلى أكثر من ذلك فقالت إنه كان يلبس الملابس العربية . ورغم سذاجة هذا الادعاء ـ حيث أن مختطف الطائرة إذا كان عربيا فإنه لن يحاول أن يلفت اليه الأنظار بارتداء العباءة والعقال ـ فقد سكتنا على مضض أمام هذه الادعاءات الظالمة انتظارا لما يسفر عنه التحقيق . وبعد أن أعلنت الشرطة نتيجة تحقيقاتها سارعت بارسال خطاب إلى رئيس تحرير جريدة التايمز Times أنتقد فيه تحامل وسائل الإعلام البريطانية ضد العرب . وما أن نشر الخطاب في جريدة التايمز بتاريخ 10 يناير 75 حتى انهالت علي الخطابات التي تؤكد أن العرب هم الذيـن يختطفون الطائرات ، وأن هذه الحالة النادرة التي كان فيها مختطف الطائرة بريطاني الجنسية هي التي أوقعت الإعلام البريطاني في هذا الخطأ ، وهو خطأ مقبول لأن الحالات النادرة لا يمكن أن تكون أساسا للتقدير عند بحث الاحتمالات . وكان يتزعم هذه الحملة في الجرائد المستر سكوت فوربس Mr Scott Forbes الذي كتب مقالا في التايمز بتاريخ 16 يناير يقول فيه أن العالم قد أصبح الآن يربط بالغريزة بين العرب وبين كل حادث اختطاف طائرة .

وكان لابد أن أراجع إحصائيات حوادث اختطاف الطائرات لكي أرد على هذا الهجوم . ان الأرقام لا تخطيء وهي كفيلة بأن تكشف جميع الحقائق دون ما حاجة إلى الصراخ . وقد ثبت لي من الدراسة أن حوادث اختطاف الطائرات منذ عام 1969 وحتى نهاية عام 1974 بلغ 80 حالة وكان توزيعها كما يلي : أمريكا 46 ، العرب 15 ، التشيك 4 ، بولنديون 3 ، أترك 2 ، كنديون 1 ، كرواتيون 1 ، أريتريون 1 ، فليبيون 1 ، فرنسيون 1 ، يابانيون 1 ، كشميريون 1 ، كوريون 1 ، ليتوانيون 1 ، فيتناميون 1 . وحيث

أن تعداد سكان العالم العربي في ذلك الوقت كان يعادل حوالي ثلثي تعداد الولايات المتحدة الأمريكية ، فإنه من الواضح أن عدد حوادث الاختطاف بالنسبة لتعداد السكان يكون في العالم العربي نصف ما هو عليه في أمريكا . وقد تم نشر هذا البحث وتعليقي عليه في جريدة التايمز بتاريخ 31 يناير 75 وقد كان هذا المقال هو القول الفصل في هذا الموضوع ، وعلى أثره وصلني عدة خطابات تأييد من كثير من القراء البريطانيين .

الإسرائيليون يدمرون القنيطرة :

في 31 مايو 74 وقع في جنيف كل من سوريا وإسرائيل على اتفاقية الفصل بين القوات . وبموجب هذه الاتفاقية كان على اسرائيل أن تنسحب من أجزاء من مرتفعات الجولان بما في ذلك مدينة القنيطرة بنهاية 19 يونيو التالي (19 يوم بعد التوقيع على الاتفاق) . وبينما كانت المفاوضات جارية بين الطرفين بواسطة الدكتور كيسنجر خلال شهر مايو 74 قامت شركة التليفزيون البريطاني أي . تي . ان بإرسال بعثة تليفزيونية إلى إسرائيل . وقامت هذه البعثة بعمل تحقيق كامل من مشكلة الجولان وطافت بمدينة القنيطرة والتقطت لها فيلما وثائقيا ، وتم عرض هذا الفيلم في بريطانيا قبل التوقيع على اتفاقية فصل القوات بعدة أيام فقط . وعندما دخل السوريون مدينة القنيطرة يوم 20 يونيو اتضح لهم أن الإسرائيليين قد قاموا بتدمير المدينة تدميرا شاملا . لم يكن هناك منزلا واحدا أو حتى غرفة واحدة من منزل لم تمتد اليه يد التدمير والنهب . لقد كان منظر المدينة رهيبا وينم عن مدى الهمجية التي يتصف بها بنو إسرائيل . قامت سوريا برفع صوتها بالشكوى للهيئات الدولية ولكن إسرائيل كعادتها دائما نفت أن تكون قد قامت بتدمير منازل المدينة عن عمد ، وادعت أن منازل المدينة قد دمر أثناء القتال ابان حرب 67 وحرب 73 .

وهنا قررت سوريا أن تنتج فيلما وثائقيا عن القنيطرة لكي تؤكد للهيئات الدولية والإعلام العالمي أن تدمير مدينة القنيطرة قد تم بفعل فاعل وليس كعمل من الأعمال الحربية ، وكلفت أحد الرجال الأمريكيين وهو المستر تيتو هوارد Mr Tito Howard بإخراج هذا الفيلم . وحيث أن شركة التليفزيون البريطانية أي . تي . ان قد درجت على أن تبيع أفلامها الوثائقية لمن يرغب في شرائها بعد أن تكون هذه الأفلام قد استنفذت أغراضها ، فقد تقدم المستر هوارد بطلب شراء فيلم القنيطرة وحصل عليه بعد أن دفع الثمن المحدد ، وبذلك أصبح تحت يده وثيقة قوية تبين حالة القنيطرة قبل 3 ـ 4 أسابيع من إخلائها بواسطة إسرائيل . كانت المقارنة بين فيلم القنيطرة الذي صورته شركة التليفزيون البريطانية أي . تي ان . قبل انسحاب الاسرائيليين منها والفيلم الذي صوره المستر هوارد عن نفس المدينة بعد انسحاب

الإسرائيليين منها يبين بوضوح مدى التدمير المتعمد الذي مارسته إسرائيل قبل أن تنسحب من المدينـة .

وللدعاية عن الفيلم وجه المستر هوارد الدعوة إلى رجال الإعلام لحضور حفل عرض خاص لهذا الفيلم في قاعة عرض The *Sapphire Preview Theatre* في الساعة الحادية عشر من صباح يوم الإثنين 27 يناير 75 . لقد اتضح لأصدقاء إسرائيل في بريطانيا أن عرض هذا الفيلم بهذه الصورة سوف يثبت للرأي العام البريطاني أن إسرائيل قد قامت فعلا بتدمير القنيطرة عمداقبل أن تنسحب منها ، ومن هنا وجهوا اعتراضهم إلى الشكل دون الجوهر . لقد ركزوا اعتراضهم على أن شركة أي . تي . ان . عندما تبيع أفلامها الوثائقية فإنها تبيعها للاستخدام الخاص وليس للاستخدام العام وبالتالي فإن المستر هوارد لا يجوز له أن يعرض الفيلم الذي اشتراه من أي . تي . ان . في عرض عام . وقد قدموا أشكالا قانونيا بذلك وتمكنوا من استصدار قرار عاجل من المحكمة بوقف عرض الفيلم إلى أن يتم اتخاذ قرار نهائي بواسطة المحكمة .

وفي صباح يوم الإثنين ذهبت مع السفير السوري لحضور العرض الخاص لفيلم القنيطرة حيث شاهدنا القسم الذي تم تصويره بعد انسحاب إسرائيل ، واستمع الحاضرون إلى اعتذار المستر هوارد عن الأسباب التي منعت عرض الجزء الآخر من الفيلم وأن الموضوع قد أصبح بأكمله أمام القضاء البريطاني . وبعد عرض الفيلم فتح باب المناقشة فقام أحد الصحففين اليهود وردد أقوال إسرائيل بأن هذا التدمير قد حدث أثناء القتال الأعوام 67 ، 73 ولكنني وقفت بعد ذلك وقلت ان أي جندي محترف أو أي خبير في المفرقعات يستطيع أن يؤكد من هذه الصور ان هذا التدمير هو نتيجة أعمال نسف مدبرة وأنه قطعا ليس نتيجة أي قصف بواسطة الطيران أو المدفعية . وأضفت إلى ذلك قائلا «لقد سبق لي أن شاهدت الفيلم الذي صور مدينة القنيطرة قبل انسحاب إسرائيل منها ومع ذلك فإني لا أطلب منكم أن تصدقوني لمجرد القول بأن الفرق بين الفيلمين يثبت إدانة إسرائيل . إنني على يقين بأن أي لجنة فنية دولية يمكنها أن تؤكد من الصور التي شاهدناها اليوم أن هذا التدمير هو عملية نسف وتدمير متعمدة وليست عملا من من أعمال المدفعية أو الطيران . وبعد مناقشات مطولة انصرفنا لكي نتابع سير هذه القضية في المحاكم البريطانية . وبعد سلسلة من الجلسات حضرت عددا كبيرا منها أباحت المحكمة عرض الفيلم . ولكن وبعد كل هذا العناء لم تقبل أي صالة عرض سينمائية أن تعرض هذا الفيلم في دارها . وكان النجاح الوحيد الذي تحقق في هذا المجال هو عرض الفيلم في أحد قاعات مجلس العموم يوم 10 فبراير وحضره عدد من أعضاء المجلس الذين يهتمون بقضايا الشرق الأوسط بالإضافة إلى عدد كبير من أصدقاء العرب في بريطانيا .

بينما كنت أهم بالانصراف من قاعة العرض الخاص لفيلم القنيطرة يوم 27 يناير ، اقترب مني أحد الأشخاص وقدم نفسه على أنه مندوب مجلة جويش كرونيكل في لندن *The Jewish Chronocile* وطلب أن يجري معي حديثا فقلت له بكل سرور ولكن بشرط واحد . فسألني وما هو هذا الشرط فقلت له أن ينشر كل ما أقوله دون أن يضاف اليه كلمة واحدة أو ينقص منه كلمة واحدة . فأجاب بنعم وقال إنه يريد أن يبدأ فورا . فقلت له يجب أولا أن نوقع عقدا بهذا الاتفاق وعليه أن يحضر إلى السفارة حيث يتم كتابة العقد ثم تسجيل الحديث بصوتي وبخط يدي حتى نضمن عدم إجراء أي تحريف في الحديث . وهنا ظهرت عليه علامات التردد ولكنه لم يرغب أن يتراجع أمام من كانوا يستمعون إلى هذا الحديث فوعد بالاتصال بي صباح اليوم التالي ، ولكنه لم يفعل ذلك أبدا ولم يتصل بي مطلقا . وفي أحد الأيام كنت أقص هذه القصة على أحد الصحفيين البريطانيين فقال ضاحكا «هل تريد يا جنرال أن تصبح مليونيرا نتيجة التعويض الضخم الذي تأخذه من المجلة إذا ما أجرت تغييرا في حديثك ، أم تريد أن تتخذ هذه المجلة الصهيونية منبرا لمهاجمة الصهيونية ؟» فقلت له : إنني أترك لهم حق الخيار فأي الحلين يرضيني .



الفصل الثالث

الصراع بيني وبين النظام المصري

بينما كنت أتصارع مع الصيونية وأحاول أن أكسب أصدقاء جدد للقضية العربية ، كنت أشعر أن حكومة بلادي تسير بالقضية العربية في الاتجاه الخاطىء ، وان هذا الطريق الذي يسلكه السادات لابد وأنه سوف يجر مصر والبلاد العربية إلى كارثة محققة . كنت في موقف صعب للغاية . كنت الممثل الرسمي لنظام السادات وبموجب هذا المنصب كان على أن أدافع عن سياسة هذا النظام وأبرر تصرفاته ، في حين أن هذه التصرفات كانت تتعارض مع أفكاري وما كنت أعتقد أنه في مصلحة مصر ومصلحة الأمة العربية . وكان علي أن أجد حلا لهذا التناقض العجيب . وقد استقر رأيي في النهاية على أن تقتصر احاديثي في وسائل الإعلام البريطانية على شرح وتوضيح وجهة النظر العربية الأصيلة حتى لو تعارض ذلك مع سياسة السادات ولكن بدون التشهير أو التنديد به . أما بالنسبة لحديثي مع العرب فكنت أكثر صراحة في توجيه النقد إلى السادات ونظامه .

حديث مع سليم اللوزي في لندن :

في مساء يوم الإثنين 10 يونيو 1974 التقيت مع الأستاذ سليم اللوزي في فندق هايدبارك Hyde Park Hotel في لندن خلال حفل استقبال كان السفير السعودي قد أقامه احتفالا بحضور الأمير فهد بن عبد العزيز إلى لندن . عاتبت الأستاذ اللوزي رئيس تحرير مجلة الحوادث اللبنانية على ما نشره في مجلة الحوادث قبل ذلك بحوالي ستة أسابيع حول حرب أكتوبر وقلت له أنه لم يتوخى الدقة ولم يحاول أن يبحث عن الحقيقة من جميع المصادر . فقال لي أن ما نشره هو جزء مما قاله السادات عني وليس كله ، وأنه أشفق أن يكتب كل

ما قاله السادات عني حتى لا يساهم في تلويث سمعة بطل العرب وليس بطل مصر وحدها. وقال لي أنه يحتفظ بالتسجيلات الصوتية لكل ما قاله السادات . قلت له إنني أكتفي اليوم بأن أقول لك بأن كل ما قاله السادات عني وعن الثغرة هو كذب وافتراء ، وسوف يجيء اليوم الذي أستطيع فيه أن أحكي قصة حرب أكتوبر كاملة . فرد علي قائلا بأنه سوف يكون أسعد إنسان إذا ما نشرت مذكراتي وأنه سوف يكون أول من يقوم بتصحيح ونقد ما قاله السادات . قلت له ضاحكا «قد تأتي الفرصة بعد عام ونصف أي بعد أن تنتهي مدة رئاسة السادات ويصبح مواطنا عاديا» فرد ساخرا «وهل تتصور أنه لن يجدد رئاسته في أكتوبر 76» فقلت له «ألم يعلن هو ذلك مرارا وتكرارا ؟ ألم يقسم على ذلك أمام الشعب وأمام المؤسسات الدستورية ؟» فرد الصحفي المجرب على السفير الجندي الذي يؤمن بالمثل العليا وقال «إذا كنت تأمل في ذلك فإنك سوف تنتظر طويلا قبل أن ترى السادات خارج السلطة . إنه يستطيع أن يدفع ببعض الأعضاء من مجلس الشعب ومن الاتحاد الاشتراكي للمطالبة بإعادة ترشيحه ، ويستطيع أن يحشد المظاهرات التي تهتف وتطالب بإبقائه رئيسا لمدة ثانية ثم يعلن هو بعد ذلك موافقته نزولا على رغبة الجماهير» .

لقد مضى الآن ست سنوات على حديثي هذا مع الأستاذ اللوزي وقد تحقق جزء منه ولم يتحقق الجزء الآخر . لقد تحقق ما تنبأ به سليم اللوزي من أن السادات سوف يجدد رئاسته عام 76 بعد أن اتبع نفس الأسلوب الذي تصوره اللوزي . بل وأكثر من ذلك فقد قام السادات بتعديل الدستور عام 79 بحيث يضمن لنفسه البقاء رئيسا مدى الحياة . ولكن في نفس الوقت فإن سليم اللوزي لم يفِ بما وعد به . لقد بدأت في نشر مذكراتي عن حرب أكتوبر اعتبارا من 8 ديسمبر 78 وحتى 31 أغسطس 79 وأصبحت الحقائق معروفة على مستوى الجماهير العربية ومع ذلك فقد استمر الأستاذ سليم اللوزي رئيس تحرير مجلة الحوادث في ترديد نفس الأكاذيب والادعاءات الباطلة التي يدعيها السادات دون أن يشير من قريب أو بعيد إلى رأي الفريق سعد الدين الشاذلي في هذه المواضيع .

ففي مقال للأستاذ سليم اللوزي نشره في مجلة الحوادث في العدد 1185 بتاريخ 20 يوليو (تموز) 1979 وادعى فيه أنه حديث أجراه مع شخصية عسكرية مصرية سأل صاحبه في براءة «إذن ما يقوله الفريق سعد الدين الشاذلي من أنه كان يجب سحب الجيشين الثاني والثالث من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية لمواجهة القوة اليهودية العابرة هو قول سليم» فيرد عليه صاحبه قائلا «نظريا سليم» . وواضح من هذا الحوار أن سليم اللوزي كان يريد أن يؤكد ادعاءات السادات الكاذبة بأنني أوصيت بسحب قوات الجيش الثاني والثالث من شرق القناة . وهذه تهمة نفيتها في مذكراتي نفيا باتا . لقد كان سليم اللوزي شأنه شأن أي صحفي

تاجر يبيع الكلام لمن يدفع أكثر. يجب أن نعرف جيدا أن الإعلام سلاح خطير، وأن هذا السلاح الخطير يجب ألا يترك في أيدي التجار والأغنياء أو الباحثين عن الثروة [2].

حديث مع الطلبة العرب في لنـدن :

يتوافد على أوروبا وأمريكا كل عام عدة آلاف من الشبان العرب ممن أتموا دراساتهم الجامعية في الجامعات العربية، وذلك بهدف إجراء الدراسات العليا والتخصص في العلوم والفنون الرفيعة التي قد لا يتاح لهم إمكانية إتمامها في البلاد العربية. وفي خلال السنوات التي يقضيها هؤلاء الدارسون هناك فإنهم عادة ما يتأثرون بالنظم السياسية والاجتماعية السائدة في تلك البلاد. وعندما يعود هؤلاء إلى بلادهم فإنهم يشتركون ويقودون الصراع الفكري والثقافي ويلعبون دورا هاما في اختيار المسار الذي يحدد مستقبل تلك البلاد. وقد تنبهت الأنظمة العربية إلى أهمية ومدى التأثير الذي يمكن أن تحدثه تلك الفئة في مستقبل البلاد العربية، فأولتها رعاية سياسية خاصة تهدف إلى حمايتها من التأثر بالأفكار السياسية التي تتعارض مع تلك الأنظمة. وتلعب الأنظمة العربية دورا هاما في انتخاب الأشخاص الذين يسمح لهم بالدراسة في الخارج وانتخاب الدولة الأجنبية التي يدرسون فيها وذلك كحد أدنى لضمان سير المبعوث في إطار الخط السياسي للنظام، ثم بعد ذلك تضعه تحت رقابة أجهزة الأمن التابعة لها لكي تضمن عدم انحرافه عن الطريق الذي رسمته له. ونتيجة لهذه السياسة فإن الطلبة العرب في الخارج هم في الحقيقة ممثلين للأنظمة التي تقوم بانتخابهم والإنفاق عليهم ومراقبتهم. وبالتالي فإنهم يؤيدون هذه الأنظمة ويؤيدون سياستها الخارجية والداخلية تأييدا مطلقا. فإذا كانت هذه الدولة تقدمية لبس جميع طلبتها لباس التقدمية، وان كانت الدولة محافظة لبس جميع طلبتها لباس المحافظين. إذا كانت الدولة تعادي أمريكا وتتعاون مع الاتحاد السوفيتي فإن الطلبة المنتمين اليها يكون لهم نفس الرأي، فإذا تغيرت سياسة الدولة في اتجاه أمريكا فإن الطلبة يقومون بتغيير اتجاههم.

ان الأنظمة العربية تملك أوراق ضغط هائلة على مبعوثيها في الخارج. إنها هي التي تختارهم وهي التي تنفق عليهم وتتحكم في مستقبلهم. ان سحب الدعم المالي أو سحب جواز سفر المبعوث تعني تشريده والقضاء عليه. لذلك فإن المبعوثين من الدول العربية ليس لأي منهم خيار سياسي، بل ان عليه التزام سياسي يجب أن يقوم به. وعندما تجرى الانتخابات لاختيار رئيس وأعضاء اتحاد الطلاب العرب في إحدى البلاد الأجنبية، فإن هذه الانتخابات تأخذ شكل صراع خفي بين الأنظمة العربية المختلفة. ويقدم كل نظام إلى مبعوثيه جميع التسهيلات التي تمكنهم من الحصول على أكبر عدد ممكن من الأصوات. ويشمل ذلك

مصاريف الدعاية والانتقال من مقر إقامتهم إلى مكان الانتخاب وإقامتهم في الفنادق فترة الانتخاب الخ . وفي ظل هذه القواعد المرعية وصلت إلى لندن عام 1974 لأستلم مهام منصبي كسفير لمصرفي بريطانيا حيث كان الطلبة العرب بها يقدرون بعدة آلاف وكانت غالبيتهم العظمى من المصريين والعراقيين .

في يوم 5 أغسطس 74 زارني بالسفارة وفد من الطلبة العرب في المملكة المتحدة ووجه إلي الدعوة لحضور حفل يزمعون إقامته في لندن لتكريمي على الدور الذي قمت به ابان حرب أكتوبر المجيدة ويلتمسون مني الموافقة على إلقاء كلمة بهذه المناسبة ، فقبلت الدعوة وتحدد يوم 12 أغسطس لإقامة هذا الاحتفال في النادي المصري الكائن في المبنى رقم 4 شستر فيلد جاردنز . وفي الميعاد المحدد وصلت إلى المكان حيث كان غاصا بالطلبة من جميع الأقطار العربية . وبعد أن ألقى الدكتور وميض نظمي رئيس الاتحاد (عراقي الجنسية) كلمة الترحيب والتكريم المعتادة في مثل هذه الظروف قدم إلي باسم الاتحاد هدية رمزية هي عبارة عن حافظة أوراق ، ثم طلب مني الكلمة . ألقيت كلمة مرتجلة قصيرة لكي أوفر أطول وقت ممكن للأسئلة والمناقشات ، لأني أومن بأن النقاش الحر الصريح هو أفضل الوسائل لخلق الثقة بين السائل والمجيب .

كان الحاضرون يمثلون مختلف الاتجاهات السياسية في العالم العربي فمنهم الناصريون ومنهم البعثيون ومنهم الماركسيون ومنهم الليبراليون ومنهم الإخوان المسلمين ومنهم المستقلون . كانوا شريحة من المثقفين العرب الذين يمثلون جميع التيارات التي تهب على العالم العربي ، وكانت كل مجموعة تحاول أن تتصيد أخطاء المجموعات الأخرى . قد لا يكون هناك ديموقراطية داخل كل مجموعة حيث يلتزم أفراد كل مجموعة برأي النظام الذي يمثلونه ، ولكنهم في مجموعهم يشكلون برلمانا تناقش فيه المشاكل العربية بحرية تامة وتوجه فيه الاتهامات بعنف وقوة إلى الآراء والاتجاهات المضادة . لقد نصحني بعض الأصدقاء بألا أحضر هذا اللقاء . لقد قالوا لي أن السفير إنما يلتزم برأي بلاده ولكن سوف يحضر هذا اللقاء الكثير من الدارسين الذين يعارضون سياسة السادات وأنهم سوف يوجهون لي أسئلة محرجة في هذا المجال . ولكني رفضت الأخذ بهذه النصيحة .

لم أكن أعتبر نفسي سفيرا تقليديا . لقد كان خلفي أمجاد حرب أكتوبر ولم أكن في حاجة إلى أن أشتري رضاء السادات بأن أظهر تأييدي له في جميع الأحوال ان خطأ أو صوابا . لقد كان شعاري هو أن أؤيده ان كان على حق وأن أنتقده إن كان على باطل . لقد كنت أرى في هؤلاء الطلبة قادة الأمة العربية في الثمانينات والتسعينات ، وكنت أريد أن أعطيهم

درسا في الشجاعة الأدبية وضرورة الوقوف موقف المعارضة الحرة ضد أي رأي لا يقتنعون بصحته ، حتى لو كان هذا الرأي هو الرأي الرسمي لدولهم .

كان حديثي مع الطلبة العرب صريحا للغاية . أجبت على الكثير من أسئلتهم عن حرب أكتوبر ولكني اعتذرت عن إجابة بعضا من هذه الأسئلة على اعتبار أن ميعاد إذاعتها لم يحن بعد . ولكن كانت الإجابات التي قلتها تعني بوضوح أن التصاريح والأحاديث التي أدلي بها السادات كانت مليئة بالكذب المتعمد . أخبرتهم بأن في مصر تيارا قويا ـ دون أن أذكر أن السادات على رأس هذا التيار ـ ينادي بعزلة مصر عن العالم العربي وخروجها من المعركة ، اعتمادا على أن مصر قد تحملت الجزء الأكبر من تكاليف الحرب مع إسرائيل ، وأن الدول العربية لم تتحمل تصيبها العادل في تلك المعارك . وقد حذرتهم بأنه لا مستقبل للبلاد العربية بدون مصر ولا مستقبل لمصر بدون العالم العربي وأن هذه الحقيقة تعلمها الأمبريالية والصهيونية وأنهم يعملون سويا بالتعاون مع بعض المصريين في عزل مصر عن العالم العربي . وقد طلبت اليهم أن يضغطوا على حكومات بلادهم لكي تقدم العون الاقتصادي إلى مصر حرصا على إبقاء مصر في المعركة . وعندما تعرضت إلى موضوع تنويع مصادر السلاح الذي كان السادات قد أعلنه كشعار ، شرحت لهم استراتيجية الدول العظمى في منطقة الشرق الأوسط . وكيف أن أمريكا ترمي بكل ثقلها خلف إسرائيل وتمدها بأسلحة متطورة تضن بأن تمد بها حلفاءها في حلف شمال الأطلنطي . وأن أمريكا والدول الغربية لن تقوم بإمداد مصر أو أي دولة عربية بسلاح متطور يشكل من ناحية الكم والكيف أي خطورة على إسرائيل . وأن الاتحاد السوفيتي هو الدولة الوحيدة في العالم التي تستطيع أن تمد مصر والعالم العربي بالسلاح بالحجم والكيف الذي يمكنهم من استرداد أراضيهم . وقلت أن السوفيت قد أمدوا الدول العربية خلال العشر سنوات الماضية بحوالي 5000 دبابة ، 1000 طائرة وأن أمريكا والدول الغربية لا يمكن أن تحل محل الاتحاد السوفيتي كمورد سلاح للدول العربية إلى الحد الذي يمكنهم من استرداد أراضيهم .

وعن استراتيجيتنا خلال الحرب قلت لهم ما سبق لي أن قلته لوفد كلية الدفاع الوطني الكندي يوم 29 مايو 73 ، أثناء زيارته لمصر . هناك نقطتي ضعف خطيرتين لدى إسرائيل . النقطة الأولى هي عدم قدرتها على تحمل الخسائر في الأرواح . والنقطة الثانية هي عدم قدرتها على تحمل حرب طويلة . إن إسرائيل عندما تعلن التعبئة العامة فإنها تستدعي حوالي 20٪ من تعداد سكانها اليهود للخدمة في قواتها المسلحة . ونتيجة لذلك فإن إنتاجها الزراعي والصناعي يكاد يتوقف توقفا تاما خلال فترة التعبئة . وكلما طالت الحرب كلما انهارت إسرائيل من الداخل . لذلك فإن طبيعة الحرب التي تناسب إسرائيل هي الحرب البرقية

Blitz Krieg . وللرد على ذلك فإن استراتيجيتنا يجب أن تعتمد على إطالة مدة الحرب ، والعمل على إجبار العدو على تحمل أكبر خسارة ممكنة في الأرواح ، حتى لو كان ذلك على حساب السرعة في استرداد الأرض المحتلة أثناء سير القتال . ولو أننا حافظنا على هذه الاستراتيجية لما تطورت الحرب إلى الصورة التي تطورت عليها ، ولجثت إسرائيل على ركبتيها خلال حرب أكتوبر .

وعن الثغرة قلت أنه كان من الممكن ألا تحدث مطلقا ، فقد حدثت نتيجة ارتكاب بعض الأخطاء . ومع ذلك فإنه كان من الممكن القضاء على هذه الثغرة فور وقوعها ولكن أخطاء أخرى ارتكبت وترتب عليها عدم القضاء على هذه الثغرة ، واستمرت الأخطاء تتوالى بعد ذلك . وكان الخطأ الأكبر في كل ذلك هو محاولة القيادة المصرية التقليل من أهمية الثغرة .

لقد كان هذا اللقاء في مجمله نقدا موضوعيا وعلميا لسياسة السادات الخارجية والداخلية دون أن أذكر السادات بالاسم . وقد تلقفت العناصر المعارضة للسادات ما قلته ، وصدرت صحيفة السفير في بيروت يوم 22 أغسطس بعناوين ضخمة ومثيرة مثال ذلك «الشاذلي ينتقد السادات ويتهمه بكذا وكذا ...» لم أكن أنا على علم بوجود مندوب لأي صحيفة بين الحاضرين وبالتالي فإني لم أعرف ولم أهتم أن أعرف بما نشرته هذه الصحف البيروتية إلى أن اتصلت بي وزارة الخارجية المصرية يوم 23 أغسطس تستفسر عما ورد في هذه الصحيفة فأجبتها في نفس اليوم على ما استفسرت عنه قبل أن أقوم بإجازتي السنوية التي كانت تبدأ اعتبارا من يوم الإثنين 26 أغسطس وتمتد لمدة ثلاثة أسابيع .

مجلس تحقيق برئاسة وزير الخارجيـة :

كنت أقضي إجازتي في سكوتلندا عندما وصلني إخطار من سفارتنا في لندن تحيطني علما بأن القاهرة قد قررت إلغاء إجازتي وتطلب عودتي إلى القاهرة في أسرع وقت ممكن للتشاور في موضوع هام . وفي صباح يوم السبت 7 سبتمبر كنت أستقل الطائرة إلى القاهرة . وبعد اتصالي بالوزارة تحدد لي الساعة 19,00 من يوم الإثنين لمقابلة السيد وزير الخارجية في مكتبه بميدان التحرير .

في الوقت المحدد وصلت إلى وزارة الخارجية ودخلت مكتب السيد اسماعيل فهمي فوجدت معه الفريق محمد عبد الغني الجمسي رئيس أركان حرب القوات المسلحة والمستشار أسامة الباز مدير مكتب الوزير . وبعد السلام وتناول القهوة فتح الوزير موضوع لقائي مع الطلبة العرب ولاحظت أن أسامة الباز يقوم بتسجيل ما يقوله الوزير وما أجيب به عليه . إذن فهو مجلس تحقيق برئاسة الوزير وعضوية الجمسي وليس مجرد استفسار عما دار في هذا

اللقاء . سألني اسماعيل فهمي عن مدى صحة ما جاء في جريدة السفير البيروتية فأجبته بأنني لا أستطيع الاجابة عن هذا السؤال لأنني لا أعرف ما كتبته هذه الجريدة ولم اطلع عليه فظن أنني أتهرب من الإجابة وقال لي «على العموم هناك تسجيل صوتي لكل ما قلته في هذا اللقاء» فأجبته بنبرة لا تخلو من التحدي» لماذا إذن توجه لي الأسئلة وتنتظر مني أن أجيب . إني أعترف بكل كلمة قلتها في هذا اللقاء . هيا أحضر لنا هذا التسجيل لنستمع اليه سويا ونوفر على أنفسنا عناء الاستجواب» لم يحضر الوزير أي تسجيل ولم يعرض علي نسخة من صحيفة السفير وإنما أحضر لي بعض الأوراق المطبوعة والتي يفيد عنوانها بأنها نص حديثي مع الطلبة العرب في لندن . وبعد قراءة سريعة للأوراق التي عرضت علي قلت للوزير ان هناك أقوالا قلتها فعلا ولكن هناك عناوين مثيرة واستنتاجات توصل اليها كاتب المقال وهي من الأمور الصحفية المعروفة . فطلب إلي أن أصدر تكذيبا عما ورد في الجريدة فرفضت وقلت له ان معنى التكذيب هو أن كل ما قالته الصحيفة خطأ وهذا ليس صحيح بالنسبة لحالتنا هذه . وبعد مناقشات طويلة تم الاتفاق على فض الاجتماع على أن نلتقي مساء اليوم التالي في نفس الوقت وفي عين المكان لمتابعة التحقيق بعد أن قام بتسليمي مطبوعات يفترض أنها ما نشرته الجريدة عن هذا الموضوع وذلك لدراستها والاستعداد للإجابة عما ورد فيها في اليوم التـالي .

عندما استؤنف التحقيق في مساء اليوم التالي بادرني الوزير قائلا «لقد حدثت تطورات أخرى في هذه القضية . لقد نشرت صحيفة السفير مقالا جديدا قالت فيه أن مندوبها قابلك في مطار لندن وأنت في طريقك إلى القاهرة وسألك عن احتمال التحقيق معك فقلت له ليس هناك شيء تخجل منه وانك ستقول للمسؤولين في القاهرة ما قلته للطلبة العرب في لندن . فقلت له «شوف يا سيادة الوزير . إنني لم أقابل أحدا في مطار لندن سواء كان مندوبا لصحيفة السفير أو لغيرها ولم أدل بأي تصريح صحفي لأحد . ولكن يبدو أن محرر صحيفة السفير يعلم جيدا أخلاق ومبادىء الفريق الشاذلي . لو أن أحدا قابلني وسألني هذا السؤال لكانت إجابتي هي نفس الإجابة التي جاءت في العدد الأخير من مجلة السفير» . ثم دار حديث طويل حول كل فقرة من فقرات لقائي مع الطلبة العرب طبقا لما نشر في جريدة السفير وأبديت رأيي في كل منها على حدة ، وأكدت ما سبق أن قلته في لندن عن رأيي فيما يتعلق بالمواضيع الرئيسية الأربعة التي وردت في هذا الحديث وهي : موضوع المحاولات التي تقوم بها الامبريالية لعزل مصر عن العالم العربي ، وموضوع تنويع مصادر السلاح ، وموضوع استراتيجيتنا خلال الحرب ، موضوع الثغرة . لقد استمر التحقيق حتى منتصف الليل ، وغادرت المكان وأنا أعلم أن أحدا لن يستطيع أن يبت في هذا الموضوع نظرا لوجود الرئيس خارج القاهرة في

زيارة لمنطقة القتال . وبعد بضعة أيام أبلغني وزير الخارجية بأن الأستاذ موسى صبري رئيس تحرير صحيفة الأخبار سيجري معي حديثا صحفيا حول هذا الموضوع .

حديث مع الأستاذ موسى صبري :

اتصل بي بعد ذلك الأستاذ موسى صبري وطلب مقابلتي ، فاتفقت معه على أن أستقبله في منزلي بمصر الجديدة . كان آخر لقاء لي بالأستاذ موسى صبري في نوفمبر 73 حيث أجرى معي حديثا صحفيا حول عبور قناة السويس . وكان حديثي معه هو أول شرح دقيق لعملية العبور ونقلت الصحف الأجنبية والعربية هذا الحديث عن صحيفة الأخبار فكان ذلك نصرا صحفيا لصحيفة الأخبار ونصراشخصيا للأستاذ موسى صبري الذي أجرى الحديث . كان موسى صبري في أعماق قلبه يذكر لي هذا الجميل ، ولكنه في نفس الوقت كان أحد كتاب السلطة وكان مطلوبا منه أن يقدم حديثي معه للقراء على أنه تكذيب لما ورد في صحيفة السفير البيروتية ، وأنني لم أوجه أي نقد إلى سياسة الرئيس السادات . وبعد أن شرح لي موقفه الصعب قلت له إنه لا يهمني أسلوب الإثارة الصحفية ما دام يلتزم بذكر الحقائق التي قلتها في لندن وأكررها الآن في القاهرة ، ولكني عارضته عندما اقترح أن يكتب عن لساني شعارات الولاء للسادات وقلت له غاضبا «كيف تطلب مني يا أستاذ موسى أن أقول مثل هذا الكلام عن شخص يهاجمني ويتهمني ظلما وعدوانا باتهامات هو يعلم ببطلانها ؟ إنه يتهمني بأنني عدت من الجبهة منهارا يوم 19 أكتوبر ، وأنني أوصيت بسحب جميع قواتنا من شرق القناة ، وهذا كذب ويعرف الكثيرون أنه كذب . ولكن مع ذلك ترددون هذه الأقوال دون أن تحاولوا الكشف عن الحقيقة . هل حاولت يا أستاذ موسى أن تتحقق من هذه الادعاءات قبل أن تنشرها في صحيفتك ؟» فأجاب بأنه حاول فعلا وأنه سأل ثلاثة أشخاص ممن كانوا في غرفة العمليات مساء يوم 19 أكتوبر فلم يؤيد أحد منهم ما جاء على لسان الرئيس . لقد نفى له كل من حسني مبارك ، محمد علي فهمي هذه الادعاءات نفيا قاطعا ، أما الجمسي ـ حسب قول موسى صبري ـ فقد قال له أنه لا يريد أن يقحم نفسه في هذه الصراعات . كان ما قاله موسى صبري مفاجأة سارة لي فبادرته بالقول ولماذا لم تنشر ذلك ؟ فقال ما اقدرش . فقلت له بأنني أقدر ظروفه ولكنه كان يجب عليه في هذه الحالة ألا يكتب أو يردد ما يقوله السادات فأعتذر مرة أخرى وقال «وحتى هذا فأنا لا أستطيع عمله . ان كل ما استطعت أن أفعله هو أن أنسب تلك الأقوال إلى السادات وبذلك فهو المسؤول الأول عن صحة هذه الأقوال أو عدم صحتها» .

العودة إلى لنـــدن :

بعد بضعة أيام من حديثي مع الأستاذ موسى صبري استدعيت لمقابلة وزير الخارجية

حيث أذن لي بالسفر ونقرر أن أعود إلى مقر عملي يوم الجمعة 20 سبتمبر . وقبل أن أغادر مكتب الوزير قال لي بطريقة عابرة وكأنه موضوع ثانوي «لقد اطلعت على حديثك مع موسى صبري وقد وافقت على نشره فيما عدا نقطتين صغيرتين . فسألته وما هي هاتين النقطتين ؟ فأجاب بأنه لا يذكر ، وان الحديث موجود طرف أسامة الباز مدير مكتبه . وبعد أن خرجت من مكتب الوزير قابلت أسامة الباز في مكتبه وقلت له «إني لا أستطيع أن أتحكم فيما تكتبون ولكني أستطيع دائما أن أؤكد أو أنفي ما ينسب إلى إذا سألني أحد عن ذلك» ثم انصرفت .

مما سبق يتضح لنا أن موسى صبري بالرغم من أسلوبه الذي يعتمد على الإثارة ، فإنه وجد أن هذا الأسلوب لن يستطيع أن يقلل من وقع أقوالي لدى القراء ، فآثر أن يعرض المقال قبل صدوره على وزير الخارجية للمراجعة والتصديق بالنشر . ان الوزير في مصر لا يستطيع أن يصدق على نشر أي رأي يعارض النظام . فإذا كانت الظروف السياسية تحتم نشر بعض الآراء المعارضة كمظهر من مظاهر الديموقراطية الزائفة ، فإنهم يلجأون إلى حذف بعض الفقرات وتحريف بعض الأقوال حتى يصبح الرأي المعارض مقبولا من وجهة نظرهم . آه لو علم من في السلطة أن السلطة زائلة وأن السيف الذي كانوا يسلطونه على خصومهم لابد وأن يستخدم ضدهم في يوم من الأيام . لقد سقط السيف من يد اسماعيل فهمي عام 1977 وكان موسى صبري أول من التقط هذا السيف ليطعن به اسماعيل فهمي . لقد أدلى اسماعيل فهمي بحديث إلى صحيفة أمريكية في أوائل عام 78 يبرز فيه الأسباب التي دفعته إلى الاستقالة في نوفبر 77 فما كان من موسى صبري إلا أن هاجمه واتهمه بالكذب . ولم يستطع اسماعيل فهمي أن يدافع عن نفسه ، لأن الصحافة المصرية لا تنشر إلا صوت السلطة ومن يسير في ركابها . لو يعلم موسى صبري وغيره من الصحفيين أن السيف الذي يضربون به أعداء السادات قد يستخدم ضدهم في يوم ما ، لثابوا إلى رشدهم وخففوا من خضوعهم للسلطة ، ولكن خلق الإنسان ضعيفا . والمال والسلطة فتنة لذوي النفوس الضعيفة .

في يوم 18 سبتمبر نشرت صحيفة الأخبار الحديث الصحفي الذي أجراه معي موسى صبري . ورغم أسلوب الإثارة الذي اشتهر به موسى صبري ، فإن رأيي في موضوع محاولات عزل مصر عن العالم العربي وموضوع تنوع مصادر السلاح كان واضحا . وقد اختلفت الآراء حول تحليل شخصية موسى صبري بعد هذا المقال . فقد وصفه بعض الناس بأنه شخص غبي لأنه هاجم صحيفة السفير في حين أن ما كتبه نقلا عني إنما هو اعتراف منه بأن ما ذكرته تلك الصحيفة كان صحيحا . وقد وصفه آخرون بأنه شديد الذكاء لأنه استطاع أن يقدم حقائق ما قلته في قالب مقبول من السلطة . أما صحيفة السفير نفسها فقد علقت في عددها الصادر يوم 19 سبتمبر على مقال موسى صبري بأنه تأكيد لما كانت قد نقلته عني واعتبرت

ذلك نصرا لها . وفي يوم 20 سبتمبر سافرت إلى لندن مرفوع الرأس بعد أن سجلت أول انتصار علني في معارضتي ضد سياسة السادات الخارجية والداخلية . وفي عدد لصحيفة الجارديان اللندنية يوم 20 سبتمبر ظهر مقال كبير تحت عنوان مثير «الشاذلي يحتفظ بمنصبه بالرغم من هجومه الحاد على السادات» وهكذا بدأ الخلاف بيني وبين السادات يأخذ شكلا علنيا لا على المستوى الوطني والعربي فحسب ، بل وعلى المستوى الدولي أيضا .

محاضرة عن حرب أكتوبر في معهد (را س ي) : RUSI

يعتبر المعهد الملكي للأسلحة المشتركة لشؤون الدفاع (راس ي) Royal United Services institute for defence studies (RUSI) أكبر المعاهد العسكرية في بريطانيا . ويهتم المعهد بصفة خاصة بالبحوث والدراسات الاستراتيجية . ويقوم المعهد كل عام بدعوة عدد من الأساتذة الزائرين وكبار القادة السياسيين والعسكريين الأجانب لإلقاء المحاضرات في المعهد ، وذلك للاستفادة من خبراتهم في المجالات التي اشتهروا فيها ، ولإتاحة الفرصة للدارسين والباحثين في المعهد لكي يستمعوا إلى وجهات النظر المختلفة حول المشاكل الدولية المعقدة . في أوائل يونيو 74 ، اتصل بي مدير المعهد وأخطرني بأن المعهد سوف يقوم بتنظيم دراسة عن حرب أكتوبر 73 وأنهم يريدون أن يستمعوا إلى وجهتي النظر العربية والإسرائيلية حول تلك الحرب . وحيث أن أحد القادة العسكريين الإسرائيليين سيقوم بشرح وجهة النظر الإسرائيلية يوم 6 نوفمبر فإنهم يودون أن أقوم بإلقاء محاضرة عليهم حول هذه الحرب لكي أمثل وجهة النظر العربية ، وطلب أن يعرف قراري في أسرع وقت حتى يمكنه إدراج هذه المحاضرة ضمن البرنامج السنوي للمعهد ، والإعلان عنها في الأوساط العلمية قبل إلقائها بوقت كاف .

ولو أنني كنت سفيرا تقليديا لاتصلت بوزارة الخارجية وطلبت منها الإذن بذلك ، فإذا وافق وزير الخارجية على أن ألقي هذه المحاضرة فإنه يجب علي أن أعرض عليه نص المحاضرة قبل إلقائها لمراجعتها ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث . لقد اتخذت القرار بنفسي دون أن أخطر وزارة الخارجية وأبلغت مدير المعهد بأنني أوافق على إلقاء المحاضرة المطلوبة . وفي 17 يونيو أخطرني مدير المعهد بأنه قد تحددت الساعة 14,30 من يوم الأربعاء 16 أكتوبر 74 لكي ألقي هذه المحاضرة وسألني إذا كان هذا الوقت يناسبني فأجبت بالإيجاب . كان مدير معهد راس ي سعيدا جدا بقبولي إلقاء هذه المحاضرة ولكن سعادتي لم تكن تقل عن سعادة مدير المعهد بذلك . لقد كنت أول شخص عربي يطلبه المعهد الأستراتيجي لكي يحاضر فيه ويشرح لهم كيف استطاعت قوات مصر أن تعبر قناة السويس وتقتحم خط

بارليف الذي كانت صحافة العالم تصفه بأنه منيع ، وأن اختراقه هو من الأمور المستحيلة . لقد كنا نتعلم فنون القتال منذ عشرات السنين على أيدي قادة وأساتذة من الدول الغربية ، وقد جاء الوقت الذي يجلس فيه هؤلاء الأساتذة لكي يستمعوا إلى خبرة أحد القادة العرب . لقد كانت الدعوة في حد ذاتها حدثا عظيما واعترافا من الدول الغربية بمدى التقدم الذي أحرزه العرب في مجال القيادة والتخطط .

ومن ناحية أخرى فقد كنت أرى أن قيامي بإلقاء هذه المحاضرة سوف يتيح لي الفرصة لكي أفك الحصار الإعلامي الذي فرضته حولي أجهزة السادات الإعلامية ، والتي كانت ترمي إلى أن يسمع العالم فقط ما يرويه السادات من أكاذيب حول حرب أكتوبر . كنت أعلم أن قيامي بإلقاء هذه المحاضرة هو أمر لا ترضى عنه القاهرة . ومع ذلك فإني لم أحاول إخطارها ، كما وأني لم أحاول إخفاء الخبر عنها . ان معهد راس ي يعلن في الصحف ووسائل الإعلام الأخرى عن المحاضرات العامة التي تلقى فيه بواسطة القادة السياسيين والعسكريين ، قبل ميعاد إلقاء هذه المحاضرات ببضعة أشهر . ولا شك أن القاهرة تستطيع أن تعلم بذلك من أكثر من جهة . وبالإضافة إلى ذلك فإن الخطابات المتبادلة بيني وبين المعهد حول إلقاء هذه المحاضرة كانت تصل إلي وتصدر مني عن طريق أرشيف السفارة ؛ وبالتالي فإن بعض أعضاء السفارة المصرية في لندن كانوا على علم تام بهذه الاتصالات ، وكان من بينهم من يعمل لحساب مخابرات السادات . كنت أعلم كل ذلك ومع ذلك رفضت إخطارهم في القاهرة وقلت لنفسي ، فليعلموا بواسطة جواسيسهم ولكني لن أستأذنهم لأني أعرف إجابتهم مسبقا إذا أنا استأذنتهم .

في مساء يوم 14 أكتوبر وصلتني إشارة من وزير الخارجية تقول أنه علم بأنني سألقي محاضرة في معهد(R.U.S.I.) يوم 16 أكتوبر ويطلب مني عدم إلقاء هذه المحاضرة . وفي صباح يوم 15 أكتوبر اتصلت تليفونيا بالمارشال الجوي مينول Air-Vice Marshal S.W.B. Menaul مدير المعهد وأخبرته بأني لن أستطيع أن ألقي محاضرتي لأنه قد وصلتني تعليمات من القاهرة تأمرني بعدم إلقاء هذه المحاضرة . انزعج مدير المعهد من هذا الخبر وأخذ يشرح لي بأنه في موقف صعب للغاية لأنني لم أعتذر عن إلقاء المحاضرة قبل موعد إلقائها بوقت كاف يسمح بإخطار من طلبوا حجز أماكن لهم لحضور هذه المحاضرة . وأخطرني أن هناك من سوف يحضر من بروكسل وبعض العواصم الأوروبية لحضور هذه المحاضرة ، وأنه لا توجد لديه أي وسيلة للاتصال بهم وإيقاف سفرهم فقد يكون بعضهم في الطريق الآن . كررت عليه بأنني لم أعتذر وإنما فرض علي ألا أقوم بإلقاء هذه المحاضرة ، وأنه مع اقتناعي بخطأ هذا القرار من القاهرة إلا أنني ملتزم بتنفيذه . رجاني مدير المعهد وألح في

الرجاء أن اتصل بالقاهرة وأشرح لهم الموقف ولكني قلت له إنني لن أفعل ذلك لأني أعلم أنهم لن يوافقوا على هذا الطلب .

قد يقول قائل ولماذا استمعت إلى تعليمات القاهرة ؟ لماذا لم تذهب إلى المعهد وتلقي المحاضرة وليكن ما يكون ؟ واليهم أقول : ان أي معركة تحتاج إلى إعداد وتحتاج إلى انتخاب الوقت المناسب . لقد كنت أقوم بتصعيد معارضتي ضد السادات ولكني كنت حريصا على ألا أدفع بعجلة الصراع بيني وبينه إلى مرحلة المعركة الفاصلة كما فعلت عام 1978 . لم تكن استعداداتي للمجابهة العلنية قد استكملت ، كما وأن الوقت لم يكن مناسبا . لقد كان هناك بعض التناقض بين السياسة الخارجية المصرية وبين السياسة الخارجية لكثير من البلاد العربية ، ولكن هذا التناقض كان لا يزال تحت السيطرة ، ولم يصل بمصر إلى نقطة العزلة التامة بينها وبين العرب . لقد كان الوقت في صالحي ، ولذلك فقد فضلت أن أؤجل المعركة الفاصلة بيني وبين نظام السادات إلى الوقت المناسب .

انتقاد سياسة السادات الخارجية في التلفزيون البريطاني :

في 10 يناير 75 قبلت دعوة التليفزيون البريطاني وظهرت على بي . بي . سي . تو . B.B.C. 2 في بانامج نيوز داي News day الذي يديره المستر ميشيل شارلتون Michael Charlton لمناقشة السياسة الخارجية المصرية والزيارات المكوكية التي كان يقوم بها كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة بين مصر وإسرائيل . وفي هذا اللقاء انتقدت سياسة «الخطوة خطوة» التي كان ينادي بها كيسنجر والسادات وقلت ان سياسة «الخطوة خطوة» دون أن يكون هناك اتفاق مسبق على الهدف النهائي ، تعني أن كل خطوة نخطوها هي بمثابة قفزة في الظلام . وقد دعى ذلك المستر شارلتون أن يقول لي «ان ذلك يعني أنك ترفض السياسة التي تسير عليها حكومتك» فلم أعقب على ملاحظته لأنه كان من الواضح أنني أنتقد سياسة السادات .

وعن كيسنجر قلت إنه يوزع الوعود ولكنه لا يفعل شيئا . وعن علاقة مصر بالدولتين الأعظم قلت ان هناك من يؤمن بحتمية الصداقة المصرية السوفييتية بينما هناك من يؤمن بضرورة الصداقة المصرية الأمريكية ، فلما سألني في أي جانب أقف ، قلت له «ان عواطفي تتجه إلى من يساعد بلادي ويقف بجانبي ضد عدو بلادي أيا كانت هويته» .

الدعوة للذهاب إلى جنيف :

بينما كان السادات يسير في ركاب كيسنجر ، ويؤيد سياسة «الخطوة خطوة» step by step ، كنت أنا أنتقد هذه السياسة علنا وأدعوا للذهاب إلى جنيف كحل بديل .

وكنت أرمي من وراء ذلك إلى تحقيق هدفين . الهدف الأول هو ألا تنفرد إحدى الدولتين الأعظم بالإشراف على المفاوضات . كنت أرى في أمريكا حليفا مخلصا لإسرائيل يمدها بأحدث الأسلحة ويقف إلى جانبها دائما عند التصويت على أي قرار من قرارات الأمم المتحدة فكيف يمكنني أن أتصور أن أمريكا يمكن أن تكون قاضيا أو وسيطا بين العرب وإسرائيل ؟ ومن هنا فإن تواجد الاتحاد السوفيتي في جنيف هو الضمان الوحيد لكبح جماح الهيمنة الأمريكية على منطقة الشرق الأوسط ، أما الهدف الثاني فإني كنت أخشى أن تؤدي سياسة «الخطوة خطوة» إلى صلح منفرد بين مصر وإسرائيل وبذلك تنجح إسرائيل والصهيونية والامبريالية العالمية في تفتيت التضامن العربي وعزل مصر عن بقية العالم العربي . وقد أبديت رأيي هذا في حديث لي مع مجلة العالم الإسلامي الأسبوعية Muslim World وكررت ذلك في حديث بالتلفزيون البريطاني بي . بي . سي . 1 ـ .B.B.C بتاريخ 75/2/12 . وقد سخرت في هذا الحديث التلفزيوني من التفاوض مع دولة لا تحترم القرارات الدولية واتهمت إسرائيل بأنها لم تنفذ 150 قرارا من قرارات الأمم المتحدة . وان إسرائيل ما كانت لتجرؤ على تحدي الرأي العام العالمي وقرارات الأمم المتحدة بهذا الشكل المثير لو لم تكن تتمتع بتأييد الولايات المتحدة . وقد ذكرت رأيي هذا بخصوص الذهاب إلى جنيف في أكثر من حديث صحفي وإذاعي خلال فترة إقامتي بالمملكة المتحدة .

الرأي العام البريطاني والقضيـة :

في فبراير 75 وصل كيسنجر إلى منطقة الشرق الأوسط في محاولة جديدة لكسر الجمود في قضية الصراع العربي الإسرائيلي . كان العالم أجمع يتجه بأبصاره إلى هذه الرحلة ويتمنى لها النجاح . لقد أصيبت الدول الصناعية بأضرار اقتصادية كبيرة أثناء حرب أكتوبر 73 نتيجة قيام الدول العربية بخفض إنتاجها من البترول بصفة عامة ، وحظر تصديره إلى الدول الغربية التي تساند إسرائيل بصفة خاصة . لقد أصبح العالم الغربي بعد هذه الحرب أكثر استعدادا لسماع وجهة النظر العربية بعد أن كان الإعلام الصهيوني يفرض وجهة نظره على الرأي العام العالمي . كان كل من العرب وإسرائيل يعلنون أنهم يريدون السلام ولكن كل طرف كان يلقي اللوم على الطرف الآخر ويتهمه بأنه هو الذي لا يريد السلام وأنه يضع العراقيل في طريق السلام .

وفي بلد عريق في الديموقراطية كبريطانيا ، أرادت محطة تليفزيونية BBC أن تقدم لمشاهديها بحثا ودراسة موضوعية عن هذه المشكلة أثناء زيارة كيسنجر للمنطقة بحثا عن السلام . كان برنامج رحلة كيسنجر هو الوصول إلى أسرائيل يوم الإثنين 10 فبراير ثم الذهاب إلى مصر يوم الأربعاء 12 فبراير . وفي يوم وصول كيسنجر إلى إسرائيل اتصل بي

مقدم برنامج Midweek B.B.C. 1 وأخبرني بأنه يريد أن يقدم تغطية لمشكلة الصراع العربي الإسرائيلي ويعرض فيها وجهة النظر العربية ووجهة النظر الإسرائيلية على الشعب البريطاني. وأنه لذلك يريد أن يستضيفني لكي أعرض وجهة النظر العربية ، وأنه سوف يستضيف السفير الإسرائيلي في لندن لكي يقدم وجهة النظر الإسرائيلية . رحبت بالفكرة ولكني طلبت ألا أجتمع مع السفير الإسرائيلي في مكان واحد فوافق على ذلك .

وفي الوقت الذي كان يصل فيه كيسنجر إلى القاهرة قادما من إسرائيل ، كنت أنا أدخل ستوديو تليفزيون BBC لكي أعرض على الشعب البريطاني وجهة النظر العربية في قضية الصراع بيننا وبين إسرائيل . دخلت الاستوديو قبل ميعاد الإرسال ببضع دقائق ، ففاجأني مقدم البرنامج بأنه نظرا لظروف فنية فإنه لا يستطيع أن يقدم البرنامج من استوديوهين في وقت واحد وأنه مضطر لأن يجري الحوار معي ومع السفير الإسرائيلي من داخل نفس الاستوديو . كان ذلك مفاجأة تامة لي وكان علي أن أتخذ قرارا سريعا واختار بين أمرين إما الانسحاب وإما الصراع تحت الظروف التي فرضت علي . كان الانسحاب يعني أن أترك للجانب الآخر الحرية المطلقة لكي يقول ما يريد من أكاذيب وأباطيل دون أن يجد من يرد عليه أكاذيبه . كان الإرسال سوف يتم على الهواء وكان التليفزيون البريطاني قد سبق أن أعلن عن هذا البرنامج وكان هناك الملايين من الشعب البريطاني يلتفون حول أجهزتهم انتظارا لهذا البرنامج . وكان إعلان انسحابي يعني بالنسبة اليهم أن قضيتنا تفتقر إلى الحجة والأسانيد القانونية والتاريخية . لم يكن أمامي إلا بضعة دقائق لاتخاذ القرار . وقررت البقاء ولكني اشترطت ألا يتم أي حديث مباشر بيني وبين السفير الإسرائيلي . فوافق مقدم البرنامج على ذلك .

وبعد دقائق وصل السفير الإسرائيلي وجلس في المكان المخصص له دون أن نتبادل كلمة واحدة . أخذ مقدم البرنامج يوجه السؤال تلو الآخر لكل منا على حدة وكان كل منا يرى الآخر وهو يتكلم من خلال جهاز تليفزيوني وضع أمامنا . كنت أراقب السفير الإسرائيلي وهو يتكلم من خلال هذا الجهاز وكأني واحد من الملايين الذين يشاهدون هذا البرنامج ، ولم يحدث قط أن التقت عيناي بعيني السفير الإسرائيلي طوال فترة البرنامج ، على الرغم من أنه كان يجلس على بعد خطوات مني .

وبالرغم من الظروف التي فرضت علي في هذه المقابلة التليفزيونية فإني أعتقد أنني نجحت في كسب الرأي العام البريطاني . وفي أعقاب هذا الظهور وصلني مئات من خطابات التأييد في حين أنه لم يصلني سوى خطاب واحد معارض . ولم ينتقد هذا الخطاب المعادي آرائي وحججي ولكنه انتقد سلوكي تجاه السفير الإسرائيلي وتجاهلي لوجوده . ونشط الإعلام

الصهيوني في أعقاب هذا الظهور التليفزيوني ولم يجد ما يهاجمني به سوى سلوكي تجاه السفير الإسرائيلي . وانتقلت الحملة الإعلامية إلى الصحف ، وكان لابد علي أن أقاوم هذه الحملة .

في 17 فبراير نشرت مقالا مطولا في جريدة التايمز *Times* أدافع فيها عن سلوكي تجاه السفير الإسرائيلي وقد جاء في هذا المقال ما يلي «يجب أن يعلم الجميع أن مصر في حالة حرب مع إسرائيل ، وأن الحكم على سلوك السفير المصري تجاه السفير الإسرائيلي في بلد محايد يجب أن يتم في إطار هذا التصور . لقد كانت بريطانيا في حالة حرب مع ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية بينما كان لكل دولة منهما سفيرا في تركيا المحايدة . وإني أود أن أسأل البريطانيون عن شعورهم إذا ما قام سفيرهم في أنقرة باستقبال السفير الألماني هناك بالترحاب في الوقت الذي تقوم فيها ألمانيا بقتل الآلاف من أبنائهم» واقتنع الرأي العام البريطاني بهذا المنطق وسكتت الحملة حول هذا الموضوع .

كان موقف الإعلام المصري فيما يتعلق بظهوري في التليفزيون البريطاني يوم 12 فبراير متناقضا مع نفسه . فقد كتب أحد الصحفيين ينتقدني لأنني ظهرت مع السفير الإسرائيلي دون أن يذكر الملابسات التي أدت إلى هذا اللقاء . والغريب أن الصحفي المذكور كان أول المؤيدين لزيارة السادات للقدس في 19 نوفمبر 77 ورافقه في تلك الزيارة المشؤومة . كما وأنه كان ولا يزال أحد أبواق السادات التي تدعو إلى تطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل بالرغم من استمرار تلك الدولة الصهيونية في احتلال الأراضي العربية . وإني لأعجب كيف يستطيع كاتب محترم أن يتلون بهذه السهولة .

وفي فبراير 75 كان الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي رئيس تحرير مجلة روز اليوسف موجودا في لندن للعلاج ، فطلب مقابلتي وإجراء معي حديثا مطولا عن موضوع ظهوري التليفزيوني يوم 12 فبراير ، وقد أوضحت له بالتفصيل كل ملابسات هذا الموضوع . ويبدو أن عبد الرحمن الشرقاوي قد اقتنع بأنه ليس في الحديث ما يمكن أن يغضب السلطة فقرر نشره دون أن يستأذن أحدا في ذلك . ولكن السلطة علمت بهذا الحديث بعد أن كانت المجلة قد تم طبعها وبدأ توزيعها فأمرت بمصادرتها قبل أن يتم تداولها بين الناس . وفوجىء الناس بعدم ظهور مجلة روز اليوسف في اليوم المحدد لظهورها دون إبداء الأسباب لذلك . وهذا هو مثل آخر لما كانت تقوم به السلطة لكي تمنع الحقيقة من الوصول إلى أسماع الشعب المصري [3].

الناس يبحثون عن الحقيقة :

تعتبر لندن من أكثر البلاد الأوروبية اجتذابا للعرب بصفة عامة وللمصريين بصفة

خاصة . وفي كل يوم وعلى طول أيام السنة يفد إلى العاصمة البريطانية بضع مئات من العرب سواء لأعمال رسمية أو تجارية أو سياحية . ويتضاعف عددهم خلال فترة الصيف ، حيث يتم المزج بين الزيارات الرسمية والسياحية وقضاء الحاجيات والمشتريات . ومن بين هؤلاء الوافدين الكثير من السياسيين والاقتصاديين والكتاب والصحفيين والفنانين الخ . وكان جميع هؤلاء يتوقون إلى معرفة حقائق حرب أكتوبر. كانوا قد استمعوا إلى ما رواه السادات بواسطة وسائل إعلامه ، ولكنهم لم يصدقوه . فأما المصريون منهم فالكل يعلم أن من يجرؤ منهم على انتقاد السادات ونظامه فلابد أن يكون مصيره السجن والتشريد في ظل القوانين القمعية التي تسود مصر .

وأما العرب ، سواء الرسميين منهم أو غير الرسميين ، فكانوا يعلمون أن دولهم ترتبط بنظام السادات ارتباطا وثيقا يجعلها تفرض على صحفها ووسائل إعلامها نوعا من الرقابة . كانت الرقابة في الدول العربية تسمح لوسائل إعلامها بنقد نظام السادات في حدود ضيقة ، بحيث لا يؤثر هذا النقد على العلاقات التي تربط هذه الدول مع نظام السادات . كان السادات خلال هذه الفترة ينادي بنفس ما كان ينادي به الزعماء العرب بل أنه فاقهم عندما قال «القدس والضفة وغزة أولا ثم الجولان ثم سيناء بعد ذلك» . ولقد اتفق مع القادة العرب في الرباط في 28 أكتوبر 74 على ألا تقوم أي دولة عربية بعقد صلح منفرد مع إسرائيل ، وعلى أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد لجميع الفلسطينيين ؛ ان زعيما ينادي بذلك لا يمكن لأي دولة عربية أن تسمح لوسائل إعلامها بتجريحه أو تشويه صورته . قد يكون هناك قناعة لدى بعض القادة العرب بأن السادات ارتكب بعض الأخطاء خلال حرب أكتوبر ، ولكن هذه الأخطاء يجب ألا تكون سببا في نسف التضامن العربي . كان الزعماء العرب بما فيهم العقيد معمر القذافي ـ الذي يعتبر من ألد خصوم السادات اليوم ـ لا يزالون يثقون في إخلاص السادات ويرتبطون معه بعلاقات صداقة ، وبالتالي لم يكن مسموحا للصحف العربية بأن تهاجم السادات أو تنتقده انتقادا شديدا[4].

وفي ظل هذه الظروف السياسية كان الناس يبحثون عن الحقيقة لا بغرض المجابهة أو التنديد بالسادات بل من أجل الاقتناع والاطمئنان . ونتيجة لذلك فقد كان مكتبي في السفارة لا يكاد يخلو في أي وقت من الأوقات من زائر عربي . كنت أقص عليهم الحقائق أو بعض الحقائق بالقدر الذي تسمح به ظروف كل شخص . وان أقل ما قيل لأي منهم سواء كانوا مصريين أو عرب هو أن السادات كاذب فيما يدعيه بأنني عدت من الجبهة منهارا يوم 19 أكتوبر 73 ، وأنني أوصيت حينئذ بسحب جميع القوات من شرق القناة .

وفي يوم من الأيام حضر إلي صحفي مصري وطلب مني أن أقص عليه قصة حرب أكتوبر وأنه سوف يكتبها وينشرها كما هي دون أي حذف . فقلت له أنشر أولا في صحيفتك عن لساني بأن السادات كاذب فيما يدعيه علي من أني عدت من الجبهة منهارا يوم 19 أكتوبر وأنني أوصيت بسحب جميع القوات من شرق القناة . فإن سمحوا لك بذلك فتعال إلي أقص عليك قصة حرب أكتوبر . وذهب الصحفي ولم يعد .

حديث عن الديموقراطيـة :

في مايو 1975 كان هناك وفدا بريطانيا تجاريا يزور القاهرة بهدف تنشيط العلاقات التجارية بين البلدين . وقبل سفر الوفد قام التليفزيون البريطاني والإذاعة البريطانية بإجراء لقاء معي في لندن . وبعد أن أجرى مندوب الإذاعةحوارا معي عن أهمية تنشيط التجارة بين مصر وبريطانيا ، وجه لي سؤالا أخيرا لكي يختتم به هذا الحديث فقال «ما هو الشي الذي يعجبك في بريطانيا والذي تود أن تتعلمه مصر من بريطانيا» فأجبت بدون تردد «الديموقراطية» ثم أخذت أفيض في شرح الديموقراطية وحرية التعبير ، واحترام الدولة والحاكم لشخصية المواطن الخ . واستمع المسؤولون في القاهرة إلى ما قلت ، وشعروا وكأنني أتهم الساداتفي كل كلمة كنت أقولها وهذا حق ، فقد كان ذلك هو ما أقصده تماما . وكان ذلك هو القشة التي قصمت ظهر البعير . في 16 مايو أي بعد ثمانية أيام من إدلائي بهذا الحديث وصلتني برقية من وزير الخارجية بأنه تقرر نقلي من لندن إلى البرتغال .



الفصل الرابع
بريطانيا والصراع العربي الاسرائيلي

نبذة تاريخية :

ان مشكلة الصراع العربي الإسرائيلي ليست مجرد مشكلة محلية بين العرب وإسرائيل ، وإنما هي جزء من مشكلة الصراع العالمي الذي تتزعمه الدول العظمى ، والذي يقسم العالم حاليا إلى معسكرين كبيرين . ان موقف كل دولة من دول العالم من هذا الصراع العربي الإسرائيلي ، إنما هو انعكاس لموقف المعسكر الذي تنتمي اليه تلك الدولة . وأن مراجعة نتائج التصويت في الأمم المتحدة حول هذه المشكلة ، تبين لنا بوضوح مدىالتزام كل دولة بوجهة نظر المعسكر الذي تنتمي اليه . وفي حدود هذه القاعدة من لعبة الأمم يمكن تقسيم دور بريطانيا في هذه المشكلة إلى مرحلتين . المرحلة الأولى وتمتد من منتصف القرن 19 وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، والمرحلة الثانية وتمتد بعد الحرب العالمية الثانية وحتى وقتنا هذا .

في خلال النصف الأول من القرن 19 ، تعاظمت القوة العسكرية المصرية ابان حكم محمد علي باشا ، وامتدت فتوحات مصر إلى السودان والجزيرة العربية وسوريا ، فكانت هذه هي أول محاولة لخلق وحدة عربية في العصر الحديث . كانت بريطانيا في ذلك الوقت امبراطورية عظمى وسيدة البحار ، وكانت استراتيجيتها تتلخص في الإبقاء على الامبراطورية التركية ، الضعيفة (كانوا يطلقون عليها الرجل المريض) ومنع قيام أي دولة عربية قوية في المنطقة . ولكي تنفذ هذه السياسة ألبت بريطانيا الدول العظمى الأخرى ضد حكم محمد علي باشا ، واشتركوا جميعا في تدمير الأسطول المصري في جزيرة كريت عام 1939 وبذلك هددوا خطوط مواصلات القوات المصرية في سوريا وتركيا ، وأرغموا مصر على توقيع معاهدة لندن 1840 . وبموجب هذه المعاهدة كان يتحتم على محمد علي باشا أن يسحب

جميع القوات المصرية من جميع الأراضي العربية التي فتحتها . وبالإضافة إلى ذلك فرضت هذه الدول على مصر أن تخفض عدد قواتها المسلحة تخفيضا كبيرا ، وأن يحظر عليها إقامة أي صناعات عسكرية . كانت معاهدة لندن إذن ، هي أول عملية إجهاض للدولة الموحدة . ولكي تضمن الدول العظمى عدم تكرار هذه المحاولة مرة أخرى إذا ما ظهر في مصر زعيم قوي ، فقد عملت بريطانيا العظمى على أن تزرع في أرض فلسطين دولة غريبة عن المنطقة تناصب العرب العداء وتعزل مصر عن المشرق العربي وبذلك تمنع قيام أي وحدة عربية .

لقد استغلت بريطانيا آمال بعض اليهود المتدينيين في العودة إلى القدس ، وأخذت تشجع هذا التيار وتروج له بين جميع يهود العالم . وهكذا ولدت الحركة الصهيونية بزعامة هرتزل Herzl في كنف ورعاية السلطات البريطانية خلال النصف التالي من القرن 19 . ومنذ ميلاد الحركة الصهيونية وحتى وقت قيام الحرب العالمية الأولى كانت بريطانيا تعمل على تشجيع هجرة اليهود واستيطانهم في أرض فلسطين . ولكن نظرا لمعارضة الباب العالي ، ونظرا لإعراض معظم اليهود عن ترك أوطانهم الذين كانوا يعيشون فيها ، فإن عدد اليهود في فلسطين لم يصل حتى عام 1918 إلا إلى 65671 فرد فقط ، وكان هذا يشكل 8٪ من سكان فلسطين .

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني ، فكانت هذه هي الفرصة الذهبية التي كانت تنتظرها لكي تحقق حلمها نحو إقامة دولة عازلة بين مصر وبين المشرق العربي . وفي ظل الانتداب البريطاني الذي استمر من 1918 حتى 1948 تضاعف عدد اليهود في فلسطين حوالي 11,5 مرة ووصل إلى 649632 فرد ، وأصبح يمثل 35٪ من سكان تلك البلاد .

بعد الحرب العالمية الثانية هبت رياح الحرية عبر آسيا وأفريقيا ، وحصلت الغالبية العظمى من الممتلكات والمستعمرات البريطانية على استقلالها ، وتقلص حجم الامبراطورية البريطانية التي كانت لا تغيب عنها الشمس ، إلى أن انكمشت داخل الجزر البريطانية الأم . ونتيجة لذلك ظهر في بريطانيا تياران فكريان . تيار يتزعمه حزب العمال البريطاني ، ينادي بأن تتوقف بريطانيا عن التدخل في المشاكل العالمية كما كانت تفعل أيام الامبراطورية ، وأن تركز جهودها على مشاكلها الداخلية . أما التيار الثاني الذي كان يتزعمه حزب المحافظين البريطاني ، فكان يتشبث بالأفكار الامبراطورية قولا وعملا وأحلاما . كان المحافظون يتفقون مع العمال على ضرورة تقليص الدور البريطاني في السياسة العالمية ، ولكنهم كانوا يختلفون معهم حول المدى الذي يجب أن يتقلص اليه هذا الدور . وفي ظل هذه الأوضاع ، تعاظم الدور الأمريكي في مشكلة الصراع العربي الإسرائيلي ، وتضاءل الدور البريطاني إلى أن أصبح

دور التابع والمؤيد للخط الأمريكي . واستمرت السياسة البريطانية على هذا المنوال إلى أن قامت حرب أكتوبر 73 ، بعد ذلك بدأت تظهر بعض التناقضات بين السياسة الأمريكية وسياسة دول أوروبا الغربية تجاه مشاكل الشرق الأوسط .

اليهود في بريطانيا :

في عام 1974 كان عدد اليهود في بريطانيا هو 400000 ، بينما كان تعداد بريطانيا هو 56230000 نسمة . أي أن اليهود كانوا يشكلون 0,71٪ من تعداد السكان . ولكن كان هناك 46 يهوديا أعضاء في مجلس العموم البريطاني الذي يبلغ إجمالي عدد أعضائه 635 عضوا ، أي أن نسبة اليهود في مجلس العموم كانت 7,24٪ . ومن بين حكومة العمال البالغ عددها 45 وزيرا ، كان من بينهم 11 وزيرا من اليهود ، أي بنسبة 24,44٪ . ومن هذه الأرقام ، يتضح لنا أن نسبة تمثيل اليهود في الهيئة التشريعية (مجلس العموم) كانت تزيد عن عشرة أضعاف نسبتهم العددية . أما على مستوى الهيئة التنفيذية (الحكومة) فقد كان تمثيلهم يزيد عن نسبتهم العددية بحوالي 35 ضعفا .

كان توزيع الأعضاء اليهود في مجلس العموم البريطاني هو 35 في حزب العمال ، 10 في حزب المحافظين ، 1 في حزب الأحرار . وبالرغم من الاختلاف الايديولوجي بين اليهود المحافظين واليهود الاشتراكيين ، فإنهم يتفقون مع بعضهم البعض اتفاقا تاما فيما يتعلق بسياستهم تجاه إسرائيل. أو بمعنى أصح فيما يتعلق بتوطين اليهود في فلسطين على أشلاء وجماجم العرب من سكان تلك البلاد . وكأن اليهود البريطانيون قد اتفقوا فيما بينهم على توزيع الأدوار التي تناسب كل منهم . إنهم جميعا يلتفون حول هدف واحد ؛ وهو تأييد الصهيونية وتأييد دولة إسرائيل بغير حدود .

وبالإضافة إلى اليهود الصهاينة ، فهناك بريطانيون كثيرون ارتبطت مصالحهم بمصالح الصهيونية ارتباطا وثيقا ، فأصبحوا يدافعون عن الصهيونية بقوة وحماس لا يقل عن حماس البريطانيين اليهود أنفسهم . وهؤلاء هم أشد خطورة على العرب وعلى قضيتهم من اليهود الصهاينة ، لأنهم يتبنون الدفاع عن إسرائيل دون أن تكبلهم تهمة الولاء المشترك التي تسيطر على اليهود البريطانيين عندما يتصدوا للدفاع عن إسرائيل . وفي عام 1974 كان في مقدمة الذين يتفانون في خدمة الصهيونية من غير اليهود كل من المستر هارولد ويلسون زعيم حزب العمال والمستر راندولف تشرشل (حفيد المستر ونستون تشرشل رئيس حزب المحافظين السابق ورئيس وزراء بريطانيا ابان الحرب العالمية الثانية) من حزب المحافظين .

حزب العمال البريطاني وإسرائيل :

لقد ولدت الحركة الصهيونية في بريطانيا على يد قابلة من المحافظين ، وعاشت وترعرعت في ظل المحافظين حيث كان بيدهم السلطة والمال . فلما بدأت رياح الاشتراكية تهب على بريطانيا في أواخر القرن 19 وازدادت قوتها شدة في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، سارع الكثير من اليهود البريطانيين إلى الانضمام والارتباط بحزب العمال . وفي سبتمبر 1920 أعلنت المنظمة الصهيونية باؤول زيون Paole Zion ارتباطاطها رسميا بحزب العمال البريطاني . وقد أخذ نفوذ اليهود داخل حزب العمال البريطاني يتزايد ويتعاظم يوما بعد يوم حتى وصل إلى قمته إبان فترة قيادة المستر هارولد ويلسون للحزب .

ان نجاح الصهيونية في السيطرة على حزب العمال لمن الأمور التي تثير العجب حقا . ان السياسة التقليدية لحزب العمال ، هي مناهضته للاستعمار ، وسياسة التوسع الاقليمي ، ومقاومته لكل الحركات العنصرية . ومع ذلك فقد نجح اللوبي اليهودي داخل حزب العمال ، في أن يدفع هذا الحزب إلى الوقوف ضد كل هذه المبادىء ، إذا كان الأمر يتعلق بإسرائيل . فقد وقف الحزب دائما إلى جانب إسرائيل وهي تحتل أرض فلسطين وتتوسع على حساب جيرانها من العرب ، وأغمض عينيه عن التفرقة العنصرية الشنيعة التي تمارسها السلطات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة .

في عام 1944 وافق حزب العمال في مؤتمره السنوي على القرار التالي «يجب تشجيع العرب على مغادرة إسرائيل لإفساح المجال لليهود النازحين إلى فلسطين . يجب العمل على تهجير عرب فلسطين إلى الأراضي العربية الأخرى بعد تعويضهم عن أملاكهم في فلسطين تعويضا عادلا . ان العرب يملكون أراضي واسعة ، ويجب أن يتركوا أرض فلسطين هذه لليهود . هذا ويجب أن نمارس أيضا احتمال امتداد حدود فلسطين الحالية بالاتفاق مع مصر وسوريا والأردن» . وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أخذ النفوذ الصهيوني يتعاظم في حزب العمال ، إلى أن وصل ذروته عندما تولى المستر هارولد ويلسون زعامة الحزب . لم يكن ويلسون يهودي الديانة ، ولكنه كان متفانيا في خدمة الصهيونية كأحد أبنائها ودعاتها . فقد حدث أن الأمم المتحدة اتخذت في 8 ديسمبر 1972 قرارا في صالح العرب ، وكان القرار بأغلبية 68 صوت مؤيد ضد 7 صوت معارض . كان القرار يقضي بدعوة إسرائيل لكي تعلن التزامها بمبدأ عدم ضم أي أراضي بالقوة ، وأن تمتنع عن ممارسة أي سياسة أو تقوم بأي إجراء يرمي إلى تغيير التوزيع السكاني في الأراضي العربية المحتلة ، كما أعلن القرار أن احترام حقوق الفلسطينيين هو عنصر هام من العناصر الضرورية لتحقيق سلم عادل ودائم في الشرق الأوسط .

وكان المعارضون السبعة هم السلفادور ، هايتي ، نيكاراجوا ، أوروجواي ، كوستاريكا ، الدومنيكان ، إسرائيل . وقد أيدت حكومة المحافظين في هذا الوقت قرار الأمم المتحدة ، بينما امتنعت أمريكا عن التصويت . ورغم هذا الإجماع العالمي ، ورغم المبادىء التقدمية التي يدين بها حزب العمال ، فقد وقف هارولد ويلسون يعارض هذا القرار ، وينتقد موقف البريطانية لتأييدها هذا القرار ، ويقول ان هذا القرار يهدد أمن وسلامة إسرائيل بل ويجعل بقاءها في خطر شديد . فهل مثل هذا الموقف يتماشى مع مبادىء حزب العمال تجاه القضايا الدولية الأخرى ؟ لا ثم لا . هذا هو حزب العمال . وهذا هو هارولد ويلسون الذي كان رئيسا لحكومة حضرة صاحبة الجلالة عندما وصلت إلى لندن في مايو 1974 لكي أكون سفيرا لبلادي لدى تلك الحكومة . كان ويلسون رئيسا للحكومة ، ورئيسا لحزب العمال ، وداعية للصهيونية وصديقا حميما لإسرائيل .

ماذا يستطيع السفير أن يفعـل :

بالرغم من وجود هيئة الأمم المتحدة ، وبالرغم من وجود قواعد عامة للقانون الدولي تعترف بها الغالبية العظمى من دول العالم ، فإن العلاقات بين الدول تخضع في المقام الأول إلى المصالح المشتركة بين هذه الدول . ان الحقوق المشروعة ومبادىء القانون الدولي هي مجرد شعارات ، تجد من يستمع اليها ويعضدها إذا كانت تساندها القوة ، والمقدرة على إلحاق الضرر بمن لا يحترمها . ان المجتمع الدولي والرأي العام العالمي لا يسمع صوت الضعفاء ، حتى ولو كانوا أصحاب حق . لقد ثار الشعب الأمريكي ضد حكومة نيكسون انتقادا لسياسته في حرب فيتنام ، بعد أن شعر بفداحة الثمن الذي يدفعه الشعب الأمريكي في هذه الحرب الغير عادلة . ان هذا الشعب الأمريكي لم يتحرك ضد حكومته وهو يراها تؤيد احتلال إسرائيل للأراضي العربية وتمدها بأحدث الأسلحة والخبرات لتساعدها في تكريس هذا الاحتلال ، وذلك لأن الشعب الأمريكي لم يشعر إبان الحرب العربية الإسرائيلية بفداحة الثمن الذي يدفعه نتيجة لسياسة حكومته .

وكما سبق أن قلت ، فإن السياسة الخارجية للدول الصغرى والمتوسطة تسير دائما في اتجاه موازي لاتجاه السياسة الخارجية للمعسكر الذي تنتمي اليه . لم يعد من الممكن إذن ، أن ينجح سفير أي دولة في تغيير مسار السياسة الخارجية للدولة المعتمد لديها ، مهما أوتي هذا السفير من حذق وذكاء . ان تغيير مسار السياسة الخارجية للدولة يعني إخراجها من المعسكر الذي تنتمي اليه ، سواء كان هذا الانتماء علنيا أم ضمنيا أم عاطفيا . وان عوامل

التأثير على مسار السياسة الخارجية للدول لا يتحكم فيها السفراء ، بل ولا يتحكم فيها وزراء الخارجية أنفسهم . إنها تحتاج إلى قرارات سياسية عليا . ومن هنا يبرز سؤال هام «هل يمكن لسفير مصر في المملكة المتحدة أن يقنع حكومة صاحبة الجلالة بأن تخرج عن إجماع المعسكر الغربي وأن تتخذ موقفا مؤيدا للحق العربي» ؟

ان لبريطانيا مصالح كبيرة في المنطقة العربية ، وفي مقدمتها البترول العربي ، ثم التجارة الخارجية ، والعلاقات الثقافية ، وما لم تتعرض هذه المصالح للخطر فإن السياسة الخارجية الخارجية البريطانية تجاه الحق العربي لن تتغير . لقد تعرضت مصالح الدول الغربية للخطر لفترة وجيزة خلال حرب أكتوبر ، نتيجة الحظر البترولي الذي فرضته الدول العربية ، فسارعت الدول الأوروبية الغربية في السوق المشتركة E.E.C. إلى إصدار بيان لها في 6 نوفمبر 73 . وفيه تعترف لأول مرة بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني . أما اليابان فقد أعلنت في 22 نوفمبر 73 ، أن مفهومها لقرار 242 هو ضرورة انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي التي احتلتها منذ يونيو 67 أولا ، ثم يتم التفاوض بعد ذلك على موضوع الأمن لجميع دول المنطقة . ان هذه المواقف الإيجابية من دول المعسكر الغربي تجاه القضية العربية الإسرائيلية ، قد اتخذت عندما شعرت هذه الدول بأن مصالحها في خطر . انها ليست صحوة ضمير .

ولكن للأسف الشديد فإن سلاح البترول خرج من المعركة بسرعة ، وعلى مراحل متتالية . لقد قام العرب خلال شهر أكتوبر 73 بفرض حظر على إمداداتهم البترولية ، إلى كل من الولايات المتحدة وهولندا ، وذلك بالإضافة إلى خفض إنتاجهم . وبذلك أصبح إنتاجهم من البترول خلال شهري نوفمبر وديسمبر ، يعادل 75٪ من إنتاجهم في شهر سبتمبر . ولكنهم خلال شهر يناير 74 زادوا من إنتاجهم لكي يصبح 85٪ من إنتاج شهر سبتمبر 73 . وفي 18 مارس 74 رفع العرب الحظر عن الولايات المتحدة ، وعاد الإنتاج إلى صورته الأولى ، بل وزاد على مستوى شهر سبتمبر 73 لكي يعوض الكميات التي تم تخفيضها من الإنتاج في الأشهر الستة الماضية . وفي 10 يوليو 74 رفع العرب الحظر عن هولندا ، وانتهت بذلك حرب البترول نهائيا . ولو أن العرب استمروا في حظرهم للبترول وتخفيضه ، بتلك النسبة المتواضعة التي مارسوها خلال شهري نوفمبر وديسمبر 73 ، لظهرت نتائج استخدام هذا السلاح على المستوى السياسي بشكل واضح . ان سلاح البترول هو سلاح جبار ، ولكن تأثيره لا يظهر إلا بعد بضعة شهور .

لقد أجهض كيسنجر سلاح البترول في مقابل إنقاذ الجيش الثالث ، لقد كان حصار الجيش الثالث هي الورقة التي يضغط بها كيسنجر على السادات . وكان السادات هو الذي

يلهث وراء زعماء الدول النفطية ، ويطالبهم بزيادة الإنتاج ورفع الحظر . ومن الجدير بالذكر أن إتفاقية فض الاشتباك ، والتي ترتب عليها فك حصار الجيش الثالث ، لم يتم التوصل اليها إلا بعد أن قامت الدول العربية بزيادة إنتاجها فعلا . وهكذا تم التوقيع على اتفاقية فض الاشتباك بين السادات وبين كيسنجر في أسوان في 18 يناير 1974 .

ان تطور المواصلات بأفرعها المتعددة ، واستقطاب الدول في معسكرات كبيرة ذات ميول ايديولوجية واتجاهات استراتيجية واحدة ، قد أدى إلى تقليص مهمة السفير . لقد كان السفراء في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر يتمتعون بسلطات واسعة ، وكانوا يلعبون دورا هاما في رسم السياسة الخارجية في بلادهم ، وفي البلاد التي يخدمون في بلاطها . كان التشاور بين السفير وبلاده يستغرق حينئذ عدة شهور . أما اليوم فإن هذا التشاور يمكن أن يتم في أي وقت من النهار أو الليل . وهكذا فقد أصبح العبء الأكبر من السياسة الخارجية يتركز في أيدي رؤساء الحكومات ، وإلى حد ما في أيدي وزراء الخارجية . ان هذا لا يعني أن مهمة السفير قد أصبحت عديمة القيمة ، أو أنه من الممكن الاستغناء عنها ، فلازال هناك مئات من المواضيع التي يمكن للسفير أن يعالجها والتي قد تساعد على تحسين جو العلاقات بين بلاده والبلد التي هو معتمد بها . وانطلاقا من هذا المفهوم أجريت العديد من اللقاءاتمع الزعماء البريطانيين من سياسيين واقتصاديين وتجاريين ، كما أجريت العديد من اللقاءات مع الشعب البريطاني ، عبر الإذاعة والتليفزيون والصحافة ، وقمت بشرح القضية العربية بكل أبعادها . وسوف أذكر هنا بعضا فقط من هذه اللقاءات .

حوار مع المحافظيـــن :

كان هناك اعتقادا سائدا في مصر ، بأن حزب المحافظين في بريطانيا يعتبر أكثر تفهما للقضية العربية وأكثر تجاوبا لمطالب العرب وآمالهم . ولكني اكتشفت بعد وصولي إلى لندن أن هذا الاعتقاد لا يستند على أي أساس . لقد وقع أول لقاء رسمي بيني وبين أحد رجال وزارة الظل البريطانية يوم 21 نوفمبر 74 . في هذا اليوم قابلت المستر جوفري ريبون Goeffry Rippon ، لكي أناقش معه وجهة نظر المحافظين في قضية الصراع العربي الإسرائيلي . ولقد صدمني هذا اللقاء ، وخرجت منه بانطباع سيء وقلت لكل من قابلتهم بعد ذلك «إذا كان ما سمعته من المستر ريبون يمثل وجهة نظر حزب المحافظين ، فإن ذلك يعني أن سياسة حزب المحافظين ، لا تقل سوءا عن سياسة حزب العمال تجاه القضية العربية» وقد أبلغت قصة هذا اللقاء إلى عدد من أصدقائنا من نواب المحافظين وفي مقدمتهم المستر ديفيد كراوتش David Crouch ، المستر دينيس ولترز Dennis Walters لكي ينقلوا هذه الرسالة إلى رئيس الحزب .

وبعد أن تولت المسز تاتشر Mrs Thatcher زعامة حزب المحافظين ، عينت كل من اللورد كارنجتون Lord Carrington [5] ، المستر ريجنالد مودلينج Reginald Maudling للشؤون الخارجية في وزارة الظل . وفي لقائي مع كلا الرجلين اتضح أنهما أكثر مرحا وأعذب حديثا من المستر Rippon ولكن آراؤهم في المواضيع الرئيسية تكاد تكون واحدة . وأذكر حديثا دار بيني وبين اللورد كارينجتون عام 1975 ، حول ما أثاره من موضوع ضمان الأمن لإسرائيل . إذ قلت له «ما هذا الذي تقولونه عن أمن إسرائيل ؟ . إننا نحن العرب الذين نطالب بضمان أمننا ضد إسرائيل . ان إسرائيل دولة معتدية وتوسعية ، وهي التي تحتل جميع أراضي فلسطين ، وأجزاء من مصر وسوريا ، وتطرد السكان العرب من ديارهم لتحل محلهم اليهود الذين تستقدمهم من البلاد الأخرى . أما من ناحية القدرات الدفاعية ، فليس سرا أن إسرائيل تمتلك قوات جوية تفوق في قدراتها القوات الجوية لجيرانها العرب مجتمعين ، وبالإضافة إلى ذلك فهناك شكوك تكاد تصل إلى حد اليقين ، بأن إسرائيل تمتلك القنبلة الذرية ، وتمتلك الصاروخ الذي يستطيع حملها إلى أهدافها . من الذي يحتاج إلى ضمانات للأمن ؟ نحن العرب أم إسرائيل ؟» فرد اللورد كارنجتون «يا عزيزي الجنرال . لو أن كلامك هذا قيل لي قبل حرب أكتوبر 73 ، لوجدت فيه الكثير من المنطق ، أما بعد حرب أكتوبر 73 فقد تغيرت جميع الحسابات . إنكم تستطيعون أن تفعلوا الكثير ، فلا تحاول أن تتواضع أكثر من اللازم . فأنت بالذات أعلم من غيرك بما يمكن أن تحققوه في الميدان العسكري إذا ما أتيحت لكم الفرصة بذلك» . قد يزهو الكثير من العرب لسماعهم هذا المديح من اللورد كارنجتون ، ولكني وأنا الجدير بأن أفرح له أكثر من غيري ، فإني لا أرى فيه سوى عملية تخدير وخداع ، لكي نسبح في عالم الخيال ، وننسى الواقع الذي نعيش فيه بكل آلامه ومتاعبه .

لقد زار اللورد كارنجتون كل من مصر وسوريا والأردن والمملكة العربية السعودية خلال شهر فبراير 75 كمبعوث خاص للمسز تاتشر . وبعد عودته من هذه الرحلة ظهر في برنامج تليفزيوني يوم 5 مارس لكي يشرح للشعب البريطاني السياسة الخارجية لحزب المحافظين تجاه مشكلة الشرق الأوسط . وفي خلال هذا الحديث ، اعترف اللورد كارنجتون أن هناك اتفاقا بين حزب المحافظين وحزب العمال حول سياستهما تجاه الشرق الأوسط ، وأن هذا الاتفاق لازال قائما ، وأنه لم يخرج عنه خلال لقاءاته مع الزعماء العرب الذين قابلهم . ان كل ما قاله مما قد يفرح له العرب هو المطالبة بأن تكون سياسة بريطانيا متعادلة even - handed بين العرب وإسرائيل ، ولكنه تهرب من تفسير ما يقصده بهذا التعبير ، وبالتالي ترك الباب مفتوحا لكي يفسره كل من العرب وإسرائيل على هواه . لقد نادى اللورد كارنجتون

بضرورة تعزيز العلاقات التجارية بين بريطانيا والعرب ، وقال ان هناك فرصا ممتازة لتحقيق ذلك . وأعلن بأنه يأمل في أن تقوم كل من شركة ليلاند Leyland وشركة رولز رويس Rolls Royece بإقامة مصنع لها في مصر . وخلاصة القول فإن السياسة الخارجية لحزب المحافظين لا تختلف عن سياسة حزب العمال تجاه المشكلة العربية الإسرائيلية ، بل الأجدر أن نقول أن هناك تطابق بين السياستين . إنهم جميعا ينادون بضرورة التمسك بقرار الأمم المتحدة رقم 242 ، ولكن عند تفسير هذا القرار فإنهم يفسرونه بطريقة تتماشى إلى حد كبير مع تفسير إسرائيل له ، وتتعارض إلى حد كبير مع التفسير المصري لهذا القرار .

لقاء مع اللورد كارادون :

كان اللورد كارادون يشغل منصب سفير بريطانيا في الأمم المتحدة عام 1967 . ويعتبره كثيرون بأنه صاحب القرار 242 المشهور . واللورد كارادون من الشخصيات المحبوبة لدى العرب ، وكثيرا ما كان يدافع عن القضايا العربية ولكن في الحدود التي يسمح بها انتماؤه إلى حزب العمال البريطاني . وفي مقابلة بيني وبين اللورد كارادون يوم 12 ديسمبر 74 دارت مناقشة بيننا حول مستقبل القدس ، فقال إنه زار مؤخرا الضفة الغربية والقدس ، وأنه قابل الكثير من العرب والإسرائيليين ، وكلهم متفقون على ضرورة عدم إعادة تجزئة القدس ، وأن القدس يجب أن تبقى مدينة موحدة ، ولذلك فإنه يريد أن يتقدم بمشروع يقضي بما يلي :

أ ـ تكون مدينة القدس منزوعة السلاح ، ولا يتواجد فيها سوى أفراد من البوليس لحماية النظام .

ب ـ يكون لكل فرد من سكان مدينة القدس حرية زيارة الأماكن المقدسة .

جـ ـ تقوم السلطات الدينية والمدنية بالتعاون فيما بينهم ، لتحقيق حرية العبادة وحرية التنقل .

د ـ يقوم سكرتير عام الأمم المتحدة بتعيين مندوب سامي يمثل الأمم المتحدة ، وتكون القدس هي مكان إقامته . ويعمل بالتعاون مع جميع السلطات المعنية ، لكي يحقق الأهداف والمبادىء الواردة في هذا القرار .

وقد وجهت الكثير من الأسئلة إلى اللورد كارادون كان من بينها : هل ستكون القدس دولة مستقلة مثل الفاتيكان Vatican . ولها السيادة الكاملة المستقلة عن إسرائيل أو أي دولة عربية ؟ إذا لم تكن القدس دولة مستقلة فلمن تكون السيادة ؟ ما هي العملة التي سيجرى تداولها في مدينة القدس . وما هي هوية جوازات السفر التي يحملها سكان القدس ؟ ما هي

الجهة المختصة لإصدار تصاريح المرور لمن يريد زيارة القدس من أهالي الدول العربية والإسلامية وغيرهم من الدول الأجنبية ؟ ما هي طبيعة العلاقة بين مندوب سكرتير عام الأمم المتحدة وبين السلطات المحلية الدينية والمدنية في المدينة ؟ لم تكن هناك أي إجابات لدى اللورد كارادون عن هذه الأسئلة . واكتفى بالقول إنه يمكن بحث هذه المواضيع فيما بعد . وبعد مناقشات طويلة قلت ضاحكا «ان هذا المشروع يا لورد كارادون هو أشد غموضا من القرار 242 الذي اشتهرت به . لا أعتقد أن زعيما عربيا يمكن أن يوافق على مثل هذا القرار الغامض . كفانا ما نقاسيه من القرار 242 حتى الآن» .

الاجتماع مع أعضاء مجلس العموم من المحافظين :

في 12 فبراير 75 اجتمعت بأعضاء اللجنة البرلمانية المختصة بشؤون الخارجية والدفاع في حزب المحافظين . وقد تم اللقاء في إحدى قاعات مجلس العموم وحضر هذا اللقاء جميع أعضاء اللجنة وعددهم حوالي 25 نائبا برئاسة المستر بيتر ووكر Mr Peter Walker وزير الدفاع في حكومة الظل البريطانية . وقد أجبت خلال هذا اللقاء على جميع الأسئلة التي أثيرت ، والتي كان بعضها لمجرد الإحراج وتوجيه النقد إلى الدول العربية مثال ذلك «ماذا فعل العرب من أجل اللاجئين الفلسطينيين ؟ ماذا يمكن للعرب أن يفعلوه بعدما أذيع من أن إسرائيل تمتلك القنبلة الذرية ؟» وقد كان المستر تشرشل يتزعم تقديم هذه الأسئلة المحرجة . وفي هذا اللقاء دافعت عن وجهة النظر العربية وعن حق الدول المنتجة للبترول في رفع أسعار البترول . ودارت مناقشة حامية حول مقال كان قد نشره مؤخرا البروفسور جودهارت Professor A.L. Goodhart . ، وهاجم فيه حق العرب في رفع أسعار النفط ، وخلص من ذلك بأن رفع أسعار النفط ، يمكن أن يكون مبررا للدول المستهلكة لكي تتدخل عسكريا ضد الدول المنتجة للبترول ، لكي تضمن استمرار إمدادها بالنفط بأسعار مناسبة لها .

لقاء مع المستر هارولد ولسون رئيس الوزراء :

في 19 فبراير 75 حضرت مأدبة غداء في 10 دوننج ستريت 10 Downing Street كان قد أقامها المستر هارولد ولسون رئيس وزراء بريطانيا ، تكريما للدكتور حجازي رئيس وزراء مصر والذي كان يزور لندن في ذلك الوقت . ونظرا لأن زيارة الدكتور حجازي لم تكن رسمية ، فقد كان عدد المدعوين للغذاء محدودا جدا ، ولم يحضره من الجانب البريطاني مع الداعي سوى المستر كالاهان وزير الخارجية ، والمستر مودلينج المختص بالشؤون الخارجية في حزب المحافظين المعارض ، وأحد كبار رجال وزارة الخارجية . وقد دار الحديث أثناء وبعد تناول الغذاء ، حول المشكلة العربية الإسرائيلية . كان الدكتور كيسنجر في هذا الوقت

يبذل الجهود لتحريك القضية ضمن سياسة الخطوة خطوة التي كان ينادي بها ، وكانت هناك كثيرا من المصاعب التي تهدد مهمته بالفشل . وكان رأي ولسن ، هو ضرورة الاستمرار في الخط الذي ينتهجه كيسنجر ، وأنه لمن الخطأ أن يقوم العرب بنقل المشكلة إلى الأمم المتحدة ، لأن الأمم المتحدة لن تستطيع أن تتخذ قرارا يمكن للعرب أن يعتبروه منصفا . وأنه لو حدث ذلك لوضعت المشكلة على الرف لمدة طويلة . وأبدى الدكتور حجازي موافقته على أن مجلس الأمن الدولي لن يستطيع أن يتخذ قرارا منصفا للعرب ، وأنه هو الآخر يؤيد إعطاء الفرصة للدكتور كيسنجر ، لكي يجد حلا مناسبا ومقبولا من الطرفين .

لقد كان اللقاء خاصا وليس جلسة مفاوضات رسمية . ومن هنا وجدت نفسي حرا في أن أعبر بما يجول في خاطري . قلت للمستر ولسن «من وجهة نظري الشخصية ، فأنا أعتقد أن عرض المشكلة على الأمم المتحدة سوف يكون له فوائد كثيرة ، حتى ولو لم ننجح في الحصول على ما نريد . ان أقل ما يمكن كسبه هو أن نعرف الأصدقاء من الأعداء . لقد اختلطت الأمور على كثير من الناس في العالم العربي ، حتى لم يعودوا يعرفوا من هو الصديق ومن هو العدو . ولا شك أن المناقشات والتصويت في الأمم المتحدة ، سوف تكشف لهم ذلك بوضوح» .

محاولة كسب الرأي العام البريطاني :

لقد حقق الشعب البريطاني الديموقراطية التي يمارسها اليوم ، بعد فترة صراع دامت ثمانية قرون . سقط فيها الكثير من الرؤوس التي كانت تقاوم الطغيان وتنادي بالحرية . ولذلك فإن البريطانيين هم أشد الناس حرصا على الديموقراطية ، وأكثرهم استعدادا وتفانيا في الدفاع عنها . ومنذ زمن بعيد وحتى يومنا هذا ، يتجمع يوميا في حديقة هايد بارك Hyde Park في قلب لندن ، عشرات من الخطباء ، ويتجمع حولهم مئات من الناس لكي يستمعوا اليهم وهم يشرحون وجهة نظرهم في المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ويحاور المستمعين الخطباء في حرية تامة . وعلى بعد خطوات من هذه البؤر الخطابية ، تقف الشرطة البريطانية دون أن تتدخل حتى لو كان أحدهم ينادي بإنهاء الملكية في بريطانيا ، أو كان ينادي بسقوط الحكومة البريطانية . لقد أصبح ركن الخطابة في حديقة هايد بارك جزء من المعالم السياحية لمدينة لندن حيث يندر أن يزور أجنبي هذه المدينة دون أن يزور هذا المكـــان .

ومع تطور وسائل الإعلام الحديثة دخلت الصحف ومحطات الإذاعة للراديو والتليفزيون كمنابر جديدة لإبداء الرأي . ولكن شتان ما بين من يعتلي منبرا خشبيا في حديقة هايد بارك

ويستمع اليه بضع عشرات من الناس وبين من يعتلي منبر صحيفة فيستمع اليه مئات الألوف . أو أن يعتلي محطة للراديو والتليفزيون ، فيستمع اليه حوالي عشرة ملايين من الناس . إنها منافسة غير عادلة بل إنها ظالمة . ولكن في ظل هذه الديموقراطية ، فإن الدولة لا تستطيع أن تمنع أي فرد أو هيئة من أن تمتلك أي من هذه الوسائل الإعلامية . إن هذا المنع من وجهة نظرهم يعني فرض قيود على الديموقراطية . وقد سارع أغنياء اليهود والهيئات الصهيونية في بريطانيا إلى امتلاك الكثير من وسائل الإعلام ، وبذلك أصبح لهم السيطرة على وسائل الإعلام البريطانية .

ولكن هذه الهيئات الصهيونية ، كانت من الذكاء بحيث أنها لم تغلق هذه المنابر الإعلامية في وجه من يعارضها إغلاقا تاما . إنهم يعلمون أن ممارسة حرية التعبير في بريطانيا ، تستمد قوتها من العرف والتقاليد المتوارثة ، وليس نتيجة لمجرد قوانين وضعية . ولذلك فإن أصحاب هذه المنابر ، يحرصون دائما على أن يفتحوا الباب بعض الشيء أمام من لا يملكون هذه المنابر ، وذلك حتى يبعدوا عن أنفسهم تهمة اتخاذ موقف معاد لحرية التعبير ، وحتى يقدموا للناس هذه المنابر وكأنها صورا حية من صور الديمقراطية . ولكن الباحث المدقق ، يستطيع أن يكشف بسهولة أن هذه النافذة الديموقراطية التي يفتحها من يمتلكون هذه المنابر ، إنما هي صمام أمان لهم يفتحونه أحيانا ويغلقونه أحيانا أخرى ، تبعا لطبيعة الصراع الدائر . وان الحقيقة المرة هي أن أصحاب هذه المنابر يمسكون بأيديهم سلطات قوية وجبارة ، يستطيعون من خلالها أن يسيطروا على عقول الناس ، وأن يقنعوهم بأن الرأي الذي يقدمونه لهم إنما هو في مصلحتهم ، حتى ولو كانت الحقيقة هي عكس ذلك تماما . وفي ظل هذه الأوضاع ، كان الرأي العام البريطاني لا يعرف عن قضية الصراع العربي الإسرائيلي إلا ما يؤكد تأييده لإسرائيل .

لقد صورت الدعاية الصهيونية أن اليهود شعب متمدين ، يقيم دولة عصرية حديثة فوق أرض فلسطين ، وسط بحر من شعوب عربية لا تزال تعيش في عصور متخلفة ، يمارسون فيها الرق ويركبون الجمال ويمتلكون الحريم . وان إقامة دولة إسرائيل لن ينفع البشرية فحسب ، بل أنه سيعود بالفائدة على العرب أنفسهم الذين يعيشون في تلك المنطقة . وأن إسرائيل هي الدولة الوحيدة التي تمارس فيها الديموقراطية ، في حين أن جميع الدول العربية يمارس فيها الحكم الأتوقراطي تحت أشكال متعددة . وأن للعرب أراضي واسعة ، فلماذا يضنون على إسرائيل بهذه الرقعة الصغيرة من الأرض . وأن إسرائيل بتفوقها العسكري والتكنولوجي ، فإنها تستطيع أن تفرض السلام في منطقة الشرق الأوسط وتحمي مصالح الدول الغربية والدول الصناعية في هذه المنطقة وأن العرب هم الذين يخطفون الطائرات ،

ويقتلون النساء والأطفال في إسرائيل ، وأن الغارات التي تقوم بها القوات الإسرائيلية والطائرات الإسرائيلية على الأرض العربية ، إنما هي عمليات دفاعية تدخل ضمن تعريف الحق الشرعي للدفاع عن النفس . الخ الخ .

كان لابد لي أن أخلق نوعا من الاتصال بيني وبين الشعب البريطاني ، لكي أرد على هذه الاتهامات الظالمة ، التي ألصقتها الصهيونية بعقول الناس . ولكن كيف وجميع المنابر الإعلامية تحت سيطرة اليهود . لقد لعب عاملان دورا هاما في إتاحة الفرصةلي للوصول إلى هذه المنابر . أما العامل الأول فكان قيام الصهاينة بمهاجمتي عندما عينت سفيرا في لندن ، وقيامي بالرد على هذه الاتهامات . ونشرت الصحف دفاعي فكان هذا هو أول اتصال يجري بيني وبين الرأي العام البريطاني . وقد قام بعض أقطاب اليهود بالرد على دفاعي فقمت بالرد عليهم واستمر الجدال بيني وبينهم حول هذا الموضوع بضعة أشهر . ومن خلال الدفاع عن نفسي قمت بتوجيه النقد اللاذع للصهيونية البريطانية التي تغض الطرف عن الأعمال الوحشية التي تقوم بها إسرائيل في جنوب لبنان ، بينما تقوم بتضخيم الأعمال التي يقوم بها عدد محدود من الفدائيين ، الذين شردتهم إسرائيل من ديارهم ، وتنكر لهم المجتمع الدولي . ومن خلال هذا الصراع الإعلامي تولد لدى الشعب البريطاني نوعا من الاهتمام بقضيتنا مع إسرائيل .

أما العامل الثاني فقد كان ارتباط اسمي بحرب أكتوبر 73 . لقد صورت الدعاية الإسرائيلية في الماضي خط بارليف بأنه خط لا يمكن اختراقه . ولقد نجح المصريون في اختراق هذا الخط وتدميره خلال 18 ساعة . وها هو الرجل الذي يعتبرونه قاهر خط برليف . إنهم يريدون أن يروا هذا الرجل ويستمعوا اليه وهو يتكلم في التليفزيون أو الراديو . إنهم يريدون أن يقرأوا ما يكتبه في الصحف . لقد كانت هذه المنابر تسعى إلي ولا أسعى اليها . واغتنمت الفرصة وساعدني في ذلك إجادتي للغة الأنجليزية ، فكنت أتكلم في الإذاعة والتليفزيون وأرد على الأسئلة التي توجه إلي أمام الميكرفون وبدون أي تحضير مسبق ، مما جعلني أكتسب ثقة المستمعين والمشاهدين .

وفي خلال عام واحد ظهرت في التليفزيون البريطاني 4 مرات ، وأدليت بأحاديث في الإذاعة 6 مرات ، وكتبت في الصحف 8 مرات . وفي كل هذه الأحاديث كنت أحاول أن أقدم القضية العربية للشعب البريطاني في صورة مقبولة ، وأن أزيل عنها حملات التشويه والتجريح التي حاولت الصهيونية أن تلصقها بها .

المسلمون في بريطانيـا :

تنتمي الغالبية العظمى من المسلمين البريطانيين إلى أصول هندية (الهند ، الباكستان ،

بنجلاديش) . ولا يمثل المسلمين الذين ينحدرون من أصول عربية سوى 20٪ أو أقل من إجمالي المسلمين في بريطانيا . ونظرا لعدم وجود إحصاء بريطاني يبين عدد المسلمين في تلك البلاد ، فقد تعاونت سفارات الدول الإسلامية في لندن عام 74 في إجزاء عملية إحصاء تقريبية لتقدير عدد المسلمين في المملكة المتحدة ، وتوصلت إلى أن عددهم يبلغ حوالي مليون ونصف المليون في ذلك الوقت . وبالرغم من أن المسلمين كانوا يشكلون 2,66٪ من تعداد السكان في بريطانيا ، إلا أن مساهمتهم في الحياة السياسية والاقتصادية البريطانية كانت تكاد تكون معدومة ، إذا ما قورنت بنصيب غيرهم من الأقليات الأخرى في بريطانيا .

تعيش الغالبية العظمى من المسلمين في الدرك الأسفل من السلم الاجتماعي البريطاني . ولم يصل بريطاني مسلم واحد إلى إحدى وظائف الإدارة العليا في الدولة . كذلك لم يصل أحدهم قط إلى مجلس العموم أو مجلس اللوردات . ان عدد المسلمين في بريطانيا يبلغ أربعة أمثال عدد اليهود في تلك البلاد ، ومع ذلك فإن اليهود يحتلون 46 مقعدا في مجلس العموم ، 11 مقعدا في حكومة العمال في ذلك الوقت . ان هذه المقارنة تبين لنا الفرق الشاسع بين القوة التأثيرية لهاتين الفئتين . وبالرغم من كل هذه الظروف ، فإن المسلمين البريطانيين ، وبدون أي توجيه أو جهد إعلامي من الدول العربية ، كانوا يقفون دائما موقف المؤيد للحق العربي في قضية الصراع ضد إسرائيل . إنهم مواطنون بريطانيون شرفاء ، مروا بتجارب قاسية صقلت تفكيرهم ، وأعطتهم المناعة ضد وسائل الإعلام التي تقع تحت سيطرة الصهيونية والامبريالية . لقد قاسوا هم وأجدادهم مرارة الاستعمار قبل أن ينزحوا إلى بريطانيا ، ولذلك فإنهم يقفون دائما ضد الاستعمار وضد التوسع الإسرائيلي . لقد قاسوا هم وأجدادهم مرارة التفرقة العنصرية ، ولذلك فإنهم يعارضون ويقفون ضد التفرقة العنصرية التي تمارسها إسرائيل في الأراضي العربية المحتلة . وفوق هذا وذاك فإنهم مسلمون يتطلعون إلى مقدساتهم الدينية في مدينة القدس ، ويطالبون بضرورة استردادها بواسطة المسلمين . ومن هنا فإن المسلمين في بريطانيا هم حلفاء طبيعيون للعرب في نضالهم ضد إسرائيل .

ان تقديم الدعم المالي والثقافي للمسلمين في بريطانيا ، بل وفي البلاد الأوروبية الأخرى ، هو مسؤولية جميع الدول العربية والإسلامية . إنهم يحتاجون إلى المال الذي يبنون به مساجدهم . إنهم يحتاجون إلى المدارس الدينية التي تقوم بتثقيف أبنائهم ، وتقوية إيمانهم ، حتى لا يذوبوا في الأديان التي تسود مجتمعهم . إنهم يحتاجون إلى رؤوس الأموال التي تمكنهم من العمل بحرية ، وتخلصهم من سيطرة رؤوس الأموال الصهيونية . ان تدعيم المسلمين في بريطانيا ومساعدتهم في تنظيم أنفسهم ليس واجبا دينيا فحسب ، بل هو أفضل استثمار لصالح القضية العربية والإسلامية . لو أن في مجلس العموم البريطاني 10 ـ 15 عضوا مسلما . لو أن في

الحكومة البريطانية عضوا أو عضوين من المسلمين . لو أن المسلمين يمتلكون صحيفة كبيرة ، أو محطة إذاعة أو محطة تليفزيون أو دار كبيرة للنشر . لو حدث هذا بالرغم من ضآلته إذا ما قورن بما يمتلكه اليهود البريطانيون ، لما أصبحت الساحة البريطانية وقفا على الصهاينة وحدهم ، يقولون للشعب البريطاني ما يريدون ويحجبون عنه ما يريدون .

كنت ولازلت أرى أن بناء المساجد الضخمة في العواصم الأوروبية لا تحقق أي هدف من الأهداف ، اللهم إلا أن تكون مظهرا من مظاهر الأبهة والغنى التي تتفاخر به الدول الإسلامية . ان المسجد الواحد يتكلف حوالي 15 ـ 20 مليون جنيه استرليني في حين أن هذا المبلغ يكفي لبناء 100 وحدة صغيرة يتكون كل منها من مسجد صغير ومدرسة ، لكي يؤدي نفس الرسالة التي كانت تقوم بها المساجد في صدر الإسلام . ان المسلمين الذين يعيشون في الدول المسيحية لا يتجمعون في نقطة جغرافية واحدة تتطلب مثل هذه الجوامع الكبيرة ، بل انهم ينتشرون في أعداد قليلة ، ومن الصعب عليهم أن لم يكن من المستحيل أن يسافروا مئات الأميال لكي يؤدوا الصلاة أو لكي يحضروا درسا دينيا . ان الجامع الصغير الذي يستوعب 100 ـ 150 شخص للصلاة هو أنسب أحجام الجوامع في تلك البلاد . إنه يمكن أن يلعب دور الجامع والمدرسة والنادي ، ويخدم كل تجمع من المسلمين يبلغ حوالي 15000 نسمة . وفي أحد لقاءاتي الشهرية مع سفراء الدول الإسلامية في لندن ، صارحتهم بأفكاري وأقنعتهم بها فطلبوا مني التقدم بمشروع كامل عن هذا الموضوع ففعلت . وعرضته عليهم فأقروه ورفعوه إلى الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية بتاريخ 21 يناير 1975 . كان المشروع يتكلف 15 ـ 20 مليون جنيه استرليني ويتم تنفيذه خلال عشر سنوات .

قد يتساءل أحد القراء ولماذا يطلب من المملكة العربية السعودية وحدها التبرع لهذا المشروع ؟ أليست مساعدة المسلمين واجب على كل مسلم قادر ؟ كما وأن هناك دولا عربية مسلمة أخرى غنية يمكنها أن تساهم في هذا المشروع ؟ وهذا حقيقي وقد نوقشت هذه الآراء في اجتماعات مجلس السفراء . ولكن الخبرة والممارسة الفعلية قد أثبتت أن اشتراك دول كثيرة في مشروع واحد يجعل كل منها تعتمد على الأخرى ، ويفرض على القائمين بالمشروع الاتصال بجهات متعددة مما يترتب عليه ضياع الكثير من الوقت والمجهود .

حبذا لو أن كل دولة من الدول الإسلامية الغنية تتبنى مشروعا متكاملا مثل هذا المشروع في إحدى الدول المسيحية فتتولى إحداها شؤون المسلمين في المملكة المتحدة وتتولى الأخرى شؤونهم في فرنسا وهكذا . ان ذلك سيخفف الكثير من المشاكل الإدارية . وبالإضافة إلى ذلك فإن ارتباط مشروع معين باسم دولة معينة ، يكون عادة حافزا لها ، ويدفعها لأن تكون أكثر حماسا وأكثر رغبة في إنجازه في أقصر وقت ممكن .

عندما أنهيت عملي كسفير في لندن في يوليو 75 لم يكن قد تم شيء من هذا المشروع ولكني علمت فيما بعد أن الفكرة قد لاقت قبولا وأن كثيرا من تلك المساجد الصغيرة قد تم بناؤها خلال السنوات الخمس الماضية .

الفصل الخامس

العلاقات الثنائية بين مصر وبريطانيا

العلاقات التجارية بين مصر وبريطانيا :

لقد تدهورت العلاقات التجارية بين مصر وبريطانيا بعد الاعتداء الثلاثي (البريطاني الفرنسي الإسرائيلي) على مصر عام 1956 . وأخذ يتناقص حتى وصلت صادراتنا إلى المملكة المتحدة عام 1972 إلى 13 مليون جنيه استرليني فقط ، وبلغت وارداتنا منها عن نفس العام إلى 18 مليون جنيه . ثم أخذت التجارة بين البلدين تنشط قليلا خلال عام73 فوصلت صادراتنا إلى 24 مليون جنيه ، وبلغت وارداتنا منها في نفس العام إلى 27 مليون جنيه .

وفي عام 1974 أعلن السادات سياسة الانفتاح . وصدر القانون رقم 43 في يونيو 1974 الذي يشجع استثمار المال الأجنبي في مصر ويمنحه الكثير من الضمانات والتسهيلات . وفي إطار هذه السياسة أقيمت الندوات الاقتصادية والتجارية ، وتعددت زيارة الوفود من البلدين . في يوم 22 أكتوبر 74 أقامت الغرفة التجارية البريطانية لقاء كبيرا حيث قام الأستاذ محمود لطفي الذي حضر خصيصا من مصر ، بشرح ومناقشة قانون الاستثمار الأجنبي . وفي 9 ديسمبر 74 عقد في لندن مؤتمر آخر ، نظمته مجلة (M.E.E.D.) *Middle East Economic Digest* . وقد استمر المؤتمر لمدة يومين لمناقشة موضوع « توقعات التجارة والاستثمارات الأوروبية في منطقة الشرق الأوسط» . وقد اشتركت مصر في هذا المؤتمر بوفد مكون من أربعة محاضرين برئاسة الدكتور عبد الرزاق عبد المجيد وكيل الوزارة بالأمانة العامة لمجلس الوزراء [6] . وتركز حديثهم على أهمية ومستقبل الاستثمار الأجنبي في مصر . هذا وقد سافر إلى مصر مئات من رجال الأعمال البريطانيين للبحث عن فرص الاستثمار وتنمية العلاقات

بين البلدين . ولعل أبرز هذه الزيارات هي تلك الزيارة التي قام بها وفد من الغرفة التجارية برئاسة اللورد سليم Lord Slim ، في أوائل مايو 75 .

ونتيجة لكل هذه الإجراءات بدأت التجارة الخارجية بين البلدين في التحسن . ولكنه كان تحسنا طفيفا . فبلغت صادراتنا إلى بريطانيا عام 74 ما قيمته 37 مليون من الجنيهات ، بينما بلغت وارداتنا منها 52 مليونا .

العلاقات الثقافية :

ترتبط مصر وبريطانيا بعلاقات ثقافية قديمة ، بدأت منذ الاحتلال البريطاني لمصر في أواخر القرن الماضي ، وأخذت تتزايد على مر السنين وحتى وقتنا هذا . وبالرغم من أن هذه العلاقات قد أصابها بعض الفتور أحيانا ، كنتيجة مباشرة لتدهور العلاقات السياسية بين البلدين في أعقاب الاعتداء البريطاني على مصر عام 1956 ، إلا أن هذه العلاقات الثقافية سرعان ما استعادت مراكزها ، وعادت إلى ما كانت عليه . ويعتبر مكتب البعثة التعليمية بلندن ، من أقدم مؤسساتنا الثقافية في الخارج . وقد أنشيء هذا المكتب عام 1912 . كما تم إنشاء مكتب ثقافي عربي في لندن عام 43 . ثم وحدت إدارة المكتبين منذ عام 48 تحت اسم المكتب الثقافي المصري . وينظم العلاقات الثقافية بين جمهورية مصر العربية والمملكة المتحدة حاليا معاهدة ثقافية ، تم تحضيرها في 26 سبتمبر 65 ، وتم تبادل وثائق التصديق عليها في 16 أكتوبر 68 ، وبدأ العمل بأحكامها اعتبارا من أول نوفبر 68 . وتنص المادة الحادية عشر من هذه المعاهدة بأن المدة المحددة للعمل بها هي أربع سنوات ، تتجدد تلقائيا ما لم يخطر أحد الطرفين الطرف الآخر برغبته في إنهاء المعاهدة . وبناء على هذا النص فإن المعاهدة سارية المفعول حتى الآن .

وقد بلغ عدد الطلاب الدارسين تحت إشراف المكتب الثقافي المصري في لندن ، 1000 طالب خلال العام الدراسي 75/74 . ويستهدف الدارسون تحت إشراف المكتب ، الدراسة والبحث للحصول على درجة الدكتوراه أو ما يعادلها . ويقوم بعضهم بالتحضير لدرجات مهنية عالية كزمالة الجراحين أو زمالة المحاسبين الخ . وبالإضافة إلى ما يقوم به المكتب الثقافي المصري من أعمال في هذا المجال ، فهناك كثير من العلاقات الثقافية التي تتم خارج نطاق هذا المكتب . مثال ذلك اتفاق الاستفادة من مشروع الكتب العلمية البريطانية ذات الأسعار المخفضة ، واتفاق التعاون العلمي بين أكاديمية البحث العلمي والجمعية الملكية العلمية البريطانية ، واتفاق الدعم الفني الذي تم مع وزارة التربية والتعليم .

النشاط السياحي :

تدل الإحصائيات على أن حجم الحركة السياحية من المملكة المتحدة إلى مصر ، ازداد

ازديادا مضطردا خلال عام 1974 . في عام 73 كان عدد السياح من المملكة المتحدة 16049 ، وارتفع هذا الرقم عام 1974 إلى 18673 أي بزيادة 16٪ . وقد كان من الممكن أن يرتفع عدد السياح البريطانيون إلى ما هو أكثر من ذلك بكثير ، ولكن النقص في عدد الأسِرّة الفندقية في مصر ، هو الذي كان يحول دون ذلك . وقد دفع هذا الموقف وزارة السياحة المصرية ، إلى العمل على تشجيع المستثمرين الأجانب لإقامة الفنادق في مصر . وقد تقدمت عدة شركات دولية بعروض لإقامة هذه الفنادق وقبلت الجهات المختصة في مصر عددا من هذه العروض . ولكن بعضا من هذه العروض كان يشوبها الكثير من علامات الاستفهام . ولعل أبرز هذه الأخطاء ، هو المشروع السياحي الذي كان يرمي إلى بناء 10000 غرفة في منطقة الأهرام ومنطقة رأس الحكمة ، والذي عرف فيما بعد بمشروع هضبة الأهرام .

مشروع هضبة الأهرام :

في يوم 21 يونيو 74 تلقيت خطابا من المستر ديفيد جيلمور Mr David H. Gilmour نائب رئيس شركة (SPP) Southern Pacific Properties Limited سوذرن باسيفيك المتحدة ، بخصوص مشروع سياحي في مصر . كان هذا هو أول معلومات تصل إلي عن هذا المشروع الذي عرف فيما بعد بمشروع هضبة الأهرام . وفي يوم 26 يونيو استقبلت في مكتبي رئيس الشركة المستر بيتر منك Peter Munk ، ومعه كل من المستر سيمون بادوك Mr Simon Paddok ، والمستر شارل رياشي Mr Charles Riachi لكي يشرح لي أبعاد هذا المشروع طبقا للفكرة الأولية Pilot Project التي كان قد أرفقها مع خطابه السابق الإشارة اليه . ومنذ ذلك الحين شاءت الأقدار أن أكون أحد الشهود لأكبر عملية نصب واحتيال ورشوة تمت في مصر منذ حفر قناة السويس وحتى وقتنا هذا . وسوف أقص هنا مختصرا عن هذا المشروع وملابساته كما وصلت إلي بحكم منصبي كسفير لمصر في هذه الفترة .

تقدمت شركة .S.P.P في أبريل 74 إلى الحكومة المصرية بالفكرة الأولية عن هذا المشروع Pilot Project . وكما تقول الشركة في مقدمة المشروع ، أن ذلك تم بناء على تشجيع encouregement من السيد عثمان أحمد عثمان . ثم وصلت إشارة تليفونية من السيد أحمد زكي مدير شركة مصر للسياحة والفنادق إلى شركة .S.P.P بتاريخ 17 يونيو ، تطلب منهم إجراء دراسة الجدوى للمشروع feasiblity study حتى يمكن عرضه على السلطات المختصة للموافقة على المشروع . وفي يوم 21 يونيو أذاعت شركة .S.P.P بأن الحكومة المصرية قد دعت invited الشركة المذكورة ، لكي تبدأ في تطوير أكبر مشروع سياحي في مصر ، ثم أخذت تشرح في أبعاد المشروع ومستقبله وما ينتظر له من نجاح .

ويلاحظ أن إسراع شركة .S.P.P بإذاعة هذا البيان بالصحف كان يقصد به أن يغلق باب المشروع أمام أي شركة منافسة . وأن عدم قيام مصر بإجراء مناقصة عالمية عن المشروع ، وعدم قيامها بتكذيب بيان شركة .S.P.P يؤكد بأن بعض المسؤولين المصريين كانوا ضالعين مع الشركة في هذه الصفقة المشبوهة .

حضر مدير الشركة لمقابلتي يوم 26 يونيو ، وقد قلت له أن فكرة المشروع Pilot Project طبقا لما بعثت به إلي منذ خمسة أيام لا اعتراض عليها . فكلنا نود أن نعمل على تنشيط السياحة في مصر ، ولكن السيد أحمد زكي قد طلب منك إجراء دراسة الجدوى Feasibility studies وأنت لم تتقدم بهذه الدراسة حتى الآن . فوعد بأنه سيبعث بالفنيين إلى القاهرة لإجراء هذه الدراسة وأن ذلك سيستغرق حوالي شهرين على الأقل ، ثم يحضر بعد ذلك لمقابلتي ومعه هذه الدراسة . وبعد ذلك بعدة أسابيع وصلتني رسالة من القاهرة تسألني عن سمعة شركة .S.P.P ومركزها المالي فأجبتهم بأن المعلومات المتيسرة لدينا عن هذه الشركة شحيحة ، حيث أنها لا تتمركز في لندن وليس لها أي نشاط في المملكة المتحدة . وطلبت من القاهرة أن تسأل عن موقف الشركة حيث يوجد مركزها الرئيسي . ثم انقطعت معلوماتي عن هذا الموضوع نهائيا إلى أن علمت في أواخر شهر ديسمبر 74 ، بأنه قد تم الاتفاق بين الشركة وبين الحكومة المصرية حول إقامة مشروع سياحي تبلغ تكاليفه 400 مليون دولار ، وأن العقد قد وقع بين الطرفين في القاهرة بتاريخ 12 ديسمبر .

وفي يناير 75 كان أمامي صورة طبق الأصل من العقد المبرم بين الحكومة المصرية وبين الشركة . قرأت العقد أكثر من مرة وأنا لا أصدق عيناي . كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ هل بعثت روح دليسبس وتقمصت شخصية المستر David Gilmour ؟ وهل بعثت روح الخديوي اسماعيل لكي تتقمص شخصية السادات ؟ ما هذا التشابه العجيب بين عقد قناة السويس 1859 وهذا العقد الذي أبرم بعده بمدة 115 سنة . ان الربح كل الربح للأجنبي . والغرم كل الغرم على مصر المسكينة . التي ابتلاها الله في الحالتين بحاكمين مفتونين بكل ما هو أجنبي ، يبيعون تراث وممتلكات بلادهم بثمن بخس .

لقد اشتهر هذا المشروع فيما بعد بمشروع هضبة الأهرام . أما الحقيقة فإن المشروع يشمل موقعين . أحدهما هو هضبة الأهرام ، والثاني هو هضبة رأس الحكمة في الصحراء الغربية . وبموجب هذا العقد تشكل شركة جديدة للقيام بتنفيذ هذا المشروع . ويكون رأس مالها 2000000 دولار . تساهم فيها شركة .S.P.P بمبلغ 60٪ وتمتلك مصر باقي الأسهم وقدرها 40٪ أي ما يساوي 800000 دولار . وبدلا من أن تقوم مصر بدفع هذا المبلغ ، فإنها تتنازل للشركة المذكورة عن 20000 فدان في منطقة الهرم ، 20000 فدان في منطقة رأس الحكمة .

وهذا يعني أن الحكومة المصرية ، قبلت أن تبيع إلى الشركة المذكورة 40000 فدان بمبلغ 800000 دولار أي بمعدل 20 دولار فقط للفدان . هل يعقل أن تبيع مصر المتر المربع في منطقة الهرم بثلاثة مليمات ؟ أعيد مرة أخرى ثلاثة مليمات للمتر حتى لا يعتقد أحد أن هناك خطأ مطبعي . من هم هؤلاء النصابون من المصريين الذين ساهموا في تأسيس هذه الشركة ، واشتروا من بلدهم المتر بثلاثة مليمات لكي يبيعونه بعد ذلك بعشرات الجنيهات ، بل وبمئات الجنيهات لو استمرت عملية النصب في طريقها المرسوم ؟

ليت هذا فحسب . بل هناك بنود أخرى كثيرة مجحفة بمصر . مثال ذلك أن مدة العقد 50 سنة[7] .وأن تتحمل مصر وحدها جميع التكاليف المترتبة على ربط هذين الموقعين ، بالطرق ، والمطارات ، والتليفونات مع إعطاء ذلك أسبقية كبرى . وأن تعفى الشركة من الضرائب لمدة ثمان سنوات بعد بدء تشغيل المرحلة الأولى ، والتي يتم خلالها إنشاء وتشغيل فنادق طاقتها 4000 غرفة نوم . وأكثر من هذا وذلك أن يكون لشركة .S.P.P حق التنازل عن حقوقها إلى طرف آخر .

هناك كثير من الأسئلة التي لن نحصل عليها إلا إذا تكلم السيد ابراهيم نجيب وزير السياحة ، لأنه هو الذي وقع على هذا العقد . لا شك أن ابراهيم نجيب يعرف الكثير من الأسرار والملابسات التي أحاطت بالتوقيع على هذه الصفقة الخاسرة . ولا شك أن لديه الإجابات عن تلك الأسئلة الحائرة :

1 ـ لماذا لم تقم وزارة السياحة بعرض المشروع في مناقصة عالمية ولاسيما وأن التقديرات المبدئية للمشروع تقدر بمبلغ 400 مليون دولار . أليس من المضحك أن تقوم الحكومة بعمل مناقصة عندما تريد أن تبني غرفة قد لا يزيد تكاليفها عن 400 دولار ثم لا تقوم بعمل مناقصة عالمية لمشروع تبلغ تكاليفه حوالي 400 مليون دولار ؟

2 ـ كيف يمكن لشركة رأس مالها 2 مليون دولار أن تقوم بتمويل مشروع تبلغ تكاليفه 400 مليون دولار ؟

3 ـ كيف يمكن لمصر أن تبيع 40000 فدان في أشهر مكان سياحي في العالم بمبلغ ثلاثة مليمات للمتر المربع ؟

ويبدو أن شركة .S.P.P كانت هي نفسها تشعر بالحرج ، نتيجة السهولة والسرعة التي تمت بها هذه الصفقة الغير متكافئة ، وأن هذا المشروع لابد وأنه سيكون محل نقد في الداخل والخارج . لذلك فإن الشركة كانت حريصة على أن تعلن في الصحافة العالمية ،

بأن المشروع قد عرض على الرئيس السادات وهو في صورته النهائية . وأنه وافق عليه يوم 23 سبتمبر 74 . وهذا يثير أسئلة أخرى . «لماذا هذا الاهتمام الكبير من طرف السادات حول هذا المشروع ؟ لماذا يتدخل رئيس الجمهورية في مثل هذه الشؤون الفنية والمالية ، قبل أن تتم دراسة المشروع بواسطة الفنيين والمختصين ؟ إذا كان السادات قد وافق على المشروع في صورته النهائية في 23 سبتمبر فما هي الأسباب التي دفعت المختصين إلى تأجيل التوقيع 80 يوما ؟ هل عارض وزير السياحة أو غيره من المختصين في المشروع ؟ وهل حدث ضغط عليهم للتوقيع على المشروع ؟ هل من مجيب على هذه الأسئلة ؟» .

لقد نوقش الموضوع في مجلس الشعب عام 1978 ، وقد تدخل السادات شخصيا لإنهاء المناقشات وإيقاف المشروع . ولكن الموضوع أكبر من ذلك بكثير . ان رئيس الجمهورية هو أحد الأطراف الرئيسية في الموضوع . وقد أراد بإيقاف المشروع أن يمنع الفضائح التي قد تظهر إذا ما تشعبت المناقشات . ان أموال مصر ومصالحها أكبر من أن يتاجر بها حفنة من الأفاقين والمرتشين .

لقد تكلمت صحف عالمية عن عمولات ضخمة دفعتها شركة S.P.P. لكي تحصل على هذا الامتياز وإننا نريد أن نعرف من هم هؤلاء الذين يسرقون أموال الشعب ويتاجرون بممتلكاته وتراثه وتاريخه .

وزير الخارجية في زيارة رسمية للملكة المتحدة :

قام السيد اسماعيل فهمي وزير خارجية مصر بزيارة رسمية للمملكة المتحدة ما بين 10 ـ 13 يونيو 1975 . وفي خلال هذه الزيارة ، تمت عدة لقاءات بينه وبين الزعماء البريطاني سواء من كان منهم في الحكومة أو كانوا في المعارضة . وبالرغم من أن قرار نقلي إلى البرتغال كان قد صدر قبل ذلك ، إلا أنني كنت أرافقه في جميع هذه اللقاءات(8)

وقد عقد أول اجتماع رسمي بين السيد اسماعيل فهمي والمستر كالاهان وزير الخارجية في مبنى وزارة الخارجية البريطانية في الساعة 17,00 يوم 10 يونيو . وفي هذه المقابلة جرى الحديث حول موضوعين . كان الموضوع الأول هو موقف المملكة المتحدة من القضية العربية ، وكان موقف كالاهان هو موقف بريطانيا الثابت والكلاسيكي «تنفيذ قرار مجلس الأمن 242 بجميع عناصره ويشمل ذلك انسحاب إسرائيل من أراضي محتلة مع التأكيد على حذف ال التعريف ، وتحقيق الأمن لإسرائيل ... الخ» . ونظرا لغموض القرار والاختلاف حول تفسيره ، فقد كان الطرفان يسيران في حلقة مفرغة ، تؤدي إلى تكرار وجهات النظر التي سبق أن ذكرت في الأمم المتحدة والتي سبق مناقشتها على صفحات الجرائد ووسائل الإعلام

الأخرى . أما الموضوع الثاني فهو طلب مصر عقد صفقة أسلحة مع بريطانيا بعدة مئات من ملايين الجنيهات الاسترلينية . وقد استجاب الجانب البريطاني بسرعة لهذا الطلب . ولكن الغريب في هذا الموضوع هو عدم تحديد نوعية أو حجم هذا السلاح ، فلا الجانب المصري تقدم بهذا الطلب ، ولا الجانب البريطاني تساءل عن ذلك . ويبدو وكأن كلا من الطرفين ، كان يريد أن يثبت للآخر حسن نيته دون أن يقصد حقا تحقيق ما كان يقول .

وفي الساعة 11,30 يوم 11 يونيو استؤنفت المفاوضات بين الوزيرين وكان موضوع البحث في هذه الجلسةهو مشكلة قبرص . عندما افتتحت الجلسة قال المستر كالاهان «قبل أن نبدأ الحديث حول مشكلة قبرص ، فإني أود أن أشير بكلمة قصيرة عما تم الاتفاق عليه أمس بخصوص صفقة الأسلحة . لقد وصلتنا تقارير صباح اليوم من فرنسا ، تفيد أن السيد حسني مبارك نائب رئيس الجمهورية المصري الذي يزور باريس حاليا ، قد أدلى بتصاريح تفيد بأن هيئة التصنيع العربية قد عقدت مع فرنسا عدة عقود تشمل إمداد مصر بأسلحة متقدمة تبلغ قيمتها مئات الملايين من الجنيهات . كما أن فرنسا قد أعلنت عزمها على تقديم المساعدات الفنية لهذه الهيئة ، لكي تقوم بإنتاج بعضا من هذه الأسلحة . وإننا نريد أن نتأكد من سعادة وزير الخارجية المصري عن حقيقة هذه التصاريح ، ومدى تأثيرها على ما تم اتفاقنا عليه بالأمس» قام اسماعيل فهمي بالتقليل من أهمية التصاريح المنسوبة إلى حسني مبارك ، وأكد للمستر كالاهان بأن ما تم الاتفاق عليه في اليوم السابق هو أساس السياسة الخارجية المصرية . ولكني أعتقد أن تأكيدات اسماعيل فهمي لم تنجح في إزالة كل الشكوك التي ولدتها تصاريح حسني مبارك لدى المستر كالاهان . وقد علمت فيما بعد أن شكوك المستر كالاهان كان لها ما يبررها . فقد كنت أزور الدكتور أشرف مروان بعد ذلك بيومين في إحدى مستشفيات لندن ، وتبادلنا الحديث حول هيئة التصنيع العربية وتصاريح حسني مبارك فأكد لي صحتها . فحكيت له ما دار من مناقشات حول هذا الموضوع أثناء لقائنا مع المستر كالاهان وأن هذه التصريحات قد وضعت اسماعيل فهمي في موقف حرج للغاية فعلق قائلا «بستاهل . ليه يتدخل في أمور ليست من اختصاصه ؟ إننا في الهيئة لم نفكر ولم نتصل حتى الآن بأي جهة بريطانية حول هذا الموضوع» .

وفي أثناء مناقشة مشكلة قبرص وجه اسماعيل فهمي بعض اللوم إلى كالاهان واتهم الحكومة البريطانية بأنها لم تقم بالتزاماتها تجاه قبرص . وأنه من واجبها أن تستخدم جميع الوسائل الممكنة لفرض الوحدة في الجزيرة بما في ذلك حق استخدام القوات المسلحة . ويبدو أن كلام اسماعيل فهمي قد صيغ في أسلوب أثار حفيظة كالاهان ، فصاح فيه غاضبا «استخدام القوة المسلحة ؟ كيف وبماذا ؟ ان استخدام القوات المسلحة له قواعد وأصول .

ان معنا هنا الجنرال الشاذلي ، ويستطيع أن يحدثنا إذا كان في إمكان بريطانيا أن تستخدم قواتها المسلحة ضد قوات الغزو التركية» . ونظر الجميع إلي ينتظرون تعليقي . كنت في موقف حرج للغاية . ان قرب قبرص من السواحل التركية يجعل تركيا في وضع يسمح بحشد وإدامة قوات كبيرة في سرعة وسهولة . وأن الطيران التركي يستطيع أن يوفر الحماية الجوية فوق الجزيرة من قواعده على الأرض التركية . في حين أن بعد هذه الجزيرة عن بريطانيا لابد وأن يلقي أعباء كبيرة على بريطانيا إذا ما ارتأت أن تحشد بها قوات مناسبة . وأن القوات المسلحة التركية قوية وقادرة على فرض سيطرتها البرية والبحرية والجوية على الأراضي القبرصية التي احتلتها . وفوق كل ذلك فإن كل من بريطانيا وتركيا أعضاء في حلف شمال الأطلسي (NATO) . وليس من المعقول أن تسمح أمريكا وباقي أعضاء الحلف للدولتين الحليفتين أن تحارب إحداهما الأخرى ، حيث أن ذلك لابد وأن يصيب حلف الناتو بصدع كبير . ان جميع هذه العوامل تؤكد ضرورة استبعاد التدخل العسكري البريطاني الذي يطالب به وزير الخارجية المصري . ولكن ماذا أقول ؟ هل أقوم بتأييد المستر كالاهان ضد اسماعيل فهمي بينما أنا عضو في وفد رسمي ؟ هذا أمر غير معقول . ولكن من غير المعقول أيضا أن أؤيد اسماعيل فهمي في موضوع لا يقره قلبي وعقلي . لم أتكلم وطال الصمت حتى تأكد الجميع أنني قد فضلت الصمت عن الكلام . ولم يحاول أي من الوزيرين أن يضغط علي لكي أتكلم . وبعد فترة صمت طويلة استأنف اسماعيل فهمي الحديث بصوت خافت ، وبنبرة فيها نوع من التصالح لتهدئة الجو المشدود . وبعد فترة قصيرة رفعت الجلسة لكي نذهب إلى 10 شارع داوننج ستريت ، حيث تناولنا الغذاء على مائدة المستر ولسن رئيس الوزراء .

وفي يوم 12 يونيو أقام عدد من أعضاء مجلس العموم الذين يؤيدون القضايا العربية (اللوبي العربي) ، حفل شاي في أحد قاعات المجلس تكريما للسيد اسماعيل فهمي . وقد حضر في هذا الحفل عدد من الصحفيين المصريين الذين كانوا قد حضروا من مصر لتغطية أنباء هذه الزيارة . وردا على أحد الأسئلة التي وجهها اليه أحد أعضاء المجلس عن ليبيا ، قام اسماعيل فهمي بشن هجوم شديد على العقيد معمر القذافي ، واتهم السوفييت بأنهم يقومون بإمداد القذافي بأسلحة متقدمة بكميات كبيرة تشكل تهديدا خطيرا لأمن وسلامة مصر . وأن نظام العقيد القذافي هو بؤرة يتزايد فيها وينتشر منها النفوذ الشيوعي في المنطقة . وأن هذا النظام يجب استئصاله must be eliminated . كان هجوما قاسيا وجارحا ، ولاسيما وأنه يصدر من وزير خارجية دولة عربية في حديث عام ، وضد رئيس دولة عربية . كان الحديث يدور باللغة الأنجليزية ، ولكن الصحفي المصري عبد الستار طويلة تدخل في الحديث باللغة العربية قبل نهاية اللقاء بقليل ، ووجه سؤالا استنكاريا للسيد اسماعيل فهمي . وقال

له ان الأسلحة التي تتلقاها ليبيا لا يمكن أن تشكل خطورة على مصر ، وإنما هي تزيد من قوة العرب . وأن الاتحاد السوفيتي قد أمد بها ليبيا لكي تستخدمها ضد إسرائيل وليس ضد مصر . وأن العقيد القذافي قد أعلن ذلك بنفسه عدة مرات . أثار ذلك غضب اسماعيل فهمي وأجاب على انتقادات طويلة بإجابات غاضبة وقاسية . وتكهرب الجو ثم انفض اللقاء بعد قليل ، ولكن بعد أن أحس البريطانيون أن هناك خلافا ونقاشا حادا بين وجهتي نظر متعارضتين .

وفي أثناء عودتنا من مجلس العموم إلى الفندق الذي ينزل فيه السيد الوزير قال لي اسماعيل فهمي أنه يشعر بالضيق والتعب . وأنه لذلك يرجو أن أحضر نيابة عنه المؤتمر الصحفي الذي كان مقررا عقده في السفارة المصرية ، في الساعة 18,30 من نفس اليوم ، وكانت الإذاعة والتليفزيون سوف تقومان بتسجيله وإذاعته . كان واضحا أن الوزير يريد أن يتخلص من مضايقة الصحفيين إذا ما وجهت اليه أسئلة تتعلق بالتضارب بين تصريحاته في لندن وتصريحات حسني مبارك في باريس . أو الأسئلة التي تتعلق بالعلاقات بين مصر وليبيا ولاسيما فيما يتعلق بالأسلحة المتقدمة التي يتوالى وصولها إلى ليبيا من الاتحاد السوفيتي . اعتذرت له عن حضور هذا المؤتمر الصحفي . وقلت له ان هذا مؤتمر تم إعداده لكي يتكلم فيه هو بشخصه بمناسبة تلك الزيارة . فإذا لم يكن مستعدا لهذا المؤتمر فالأجدر أن يتم إلغاؤه ، ولكني نصحت بعدم الغائه حيث لم يكن باق على ميعاد المؤتمر سوى حوالي ساعة ونصف فقط . فقال لي إنه سيحاول حضور المؤتمر رغم شعوره بالتعب . ولكني عندما عدت إلى السفارة وجدت أن الوزير اتصل بالسفارة تليفونيا من الفندق ــ وكنت قد رافقته حتى الفندق ــ وأخبرهم بأنه لن يحضر هذا المؤتمر وأن السفير سوف يحضر هذا المؤتمر نيابة عنه . كان حضوري لهذا المؤتمر سوف يفرض علي أن أختار بين أمرين لم أكن أرغب في أي منهما ، فإما أن أردد ما يقول اسماعيل فهمي على اعتبار أنه السياسة الخارجية الرسمية للدولة بالرغم من تعارض ذلك مع أفكاري . أو أن أفجر الخلاف بيني وبين حكومتي أمام العالم أثناء زيارة رسمية يقوم بها وزير الخارجية . قررت ألا أحضر هذا المؤتمر مهما كانت الظروف . أبلغت الوزير المفوض بأنني لن أحضر هذا المؤتمر وعليه أن يتصل تليفونيا بالوزير في الفندق ويبلغه ذلك . فإما أن يحضر أويلغي المؤتمر ، أويقوم بتفويضه في حضور هذا المؤتمر . ولكي أظهر تصميمي على موقفي خرجت من السفارة دون أن أخطر أحدا بمكاني . ولم أعد إلى السفارة إلا بعد بضع ساعات من انتهاء المؤتمر الذي أثار تخلف كل من وزير الخارجية والسفير عن حضوره الكثير من التساؤلات .

في صباح اليوم التالي زرت السيد الوزير في الفندق ، وجلست معه بعض الوقت قبل أن أرافقه إلى المطار حيث كان سيطير إلى مدريد . لقد تحدثت مع الوزير خلال هذه الزيارة

في مواضيع شتى ولكن موضوعا واحدا لم نتطرق اليه وهو موضوع نقلي إلى البرتغال . وبينما كنا في طريقنا إلى المطار ، وبعد أن يئس اسماعيل فهمي من أن أقوم بطرح هذا السؤال عليه تطوع هو بأن يبدأ الحديث فقال «ان النجاح الذي حققته في لندن قد دفع السيد الرئيس إلى أن يعينك في البرتغال . ان السلطة في البرتغال في أيدي القادة العسكريين . وأنت أقدر الناس على فهم العسكريين والتعامل معهم ولذلك فإن الرئيس السادات قد أمر بتعيينك سفيرا في البرتغال . وإننا نتوقع لك نجاحا كبيرا هناك» . ابتسمت ورميته بنظرة ذات معنى ولم أعقب على قوله بكلمة واحدة .

البَابُ الثاني

سَفيرٌ في البُرتغالِ

الفصل السادس

من لندن الى لشبونة

لا شك أن وجودي في لندن قد سبب إزعاجا كبيرا للسادات . لقد كان يريد بتعييني سفيرا في لندن أن يلهيني ويفتني بمباهج الحياة ولهوها . فأنغمس فيها وأنسى الحديث عن الحرب والسياسة . وكان يريد أن يبعدني عن القاهرة حتى يقطع خطوط الاتصال بيني وبين كل من يعارضون سياسته . ومع ذلك فقد أثبتت الأحداث أن تعييني في لندن لم يحقق له أيا من هذين الهدفين . فقد كان مكتبي ومنزلي في لندن يعج باستمرار بالمصريين والعرب الذين يزورون لندن بأعداد كبيرة . كما وأن حياة الأبهة ومباهج الحياة في لندن لم تمنعني من تعاطي السياسة ، والتي تمثلت في قيامي بتوجيه النقد العلني لسياسة السادات . ومن هنا قرر السادات أن يبعدني من لندن إلى البرتغال .

كانت البرتغال من وجهة نظر السادات هي أحسن اختيار أمامه . لقد كانت لشبونة هي نقيض لندن في كل شيء . فبينما كانت لندن تعتبر مركزا ثقافيا وعلميا يعج بالمثقفين من مصر والبلاد العربية ، فقد كانت لشبونة مدينة تكاد لا تكون معروفة للغالبية العظمى من المصريين والعرب ، حتى أنهم كثيرا ما يخلطون بينها وبين برشلونة Barcelona التي تقع في أسبانيا . وبينما كانت لندن تعج بعشرات الألوف من السياح العرب والمصريين فلم تكن البرتغال قط هدفا من أهداف السياح العرب . وبينما كانت الجاليات المصرية والعربية التي تعيش في بريطانيا تقدر ببضع مئات من الألوف . فلم يكن هناك مصري واحد يعيش في البرتغال . وبينما كانت لندن تعتبر محطة راحة لكل العرب الذين يتوجهون إلى أمريكا أو الاتحاد السوفيتي . فقد كانت لشبونة لا تقع في طريق العرب الذين يتوجهون إلى الشرق أو الغرب . وتحت هذه الظروف فإن تعييني سفيرا في لشبونة كان يحمل معنى الأبعاد عن

المناطق الحساسة . مثله في ذلك مثل من تنقله السلطة من القاهرة إلى مكان ناء في الصحراء الشرقية أو الغربية من أمثال برنيس والعوينات . تلك الأماكن التي لا يكاد يعرفها أحد في مصر .

كان من ضمن مميزات هذا التعيين أيضا ـ من وجهة نظر السادات ـ أنني لم أكن أعرف كلمة واحدة في اللغة البرتغالية . لقد كانت إجادتي للغة الأنجليزية عونا لي لكي اتصل بالرأي العام البريطاني اتصالا مباشرا وبدون مترجم . وكما سبق أن قلت في خلال عام واحد قضيته في بريطانيا . ظهرت في التليفزيون 4 مرات وتحدثت في الراديو 6 مرات . وكتبت في الصحف 8 مرات . أما في البرتغال فإن حاجز اللغة كان يحول بيني وبين إقامة مثل هذا الاتصال المباشر مع الشعب البرتغالي . وبالإضافة إلى كل ذلك فإن البرتغال كان لديها مشاكلها الخاصة . ولم يكن شعبها على استعداد لكي ينغمس في المشاكل العالمية . ولاسيما تلك المشكلة المعقدة التي تتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي .

لا شك أن نقلي من لندن إلى لشبونة كانت «ضربة معلم» . ان حساباتها جيدة وتوحي بأن كل ما كان يهدف اليه السادات من وراء هذا النقل سوف يتحقق . ولكن تقدرون فتضحك الأقدار . لقد استقبلت الضربة وحاولت أن أستفيد منها . فحققت خلال السنوات الثلاث التي قضيتها في البرتغال ما لم أكن أنا نفسي أحلم بتحقيقه . حقا إنه القدر الذي يتدخل لاختيار مسارنا . وأنه بالعزيمة والإصرار يستطيع الفرد أن يتغلب على أي مشكلة مهما كانت عويصة . لو أن الخيار كان بيدي لاخترت البقاء في لندن بدلا من لشبونة . ولكن وما دام الأمر قد فرض علي فيجب أن أتأقلم مع هذه الظروف الجديدة وأن أستفيد منها . لقد استفدت من خدمتي في البرتغال في تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية . لقد درست التجربة البرتغالية . وكيف كانت البرتغال تتحول يوما بعد يوم من النظام الديكتاتوري إلى النظام الديموقراطي . لقد كتبت أثناء تلك الفترة مذكراتي عن حرب أكتوبر . لقد كتبت أيضا القرآن الكريم بالحروف البرتغالية بعد أن أدخلت عليها حروفا جديدة .

افتتاح سفارة مصر في لشبونة :

لقد كان لمصر سفارة في البرتغال ولكن هذه السفارة أغلقت عام 1963 احتجاجا على سياسة البرتغال الاستعمارية في أفريقيا . كان سالازار Salazar الذي يجلس على قمة هذا النظام في لشبونة يعتبر أن المستعمرات البرتغالية في أفريقيا (أنجولا Angola . موزمبيق Mozambique . غينيا بيساو Guinée-Bissau . الرأس الأخضر Cabo Verde . سان تومي Saint Tomé E Principe) جزءا لا يتجزأ من الأراضي البرتغالية .

وكان يرفض رفضا باتا أن يعترف بحق هذه البلاد في الاستقلال ولو بعد مدة طويلة . وفي الوقت الذي تراجعت فيه بريطانيا وفرنسا أمام المد الثوري الذي بدأ يجتاح القارة الأفريقية بعد نجاح الثورة المصرية بقيادة جمال عبد الناصر . فإن البرتغال تمسكت بالمستعمرات التي كانت تحتلها وأخذت تدفع جيوشها بغرض السيطرة الكاملة عليها . ولكي تضرب جميع العناصر الثورية التي كانت تقاوم هذا الاحتلال . ولم يكن أمام مصر جمال عبد الناصر التي كانت تؤيد هذه الحركات الثورية وتمدها بالمال والسلاح والخبرة . إلا أن تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع هذا النظام البرتغالي الاستعماري الذي كان يقوده سالازار . وتم ذلك فعلا في عام 1963 .

وبنجاح ثورة القوات المسلحة في البرتغال في 25 أبريل 1974 وسقوط حكم كايتانو Caetano الذي كان استمرارا لحكم سالازار . تغيرت الأوضاع وأعلنت الحكومة الثورية الجديدة استعدادها لمنح الاستقلال لتلك البلاد الأفريقية التي كانت تعتبرها الحكومات السابقة ممتلكات برتغالية . وفي خلال عام 1975 حصلت كل من موزمبيق . غينيا بيساو . الرأس الأخضر . سان تومي برنسيب على استقلالها . بينما كان القتال لا يزال دائرا في أنجولا بين الثوار وبين العناصر الرجعية التي كانت تؤيدها الامبريالية العالمية وبعض العناصر الرجعية في البرتغال . ووسط هذه الظروف قررت مصر إعادة علاقاتها الدبلوماسية مع البرتغال . وأن يكون الفريق سعد الدين الشاذلي هو أول سفير لها هناك بعد فترة انقطاع بلغت 12 سنة .

في يوم السبت 31 مايو 75 سافرت من لندن إلى لشبونة في رحلة استطلاعية غير رسمية تهدف إلى بحث الموقف على الطبيعة . واتخاذ الاجراءات اللازمة لانتخاب المكان المناسب للسفارة وتأثيثه وتجهيزه قبل وصولي بصفة رسمية إلى البرتغال . وفي خلال تلك الرحلة قمت بتأجير شقة من 6 غرف لتكون مقرا لمكاتب السفارة . وعاينت منزل السفير الذي كان ملكا للدولة . كانت وزارة الخارجية المصرية تحتفظ بالمنزل طوال هذه المدة ولكنه كان قد أصبح في حالة يرثى لها سواء من ناحية المباني ومن ناحية الأثاثات التي أتلفتها مياه الأمطار التي كانت تتسرب من السقوف ومن مواسير المياه التي أكلها الصدأ . وقد قمت بتقدير الحد الأدنى من متطلبات الإصلاح بالنسبة للمباني والأثاثات ووضعت برنامجا زمنيا يعتمد على إتمام هذه الإصلاحات في خلال ثلاثة أشهر . وبعد أسبوع قضيته في لشبونة . عدت إلى لندن وأنا آمل أن تصبح السفارة ودار السكن جاهزتان للعمل والسكن قبل حضوري إلى البرتغال في أوائل سبتمبر .

في يوم السبت 6 سبتمبر 75 غادرت لندن إلى ميناء ساوثهامبتون **South hampton** حيث كانت ترسو الباخرة التي ستبحر بي إلى لشبونة . وفي الساعة 16.00 أبحرت بنا الباخرة .

وبعد ساعات قليلة كنا قد خرجنا من المياه الأقليمية البريطانية وانتهت بذلك خدمتي الرسمية في بريطانيا بعد أن قضيت في بريطانيا أقصر فترة قضاها سفير مصري في لندن . وذلك لأسباب سياسية وبسبب معارضتي المستمرة لسياسة السادات ونظامه . وفي 8 سبتمبر وصلت إلى ميناء لشبونة وكان في استقبالي أعضاء السفارة وكانوا جميعا أربعة إثنان من السلك الديبلوماسي وإثنان من السلك الإداري .

وبعد وصولي إلى لشبونة اكتشفت أن كلا من السفارة ودار السكن لم يكن قد تم الانتهاء من إعدادهما وتجهيزهما . وقد أخطرني المختصون بأن من حقي طبقا للائحة وزارة الخارجية أن أنزل أنا وزوجتي في فندق من الدرجة الممتازة على حساب الدولة وذلك إلى أن يتم تجهيز دار السكن وجعله صالح للسكنى . ولكني رفضت أن أستغل هذا الحق لكي أوفر أموال الدولة .

كانت إقامتي في الفنادق على حساب الدولة تعني أن تتحمل الدولة حوالي 3000 دولار شهريا ولكنه كان يعني الراحة والرفاهية لي . ولكني اخترت أن أعيش في منزل الدولة لكي أوفر هذا المبلغ ولكن على حساب راحتي . كان المنزل يعج بالعمال من سباكين ونجارين ونقاشين . كنا نعيش داخل المنزل ننتقل من غرفة إلى أخرى لكي نفسح للعمال المكان الذي يريدون أن يعملوا فيه . واستمر الحال على هذا الحال لمدة أربعة شهور .

الفصل السابع

النشاط السياسي والديبلوماسى

مرحلة التأقلم والإعداد :

قدمت أوراق اعتمادي إلى الجنرال كوستا جوميش Gen COSTA GOMES يوم 12 سبتمبر أي بعد أربعة أيام فقط من وصولي إلى لشبونة . ولكني مع ذلك لم ابدأ نشاطي السياسي المكثف إلا في أول يناير 76 .

كانت المشاكل الإدارية التي تتعلق بإصلاح وتجهيز السفارة ودار السكن واختيار وتعيين عدد من الموظفين البرتغاليين للقيام بأعمال الترجمة والسكرتارية والخدمة الخ . تستحوذ على كل مجهودنا خلال الأربعة شهور الأولى من وصولي إلى لشبونة . وكان حاجز اللغة يقف حائلا بيننا وبين الاتصال بالجمهور لحل هذه المشاكل . لقد كانت البرتغال ابان حكم سالازار وكايتانو من بعده تعيش في شبه عزلة عن العالم الخارجي . لقد أدخل سالازار في عقول البرتغاليين أنهم امبراطورية عظيمة وأنهم ليسوا في حاجة إلى العالم . ولكن العالم هو الذي في حاجة اليهم . وبالتالي فإن العالم هو الذي يجب عليه أن يتعلم لغتهم . وفيما عدا اللغة الفرنسية التي كان يلم بها افراد الطبقة الأرستقراطية والقليل من المثقفين البرتغاليين . فإن اللغات الأخرى كانت تكاد تكون غير معروفة في البرتغال . لقد كانت الحياة اليومية للأجنبي الذي لا يعرف ولو قليلا من اللغة البرتغالية ، مشكلة كبيرة . إنه سوف يقابل هذه المشكلة إذا دق جرس التليفون . وإذا ركب تاكسي لكي ينتقل من مكان إلى مكان . وإذا دخل مطعم ليأكل . وإذا دخل دكانا لكي يشتري منه شيئا الخ .

كان علينا أن نتأقلم مع هذه الأوضاع وبسرعة . كنت قد بدأت أتعلم اللغة البرتغالية وانا في لندن بعد أن صدر قرار نقلي إلى البرتغال بطريقة لينجوافون Linguaphone وهي

وسيلة حديثة يتعلم بواسطتها الفرد لغة أجنبية بواسطة مجموعة من التسجيلات (Casettes) والكتب دون الحاجة إلى معلم خاص ، ولكني لم أكن أخصص الوقت الكافي لهذه الدراسة . لقد كان هدفي عندما قررت أن أتعلم اللغة البرتغالية ، هو أن تساعدني هذه اللغة في عملي ، أما وبعد حضوري إلى البرتغال فقد اكتشفت أن تعلمي لهذه اللغة هي ضرورة من ضرورات الحياة في البرتغال . ومن هنا زاد اهتمامي وتركيزي على تعلم هذه اللغة .

وبانتهاء عام 75 انتهت مرحلة التأقلم والإعداد وبدأت مرحلة العمل الجاد . وإني أود أن أوضح هنا بأن مرحلة التأقلم والإعداد لم تكن خالية تماما من أي نشاط سياسي أو ديبلوماسي ، وإنما أريد أن أقول أن النشاط السياسي والديبلوماسي خلال تلك المرحلة كان محدودا وفي أضيق نطاق .

النشـاط السيـاسـي :

تبلغ مساحة البرتغال (بما في ذلك جزر ماديرا Madeira والأزورش Açores) 88941 كيلو متر مربع ويسكنها 8 مليون نسمة . وحتى قيام الثورة في 25 أبريل 1974 ، كانت البرتغال تستعمر في أفريقيا وآسيا أقاليم تبلغ مساحتها أكثر 23 مرة من مساحة البرتغال الأم ، وكان يسكنها حوالي 16 مليون نسمة . وقد كان قرار قادة الثورة البرتغالية تصفية الاستعمار البرتغالي الذي امتد أكثر من 400 سنة بداية عهد جديد . وكان له تأثيرا حاسما على توجيه مسار السياسة في تلك البلاد . لقد كانت البرتغال تعيش على ثروات وخيرات المستعمرات التي كانت تحصل عليها بثمن بخس ثم تبيعها في الأسواق العالمية بأثمان مرتفعة . لقد كان سالازار يجند عشرات الألوف من رجال المستعمرات للعمل في مناجم الذهب في جنوب أفريقيا ، حيث يقومون بأعمال السخرة مقابل ملاليم يقبضها الفرد ، وجنيهات ذهبية تقبضها حكومة البرتغال نظير قيامها بعملية «مورد انفار» . لقد كان هناك حوالي 2 مليون برتغالي يعيشون في المهجر في دول أوروبا الغربية . وكانت هذه القوة العاملة تضيف إلى الاقتصاد البرتغالي حوالي 2000 مليون دولار سنويا .

وباستقلال المستعمرات ظهر في البرتغال تياران فكريان . كان التيار الأول يدعو إلى زيادة الاندماج في أوروبا الغربية . وكان أصحاب هذا الرأي يرون أن انضمام البرتغال إلى السوق الأوروبية المشتركة سوف يفتح المجال أمام العمال البرتغاليين لكي يغزوا أسواق العمل في البلاد الأوروبية . وسوف يشجع الشركات الدولية المتعددة الجنسيات لكي تقيم المصانع في البرتغال ، لكي تستفيد من الأجور الرخيصة التي تصرف للعمال البرتغاليين ، والتي كانت تقل كثيرا عما كان يدفع لنظائرهم في الدول الأوروبية . كانوا يقولون أيضا ان البرتغال

بلد سياحي وأن دخلها من السياحة يمثل جزءا هاما من الدخل القومي وأن السياح من دول أوروبا الغربية يمثلون الغالبية العظمى من السياح . ولذلك فإنهم كانوا يرون أن زيادة الارتباط بأوروبا سوف يضمن لهم استمرارية وازدهار السياحة في البلاد . وكانوا يضيفون إلى ذلك قولهم بأن البرتغال هي جزء لا يتجزأ من أوروبا ، وأنها تنتمي إلى أوروبا الغربية جغرافيا وتاريخيا وحضاريا ، وأن أمنها ومستقبلها يرتبط بمستقبل وأمن أوروبا الغربية سواء شاءت أم لم تشأ في ذلك .

أما أصحاب الرأي الآخر فإنهم كانوا ينادون بحياد البرتغال بين المعسكر الغربي والمعسكر الشرقي . وأنه يجب على البرتغال أن تنسحب من حلف الأطلنطي وأن ترتبط بدول المعسكرين بعلاقات متوازنة . وكان أصحاب هذا الرأي يرون أن مثل هذا الموقف سوف يضمن لها الأمن والسلامة إذا ما قام الصراع بين العمالقة . كما أنه سوف يمكن الدولة من إجراء تخفيض كبير في ميزانية الدفاع التي تفرضه عليها ظروف انتمائها إلى حلف الأطلنطي . وبالتالي بأنه يمكن توفير المال اللازم لدفع عجلة الاقتصاد وتحسين الظروف المعيشية للأفراد . وكانوا يردون على أصحاب الرأي الآخر بأن انتماء سويسرا والنمسا والسويد إلى أوروبا الغربية من حيث نظام الحكم لم يمنع هذه الدول من أن تتخذ موقفا محايدا بين المعسكرين . وأن موقفهم الحيادي لن يؤثر على حركة السياحة أو التطور الاقتصادي في تلك البلاد ، ان لم يكن العكس هو الصحيح .

وكان من البديهي أن تقوم أمريكا ودول أوروبا بتأييد وتشجيع من ينادون بالرأي الأول ، بينما كان الاتحاد السوفيتي يقوم بتشجيع من ينادون بالرأي الثاني . واشتد التنافس بين المعسكرين وأخذ أشكالا متعددة ، منها عقد الصفقات التجارية ، وتقديم القروض ، والزيارات المتعددة بين القادة السياسيين والحزبيين في كل من البرتغال ودول المعسكرين المتنافسين الخ . وبينما كان هذا الصراع يدور بين المعسكرين ، كنا نحن العرب نقف موقف المتفرج وكأن الأمر لا يعنينا . وان دل هذا على شيء فإنما يدل على انعدام وجود استراتيجية عربية موحدة تجاه القضايا العالمية الكبيرة . كانت الدراسة المخلصة وغير المنحازة توحي بأن مصلحة العرب أن تسلك البرتغال طريق الحياد ، حتى لا يزداد عدد الدول الغربية التي تؤيد إسرائيل عسكريا وسياسيا واقتصاديا دولة جديدة . ولكن وقوف الحزب الشيوعي البرتغالي وراء هذا الاتجاه وتأييد الاتحاد السوفيتي لهذا الحل كان يثير شكوك بعض الدول العربية ، ولاسيما الدول العربية الغنية التي تستطيع التأثير عن طريق تقديم القروض واستثمار الأموال العربية في تلك البلاد .

كانت علاقة مصر مع الأشقاء العرب لاتزال جيدة . ومن هنا كانت السياسة الخارجية

المصرية تجاه البرتغال تتفق مع السياسة الخارجية للدول العربية الأخرى . وكان محور هذه السياسة هو استقطاب البرتغال إلى المعسكر الذي يؤيد الحق العربي في مشكلة الصراع العربي الإسرائيلي . ولكن العرب لم يدركوا أن استجابة البرتغال للمطلب العربي يعني بطريقة أتوماتيكية خروج البرتغال من المعسكر الغربي بكل ما يترتب على ذلك من نتائج سياسية واقتصادية وأمنية . إننا نعيش في عالم من التكتلات والمصالح . ان السياسة الخارجية لأي دولة ديموقراطية تعتمد أولا وأخيرا على ما يمكن أن تحققه هذه السياسة من مصالح للدولة . ولقد تعددت مصالح الدول وتشابكت حتى أصبح تحقيق مصلحة ما ، يمكن أن يتعارض مع تحقيق مصلحة أخرى . وهنا يجب على كل دولة أن توازن بين ما يمكن أن تجنيه من مصلحة وما يمكن أن تخسره في اتجاه آخر إذا ما هي اتخذت قرارا معينا . وعلى ضوء هذه الموازنات تتخذ الدول قراراتها بحيث تكون مكاسبها في النهاية أكثر من خسائرها . لقد كان السؤال الأول الذي يواجه البرتغال هوهل تنضم إلى المعسكر الغربي أم تبقى على الحياد بين المعسكرين . وللإجابة على هذا السؤال كان عليها أن تبحث الأرباح والخسائر التي يمكن أن تصيبها إذا هي سلكت أي الطريقين . واختارت البرتغال أن تنضم إلى المعسكر الغربي . لأن الدول العربية لم تبذل أي مجهود عملي لاستقطابها وإبعادها عن هذا المعسكر .

كان تحركي السياسي إذن كسفير لبلادي في البرتغال ، يعتمد على الصداقات الشخصية بدلا من أن يعتمد على تبادل المصالح بين الدول . وانطلاقا من هذا المفهوم ، وتحت هذه الظروف ، قمت بإجراء اتصالات مكثفة مع كافة الاتجاهات السياسية في البرتغال . وقد بدأت بزيارة أعضاء مجلس قيادة الثورة ، ثم أعقبت ذلك بزيارة الوزراء ورؤساء الأحزاب السياسة ، كما أقمت علاقات جيدة مع رؤساء تحرير الصحف ورجال الإعلام . وفي خلال تلك اللقاءات كنا نتناقش حول المشاكل المحلية والعالمية وموقف كل منا تجاهها ، حتى أصبح كل منا أكثر تفهما وإلماما بأفكار الطرف الآخر .

منذ قيام الثورة في أبريل 74 وحتى تاريخ تشكيل أول حكومة دستورية في البرتغال في يوليو 76 ، كانت السلطة السياسية في البلاد في أيدي مجلس قيادة الثورة . وكان الميجور ميلو انتونش Melo Antunis يشغل منصب وزير الخارجية . وكان ميلو انتونش من دعاة الرأي الذي ينادي بحياد البرتغال بين المعسكرين . وفي خلال تلك الفترة كان تصويت البرتغال في الأمم المتحدة دائما في صالح العرب ومؤيدا للحق العربي ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه جميع الدول الغربية تقف إلى جانب إسرائيل . وكانت فرنسا هي الوحيدة التي تمتنع أحيانا عن التصويت [9] . وفي مقابلة بيني وبين الدكتور سا كازنايرو Sà Carneiro [10] زعيم الحزب الاشتراكي الديموقراطي P.S.D. خلال شهر ديسمبر

75 ، وكان من أشد الناس انتقادا لسياسة وزير الخارجية حول القضية الفلسطينية أثرت معه هذا الموضوع فقال لي «إنكم معشر العرب تعتبرون فرنسا أعز صديق لكم في الغرب . ومع ذلك فإن فرنسا امتنعت عن التصويت . لماذا تطلبون أن تتجاوز صداقتنا معكم تلك الصداقة العربية الفرنسية» ؟

وبانتقال السلطة إلى أول حكومة دستورية في يوليو 76 ، أصبحت السياسة الخارجية في البرتغال تخضع لسياسة وبرنامج الحزب الذي يشكل الحكومة ، وتتأثر إلى حد كبير بمدى تأييد أو معارضة الأحزاب الأخرى لهذه السياسة . لقد كان البرلمان البرتغالي يتكون من 265 عضوا وكان توزيعهم كما يلي : 108 الحزب الاشتراكي .P.S ، 73 الحزب الاشتراكي الديموقراطي.P.S.D، 43 الحزب الديموقراطي الاجتماعي.C.D.S، 40 الحزب الشيوعي PCP ، 1 حزب الاتحاد الديموقراطي الشعبي UDP) . وفيما عدا الحزب الشيوعي ، وحزب الاتحاد الديموقراطي الشعبي ، فقد كانت جميع الأحزاب الأخرى تؤيد زيادة الاندماج والارتباط مع أوروبا الغربية سياسيا واقتصاديا وتنص على ذلك بصراحة في برامجهم الحزبية . وكما سبق أن شرحت ، فإن انضمام البرتغال إلى المعسكر الغربي يعني بطريقة أو توماتيكية أن سياستها الخارجية لا يمكن أن تتعارض مع الخط السياسي الذي ينهجه هذا المعسكر .

وإني لأعجب كل العجب من الضجة التي أثارتها الدول العربية عندما قررت البرتغال أن تتبادل التمثيل الديبلوماسي مع إسرائيل في يونيو 1977 . لماذا هذه الضجة ضد البرتغال دون غيرها من دول أوروبا الغربية ؟ لماذا لا نساوي في المعاملة بين دول المعسكر الواحد . ان أي مراجعة للتصويت الذي يجري في الأمم المتحدة ، سوف يبين لنا بوضوح من هم معنا ومن هم ضدنا . وسوف يبين لنا أيضا أن التصويت يتم على شكل تكتلات . وأن دول المعسكر الغربي تقف دائما في جانب واحد ، وأن دول المعسكر الشرقي هي الأخرى تقف دائما في جانب . واحد . هل كانت الدول العربية تتوقع أن تنضم البرتغال إلى المعسكر الغربي ومع ذلك تنتهج سياسة خارجية متعارضة مع سياسة هذا المعسكر ؟ لو تصور أحد ذلك لكان ذلك خطأ كبيرا . لقد تحدد مسار السياسة الخارجية في البرتغال اعتبارا من تاريخ إعلان الانتخابات البرتغالية التي جرت في 25 أبريل 76 ، والتي على إثرها تشكلت أول حكومة دستورية في البلاد بعد ذلك بثلاثة أشهر [11] . وإذا كانت الحكومة قد استقبلت أول سفير لإسرائيل في 17 يونيو 77 ، فإن الشعب البرتغالي كان قد وافق على هذا الاتجاه قبل ذلك بأكثر من عام .

وبالرغم من أن البرتغال لم تكن لها علاقات ديبلوماسية مع إسرائيل ابان حكم سالازار وكايتانو ، إلا أنها سمحت لأمريكا باستخدام جزر الأزورش كمحطات تموين للطائرات الأمريكية إلى إسرائيل ابان حرب أكتوبر 73 . وهذا يدل على أن السياسة الخارجية في الدول الأوتوقراطية تعتمد على الانتهازية والمزاج الشخصي للحاكم ، ولا تخضع لاتجاهات الرأي العام الداخلي .

وبينما كانت عملية التحول الديموقراطي تجري في البرتغال ، كنت أحاول أن أخلق علاقات جديدة بين مصر والبرتغال . وقد نجحت في ترتيب زيارة للدكتور ماريو سوارش رئيس الحزب الاشتراكي إلى مصر بدعوة من الاتحاد الاشتراكي العربي وتمت هذه الزيارة في الفترة من 17 وحتى 20 يونيو 1976 ، وكانت أول زيارة يقوم بها سوارش خارج البلاد بعد فوزه في الانتخابات البرتغالية . وفي نفس العام حضر الدكتور بطرس غالي والأستاذ علي منصور المؤتمر السنوي للحزب الاشتراكي البرتغالي والذي عقد في لشبونة ما بين 29 أكتوبر وحتى 1 نوفبر ، وذلك كمندوبين عن الاتحاد الاشتراكي العربي .

وللتخفيف من وقع قرار الحكومة البرتغالية بتبادل التمثيل السياسي مع إسرائيل ، فقد طلبت من الحكومة البرتغالية وأجهزة الحزب الحاكم أن يوافقوا على افتتاح مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية في لشبونة . وبعد عدة لقاءات وافقت الحكومة البرتغالية على ذلك . وقد قمت بإخطار وزارة الخارجية بذلك في شهر يوليو 77 ولكني تلقيت خطابا من وزارة الخارجية المصرية بتاريخ 3 سبتمبر يفيدني بصرف النظر عن هذا الموضوع .

وردا على دعوة الدكتور سوارش للقاهرة قام الحزب الاشتراكي البرتغالي بتوجيه دعوة إلى الدكتور مصطفى خليل بصفته الأمين العام للاتحاد الاشتراكي العربي لزيارة البرتغال . فأجل الميعاد المتفق عليه مرتين . ثم عاد فألغى حضوره نهائيا والذي كان مقررا له أن يكون في 5 مارس 78 .

وبينما كنت أنا منهمكا في محاولة تحسين العلاقات بين مصر والبرتغال ، كان السادات من ناحيته يحاول نسف هذه الجهود أولا بأول . ففي أكثر من ثلاثة مرات خلال الأعوام 76 ـ 78 ، كان السادات يهاجم البرتغال في خطبه العامة ويتهمها بالفوضى . وأن الديموقراطية التي أقامها الشعب البرتغالي على أنقاض حكم سالازار ما هي إلا ديموقراطية زائفة . وأن الفوضى وعدم استتباب الأمن يسود البرتغال الخ . وأن المرء ليتساءل بعجب شديد عن الأسباب التي دفعت السادات لاتخاذ مثل هذا الموقف ، الذي يتنافى مع العرف الديبلوماسي ، والسلوك الأخلاقي الذي يحكم العلاقات بين الدول . ان الدول الديمقوقراطية تتقبل النقد الذي يوجه اليها في صحيفة أجنبية ، أو ذلك الذي يصدر من شخص لا يتحمل مسؤولية

الحكم ، وذلك اعترافا منها بحرية النقد وحرية التعبير في الداخل والخارج . أما إذا صدر هذا النقد من رئيس دولة أجنبية أو من أحد وزرائها في أمر يتعلق بشؤونها الداخلية ، فإن ذلك يعتبر تدخلا في سيادة الدولة ويحق لها أن تحتج لدى تلك الدولة بشتى الوسائل الممكنة ، وإلى حد قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين . هل كان السادات يحقد على البرتغال لأنها نجحت في التحول من النظام الديكتاتوري إلى النظام الديموقراطي خلال سنتين فقط ؟ هل كان السادات يريد أن يحرج سفيره ، وأن يدفع حكومة البرتغال لكي تستدعيه وتقدم له احتجاجا شديد اللهجة ؟ هل كان السادات يريد أن يكتسب ثقة العناصر الرجعية في البرتغال والنظم الرجعية في جميع أنحاء العالم ؟

ان اتهامات السادات للبرتغال هي اتهامات ظالمة . كم أتمنى أن أرى في مصر نظاما ديموقراطيا كذلك الذي أقيم في البرتغال . كم أتمنى أن يتم التحول إلى الديموقراطية في مصر بنفس اليسر وبنفس السرعة التي تم فيها في البرتغال . ان الديكتاتور هو وحده الذي يعتبر حرية التعبير نوعا من الفوضى . وهو وحده الذي يتصور أنه مبعوث العناية الالهية . وأنه لا يخطيء . وأنه لا يجوز لأحد أن يوجه النقد اليه . لقد كنت أتوقع بعد كل خطاب يلقيه السادات ويهاجم فيه هذا النظام الديموقراطي في البرتغال ، أن استدعى إلى وزارة الخارجية البرتغالية ، وأن يوجه إلي انتقادا واحتجاجا شديد اللهجة على ما قاله السادات . ولكن شيئا من هذا لم يحدث . لقد كانت علاقتي مع الحكومة البرتغالية على أحسن ما يكون . كانوا يعلمون بموقفي وأفكاري ، ولم يشأ أي منهم أن يسبب لي أي إحراج . لقد كان هذا الموقف الكريم من الحكومة البرتغالية هو ثمرة الصداقة التي كانت تربط بيني وبين جميع المسؤولين فيها فشكرا لهم .

السلك الديبلوماسي والقنصلي :

عندما وصلت إلى لشبونة في سبتمبر 75 لم يكن عدد البعثات الديبلوماسية المقيمة في البرتغال يتجاوز أربعين بعثة . وهذا يبين لنا ضآلة النشاط الديبلوماسي في البرتغال إذا ما قورن ببريطانيا التي كانت تستضيف أكثر من 120 بعثة ديبلوماسية مقيمة . وحتى قيام الثورة في 25 أبريل 74 لم يكن في لشبونة سوى ما يزيد قليلا عن عشرين سفارة . ونتيجة للانفتاح على العالم الخارجي بعد الثورة ازداد النشاط الديبلوماسي في لشبونة بعض الشيء . ولكنه مع ذلك بقي ضعيفا إذا ما قورن بالنسبة للعواصم الأوروبية الأخرى .

وبينما كانت البعثة المصرية في لندن تشغل خمسة مبان مستقلة ويعمل فيها 58 ديبلوماسيا ، كانت بعثتنا في لشبونة تتكون من خمسة أفراد ، وكانت تشغل شقة واحدة ضمن عمارة سكنية . ومع ذلك فإن حاجة العمل في البرتغال لم تكن تستدعي أكثر من هذا العدد المتواضع .

فقد كان العمل الديبلوماسي محدودا . وكانت العلاقات التجارية والثقافية بين البلدين معدومة . وكانت الجالية المصرية في البرتغال هي شخص واحد متزوج من برتغالية .

قامت السفارة بإجراء بعض المبادرات في مجالات السياحة والتجارة . وفي صيف عام 76 سافر أول فوج سياحي من البرتغال إلى مصر ثم تتابعت الأفواج بعد ذلك . أما في مجال الصناعة والتجارة ، فلم يكن هناك ما يمكن أن تقدمه البرتغال إلى مصر ، سوى ما يتعلق بإصلاح السفن وتصنيع بعض قطع الغيار للأسلحة والمعدات السوفيتية . وقد سافرت عدة وفود من البرتغال إلى مصر لبحث هذه المواضيع ولكن هذه الاتصالات لم تسفر عن شيء . وفي مجال العمل القنصلي فلم يكن هناك عمل يذكر بالنسبة إلى مصر اللهم إلا إصدار تأشيرات الدخول لتلك الوفود السياحية والوفود التجارية التي بدأت تسافر إلى مصر اعتبارا من منتصف عام 76 . أما الجزء الأكبر من العمل القنصلي فقد كان يتم لصالح الدول العربية الأخرى ؛ التي ليس لها تمثيل في البرتغال والتي كان يبلغ عددها حوالي 18 دولة عربية (الدول العربية التي كان لها تمثيل مقيم في لشبونة هي مصر والمغرب ، ليبيا) .

وفي مجال المؤتمرات الدولية فقد عقد في لشبونة عام 1977 المؤتمر العالمي لمقاومة العنصرية . وقد انعقد المؤتمر التحضيري في يومي 23 ، 24 أبريل 77 ، أما المؤتمر الأصلي فقد عقد في 16 ـ 18 يونيو . وقد ساهمت السفارة مساهمة فعالة في هذين المؤتمرين وقامت بتجسيد السياسة العنصرية التي تمارسها إسرائيل في الأراضي المحتلة وتلك التي يمارسها نظام جنوب أفريقيا ونظام سالزبوري في روديسيا . وفي 28 مارس وحتى 1 أبريل عام 1978 انعقد في لشبونة المؤتمر البرلماني الدولي وانضم أحد أعضاء السفارة إلى وفد مصر في هذا المؤتمر .

ولكن كل هذه الأعمال لم تكن لتستنفذ إلا جزءا صغيرا من طاقتي . وهكذا كانت الفرصة متاحة أمامي لكي أطلق هذه الطاقة في اتجاهات أخرى . وكان أول خيار أمامي هو خدمة الإسلام والمسلمين في تلك البلاد .

الفصل الثامن

الاسلام والمسلمون في البرتغال

مشاكل المسلمين :

يوجد في البرتغال حوالي 5000 مسلم ومسلمة . وينحدر معظمهم من أصول هندية وباكستانية نزحت إلى أفريقيا واستوطن جزء منهم في المستعمرات البرتغالية السابقة . وعن طريق هؤلاء المسلمين من الهنود والباكستانيين ، انتشر الإسلام بين الكثير من الزنوج من سكان المستعمرات . ومن هذه المستعمرات البرتغالية هاجر بعض المسلمين إلى البرتغال للعمل بها ثم استقروا فيها . كانت غالبيتهم العظمى من الفقراء ومن الطبقات الكادحة ، وكانوا كاليتامى حائرين بين حكومة بلادهم وبين حكومات الدول الإسلامية . فالبرتغال دولة مسيحية كاثوليكية ، ولا يمكن أن تقوم الدولة ببناء المساجد لرعاياها من المسلمين . وهؤلاء الرعايا من المسلمين فقراء لا يملكون من المال ما يسمح لهم ببناء مسجد يتعبدون به ، أو مدرسة يثقفون فيها أولادهم وينشئونهم نشأة إسلامية حتى لا يذوبوا وسط مجتمع غالبيته العظمى من المسيحيين . كانوا يتلمسون العون والمساعدة من سفارات الدول الإسلامية وحكوماتها . فمنهم من كان ينظر إلى طلباتهم نظرة شك وريبة . ومنهم من كان يكتفي بكلمات التشجيع وإعطاء الوعود . وقليل منهم من كان يستجيب فيدفع أقل القليل ، أو يقدم لهم بعض الخدمات البسيطة ، التي لا ترقى إلى مرحلة حل أي مشكلة من المشاكل التي يجابهونها .

بعد وصولي بقليل إلى لشبونة ، زارني الدكتور سليمان والي زعيم المسلمين في البرتغال ، وعرض علي مشاكل المسلمين هناك فحزنت لحالهم وقررت أن أدرس مشكلتهم وأن أهب نفسي لخدمتهم . وبعد الدراسة اتضح لي أن إصلاح حالهم يستلزم إنشاء جامع تلحق به مدرسة ويشرف عليهما إمام ومساعد له ، وذلك للقيام بأعمال الإمامة في الصلاة ، والوعظ

والإرشاد والتثقيف الديني في غير أوقات الصلاة . وقد قدرت تكاليف المشروع المبدئية بحوالي 750000 دولار. كان التقدير على أساس أن يسع الجامع 1000 فرد ، ودار لسكن الإمام وأخرى لمساعد له ، وصالة اجتماعات تسع 500 فرد ، ومدرسة دينية ذات فصلين ، ونادي رياضي واجتماعي . ولكن هذا المشروع الطموح كان مجرد أحلام لا يمكن أن تتحقق قبل مضي أربع أو خمس سنوات في أحسن الظروف . فهل يبقى المسلمون على هذه الحال لمدة خمس سنوات أخرى ؟ وهنا قررت أن نجابه هذه المشاكل بخطتين : الخطة الأولى وهي حل مؤقت يهدف إلى التخفيف من حدة المشاكل القائمة فعلا بشكل واضح وملموس . أما الخطة الثانية فيكون هدفها هو حل جميع المشاكل حلا جذريا .

المسجد المؤقت :

قررت أن أحوّل البدروم في الفيلاّ التي أسكن فيها لتكون جامعا مؤقتا . كانت دار السكن المخصصة لسكن السفير المصري عبارة عن فيلاّ فاخرة تتوسط مساحة واسعة من الأرض تبلغ 4000 متر مربع . وكانت تتكون من طابقين وبدروم فوق مساحة 300 متر مربع . كان الطابق الأرضي عبارة عن صالونات للاستقبال والطابق الأول به غرف النوم وسكن السفير . وقد رأيت أن هذين الطابقين تكفي كل ما يحتاج اليه السفير وقررت أن أحول البدروم إلى مسجد مؤقت .

وفي خلال شهري أكتوبر ونوفمبر تم تجهيز المكان ليكون مسجدا ، وافتتح للصلاة في يوم الجمعة 9 من ذى الحجة عام 1395 هجرية الموافق 12 ديسمبر 1975 م . وفي صلاة عيد الأضحى التي أقيمت صباح اليوم التالي ضاق الجامع بالمصلين إذ حضر الصلاة ما يزيد عن 300 شخص مما اضطرنا إلى استخدام جزء من حديقة المنزل ، وذلك بالرغم من سوء الأحوال الجوية في ذلك اليوم . ولكي أضمن استمرارية استخدام الجامع لأغراض العبادة سواء كنت موجودا في المنزل أو كنت غائبا ، عنه ، فقد قمت بعملية تعديل صغيرة في المبنى بحيث تم عزل المسجد عن دار السكن وأصبح لكل منهما بابا مستقلا عن الآخر. ولم يعد يربط بينهما إلا الباب الرئيسي للحديقة .

وبحلول شهر رمضان 1397 هجرية (16 أغسطس 1977) كان إقبال المسلمين على الصلاة في هذا الجامع قد بلغ ذروته . كان يضيق الجامع مساء كل يوم بمن يحضرون لصلاة التراويح والاستماع إلى الدرس الديني الذي يعقب الصلاة . وفي عيد الفطر المبارك توافد على المسجد ألفاً من المسلمين رجالا ونساء وأطفالا ، ولم يكن المكان ليسمح باستقبال هذا العدد الضخم من الناس فانتقلنا إلى خارج المبنى حيث أقمنا الصلاة في العراء وعلى أرض

حديقة الدار التي تكسوها الحشائش ، وكأنها بساط سندسي أخضر . لقد كان هذا اليوم يوما مشهودا بالنسبة للمسلمين في البرتغال . وسجلت عدسات التليفزيون البرتغالي لأول مرة الشعائر الدينية لهذه الأقلية من المسلمين البرتغاليين .

وبالرغم من صغر حجم هذا الجامع (المساحة المغطاة 175 متر مربع) ، وبالرغم من تواضع الإمكانيات التي كان يتم تسييره بها ، إلا أنه يمكن القول بأن هذا الجامع هو أول مسجد يقيمه المسلمون في لشبونة منذ أن دمرت مساجدهم قبل ذلك بثمانية قرون . وهكذا فإن يوم الجمعة 9 من ذى الحجة 1395 هجرية وهو يوم افتتاح هذا المسجد ، كان يعني أن المسلمين في تلك البلاد قد بدأوا يشعرون بكيانهم ، بعد قرون وأجيال من الضغط والإهمال .

الشؤون الشخصيـة للمسلميـن :

ان الشؤون الشخصية للمسلمين في بلد مسيحي متعددة الجوانب . فهم لا يحتاجون فقط إلى من يؤمهم في الصلاة ومن يقدم لهم النصح والمشورة . بل أنهم يحتاجون أيضا إلى من يعقد القران ويوثق الطلاق ويشرف على دفن الموتى الخ . واتصلت بمصر وطلبت من الأزهر الشريف أن يرسل أحد علمائه الشبان على سبيل الإعارة ، على أساس أن يقوم المركز الإسلامي في البرتغال بدفع ماهية هذا الإمام في حدود 200 جنيه استرليني شهريا . واستجاب الأزهر الشريف لهذا الطلب وأرسل الينا الشيخ فوزي عبد العزيز الذي وصل إلى لشبونة في منتصف شهر يناير 1977 .

وهنا يجدر الإشارة إلى أنه عندما كتبت خطابي في أوائل عام 76 إلى الأزهر الشريف ، وطلبت فيه إعارة أحد علمائه إلى المركز الإسلامي في البرتغال وأن المركز سيتحمل دفع ماهيته ، لم يكن هناك مركز إسلامي إلا في خيالي وقناعتي وتصميمي على ذلك . ولم يكن لدينا أي رصيد للإنفاق منه على هذا المركز . ولكني قدرت أنه في الوقت الذي يصل فيه الإمام أكون قد نجحت في تدبير بعض الأموال من الدول الإسلامية ومن الجامعة العربية .

في خلال عام 76 لم يكن لدينا أي أموال للصرف منها على شؤون المسلمين ولم نكن في حاجة إلى هذه الأموال . فالجامع هو جزء من دار السكن ولا يكلفنا أي شيء ، والأعمال والخدمات الأخرى كانت تتم بأسلوب تطوعي . ولكن بوصول إمام للجامع فقد تغير الموقف تماما . وبنهاية عام 76 كنت قد حصلت من الجامعة العربية على 10000 دولار . وبعد وصول الشيخ فوزي عبد العزيز إلى لشبونة في منتصف يناير 77 وجدت أن الوقت قد حان لكي نتخذ أول خطوة عملية لإنشاء المركز الإسلامي . وفي يوم 19 يناير 77 دعوت إلى منزلي سفراء الدول الإسلامية التي لها تمثيل في البرتغال وكانت في ذلك الوقت هي تركيا ،

باكستان ، المغرب ، مصر ، ليبيا ، ودعوت معهم الدكتور سليمان والي زعيم المسلمين في البرتغال ، وأعلنا تشكيل المركز الإسلامي واتفقنا على أن نلتقي مرة في كل شهر لكي نبحث سويا مشاكل المسلمين ونتخذ القرارات اللازمة .

ولكي نستفيد من وجود الشيخ فوزي أكبر استفادة ممكنة قررنا أن نفتتح مدرسة لتعلم اللغة العربية . وفي يونيو 77 افتتحنا هذه المدرسة التي كانت عبارة عن شقة صغيرة من غرفتين وصالة . كان الشيخ فوزي يعيش في إحدى الغرف ، بينما جهزت الغرفة الأخرى لتكون فصلا دراسيا يسع عشرين شخصا في المرة الواحدة . وحتى يتمكن كل دارس من أن ينتخب الوقت الذي يتناسب معه ، قمنا بتقسيم الدارسين إلى خمسة مجموعات وتحصل كل مجموعة على أربعة ساعات في الأسبوع . وهذا يعني أن هذه المدرسة ذات الفصل الواحد والمعلم الواحد ، كانت تستطيع أن تعلم اللغة العربية لعدد 100 شخص. وقد تكلف إنشاء هذه المدرسة وتأثيثها حوالي 2500 دولار فقط .

لم يكن لدينا ما ننفق منه خلال عام 77 سوى اعتمادات الجامعة العربية الخاصة بالأعلام ، فمنها كنا ندفع ماهية الشيخ فوزي والتي وصلت إلى 4500 دولار ، ومنها صرفنا على مدرسة تعليم اللغة العربية 2500 دولار . وعندما اقترب عام 77 من نهايته كانت جميع الظواهر تدل على أننا سوف نواجه أزمة مالية خلال عام 78 . فقد كانت اعتمادات الجامعة العربية قد أوشكت على النفاذ ، ولم تكن الدول العربية أو الإسلامية قد تبرعت بشيء . وفي أثناء زيارة لي للقاهرة في شهر ديسمبر 77 طلبت من الأزهر الشريف أن يتحمل ماهية الشيخ فوزي ، حيث أنه في حالة عدم قيام الأزهر بتحمل ماهيته فإننا سنضطر آسفين إلى طلب إلغاء إعارته وذلك لعدم توفر المال اللازم . واستجاب الأزهر الشريف لهذا الرجاء وبدأ يتحمل ماهية الشيخ فوزي اعتبارا من أول يناير 1978 .

وفي أثناء وجودي في القاهرة قابلت أيضا الدكتور محي الدين صابر مدير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وحصلت منه على تصديق بمبلغ 4000 دولار للمركز ، تخصص لتعليم اللغة العربية . وبمروري على وزارة الأوقاف المصرية حصلت منها على مبلغ 2000 جنيه مصري (حوالي 3000 دولار) لصالح المركز أيضا .

وهكذا بالتعاون مع الأزهر الشريف والجامعة العربية ووزارة الأوقاف المصرية تلافينا الأزمة وأصبح لدى المركز الأموال السائلة التي تمكنه من أن يغطي جميع مطالبه ليس خلال 78 فحسب ، بل وخلال المرحلة المؤقتة (إلى أن يتم استكمال بناء المسجد وملحقاته) والتي كان مقدرا لها أن تنتهي في 31 ديسمبر 1980 .

ومن الإنجازات العلية التي قام بها المركز الإسلامي في البرتغال ، بعد إنشائه عام 1977 هو بناء مقبرة للمسلمين . ونتيجة للمساعي التي قام بها لدى الحكومة البرتغالية قامت بلدية لشبونة بتخصيص قطعة من الأرض لهذا الغرض وبذلك تم تحقيق مطلب آخر من مطالب المسلميـــن .

الإمساكيـة الأزليـــة :

ان الرجل المسلم الذي يعيش في بلد إسلامي لا يكاد يحس بأنه في حاجة إلى كتيب أو إمساكية تبين له مواقيت الصلاة . فهو يستطيع أن يجدها دائما في الجرائد اليومية . كما أنه يستطيع أن يستمع إلى صوت المؤذن وهو يؤذن للصلاة من أحد الجوامع القريبة ، أو أن يسمعها من خلال الراديو أو التليفزيون . أما إذا كان هذا المسلم يعيش في بلد مسيحي فإن معرفته لمواقيت الصلاة تعتبر مشكلة كبيرة . فالشمس لا يمكن رؤية شروقها وغروبها في كثير من أيام السنة ولاسيما لمن يسكن داخل المدينة . كما وأن الصحافة أو وسائل الإعلام الأخرى لا تعلن عن توقيتات الصلاة . لقد تعودنا في مصر وفي العالم الإسلامي أن نعمل إمساكية تبين لنا التوقيتات الدينية خلال شهر رمضان كنوع من أنواع الاحتفال بشهر رمضان المبارك . وقد وجدت أن المسلمين في البرتغال في حاجة ماسة إلى هذه الإمساكية . ولكنها يجب أن تغطي جميع أيام السنة الميلادية . ان حركة الشمس لا تتغير على طول السنة الشمسية اعتبارا من أول يناير وحتى 31 ديسمبر وان مواقيت الصلاة في أي يوم من أيام السنة لا تتغير عن مواقيت الصلاة في نفس اليوم من أي سنة شمسية أخرى . فلماذا لا نعمل إمساكية تفي بجميع مطالبنا على طول أيام السنة ؟ . وصممت على أن أقوم بنفسي بعمل هذه الإمساكية .

قمت بزيارة مدير مرصد لشبونة وشرحت له مطالبي . وبالتعاون الوثيق مع المرصد قمنا بتحديد مواقيت الصلاة على طول أيام السنة بالنسبة إلى لشبونة . وتم تحديد فرق التوقيت بين لشبونة وبين المدن الرئيسية الأخرى في البرتغال بما في ذلك جزيرة ماديرة Madeira وجزر الأزورش Açores . وفي أول يوليو 1977 كان قد تم طبع 1000 إمساكية وتم توزيعها بالمجان بمعدل واحدة لكل عائلة مسلمة في البرتغال . وبالإضافة إلى التوقيتات التي سجلت في هذه الإمساكية ، والتي كانت تشمل ستة توقيتات لكل يوم (الفجر ـ الشروق ـ الظهر ـ العصر ـ المغرب ـ العشاء) فقد ذكرنا فيها أيضا التواريخ الشمسية التي تقابل المواسم الدينية الإسلامية في التقويم القمري وحتى عام 1995 ميلادية ، معتمدين في ذلك على الحسابات العلمية الدقيقة التي تحدد دورة السنة الشمسية ودورة السنة القمرية . وعن طريق هذه الإمساكية يمكن معرفة أول السنة الهجرية ، والمولد النبوي الشريف وأول شهر رمضان المبارك وعيد الأضحى المبارك في أي سنة قادمة وحتى عام 1995 . وأن احتمال الخطأ في

هذه الحسابات لا يمكن أن يزيد عن يوم واحد ، ورؤية الهلال هي وحدها القول الفصل إذا ما حدث خلاف بين هذا التقويم والرؤية . وعلى سبيل المثال فقد ذكرنا أن السنة الهجرية 1415 ستكون غرتها بإذن الله في 11 يونيو 1994 ، وسيكون فيها المولد النبي الشريف في 20 أغسطس 94 ، وسيبدأ فيها شهر رمضان في 2 فبراير 95 ، وسيوافق فيها عيد الأضحى المبارك يوم 10 مايو 1995 .

مسجد لشبونة الكبير :

ان بناء مسجد يعتمد على ثلاثة عوامل رئيسية هي الأرض والتكاليف والتمويل . ويتأثر كل عامل من هذه العوامل بالعاملين الآخرين ويؤثر فيهما . فكما زادت مساحة المسجد زادت تكاليف بنائه وزادت الصعوبة في جميع الأموال والتبرعات اللازمة لإتمام المشروع . والمشكلة الرئيسية التي تقابل القائمين ببناء مسجد هي ضرورة اتخاذ القرار الخاص بوضع الأسبقيات بين تلك المواضيع الثلاثة (الأرض ، التكاليف ، التمويل) . فمما لا شك فيه فإنه يمكن بناء مسجد متواضع بمبلغ 100000 دولار في حين أن هناك مساجد أخرى يتكلف الواحد ما بين 20 ـ 50 مليون دولار .

وعندما بدأت أهتم بشؤون المسلمين في البرتغال كان كل ما تملكه الجالية الإسلامية على ذمة بناء الجامع هو 11000 دولار كانت المملكة العربية السعودية قد تبرعت بعشرة آلاف منها ، تبرعت الجالية وأصدقاؤها بحوالي الألف دولار الأخرى . وفي خلال عام 1976 كانت جهود الدكتور سليمان والي زعيم الجالية الإسلامية في البرتغال مشتتة بين بلدية لشبونة وبين الدول الإسلامية بصفة عامة والمملكة السعودية بصفة خاصة . كانت المملكة العربية السعودية عن طريق سفيرها في مدريد تقول له إنهم مستعدون لتحمل تكاليف بناء المسجد ، ولكن عندما يشعرون بأن هناك جدية لبناء هذا المسجد . وأن مظاهر هذه الجدية هي الحصول على الأرض المناسبة لبناء المسجد ، ثم عمل مشروع كامل يشمل الرسم والتكاليف الخ . أما المسؤولون في بلدية لشبونة فكانوا يقولون له «لماذا تطالبون بالأرض وليس لديكم المال اللازم للبناء . إننا لن نتأخر عن الموافقة على تخصيص قطعة الأرض المناسبة عندما يتوفر لديكم المال اللازم لبناء مسجدكم» .

كان في كلام المسؤولين في كل من بلدية لشبونة وفي المملكة العربية السعودية شيء من المنطق . ولعله يذكرنا بالسؤال المحير حول الأسبقيات «أيهما جاء أولا البيضة أم الفرخة» لكننا إذا قبلنا منطق كل منهما على حدة فإن بناء مسجد في لشبونة سيبقى مجرد حلم من الأحلام . لقد كانت معادلة صعبة ولا سبيل إلى حلها ما لم نغير من أسلوبنا في حل هذه المشكلة .

وبعد تفكير وجدت أن أفضل أسلوب لحل هذه المشكلة هو أن نتصور شكل المسجد الذي نحتاج اليه وأن نقوم بإجراء تقدير أولي عن تكاليف بناء هذا المسجد . وعلى ضوء هذه المعلومات الأولية نشرع في البحث عن قطعة الأرض وجمع المال اللازم في وقت واحد . وقد أثبتت الدراسة الأولية أن بناء المسجد سوف يتكلف 1 مليون دولار إذا نحن اشترينا الأرض . أما إذا أمكننا الحصول على الأرض من بلدية لشبونة بدون مقابل ، فإن تكاليف البناء تنخفض إلى حوالي 750000 دولار .

في خلال عام 77 بدأت جهودنا نحو بناء المسجد تتخذ مسارا جديدا . ففي يناير من هذا العام تم تشكيل المركز الإسلامي بالبرتغال . ثم قام المركز بتوجيه خطابات إلى جميع ملوك ورؤساء الدول الإسلامية في العالم ، يخطرهم فيه بقرار المركز الخاص ببناء مسجد في حدود مليون دولار ، ويلتمس من كل منهم أن يتبرع بقدر ما تطيقه بلاده من أموال لبناء هذا المسجد . وفي ديسمبر من نفس العام وصل أول تبرع من دولة الإمارات العربية بمبلغ 100000 دولار .

كان تبرع دولة الإمارات بمثابة دفعة قوية للمشروع . فعلى مستوىبلدية لشبونة استطاعت البلدية أن تقتنع بأننا نسير خطوات جادة نحوتنفيذ المشروع . إذا كانت دولة الإمارات العربية قد تبرعت بمبلغ 100000 فلابد أن المملكة العربية السعودية ستتبرع بأضعاف هذا المبلغ . ولابد أن الدول العربية النفطية ستتبرع هي الأخرى للمشروع بمبالغ تتناسب مع ثرائها وموقفها الاقتصادي . ونتيجة لذلك تبرعت البلدية بقطعة أرض تبلغ مساحتها حوالي 2500 متر مربع في مكان من أروع الأماكن في لشبونة . وفي 17 فبراير تم تسليم قطعة الأرض من البلدية إلى جالية المسلمين وذلك بموجب صك يعطيهم حق الانتفاع بهذه الأرض لمدة 90 عاما .

كان حصولنا على الأرض اللازمة لبناء المسجد بدون مقابل بمثابة دفعة قوية أخرى نحو نجاح المشروع . فمن الناحية الاقتصادية فإنه قد خفض المبلغ المستهدف جمعه إلى حوالي 750000 دولار . ومن الناحية الدعائية والإعلامية للمشروع فإنه كان يؤكد جديته وتقدمه . وفي منتصف شهر يونيو 78 اتصل بي سفير دولة الكويت في مدريد ، وأخبرني بأن الكويت قد تبرعت للمسجد بمبلغ 100000 وأنه سيحضر بنفسه يوم أول يوليو لكي يقوم بتسليم الشيك . كنت وأنا أتحدث اليه أعلم بأنني لن أحضر الاحتفال الخاص باستلام هذا التبرع لأنني كنت قد عقدت العزم على أن أفجر الموقف بيني وبين السادات يوم 19 يونيو وأنني سوف أفقد منصبي نتيجة لذلك وأغادر البرتغال قبل أو يوليو. ولكنني مع ذلك شكرته

ودعوته إلى حفل عشاء أقيمه في منزلي على شرفه يوم 4 يوليو . أما المملكة العربية السعودية فقد أبلغتنا عن طريق سفيرها في مدريد بأنها قد قررت المساهمة بمبلغ 300000 دولار . وبذلك أصبح تحت يدنا أو في الطريق الينا 500000 دولار ، وهي تمثل ثلثي المبلغ المستهدف للمشروع . أي أن مشروع بناء المسجد قد أصبح واقعا وليس حلما من الأحلام .

عندما غادرت البرتغال في 28 يونيو 78 كانت الخطة الموضوعة لبناء المسجد تقضي بأن يوضع حجر الأساس قبل نهايةعام 78 . وأن يتم البناء قبل نهاية عام 80 . ولكن حجر الأساس لم يوضع إلا يوم الجمعة 23 رمضان سنة 1399 هجرية الموافق يوم 17 أغسطس 79 وذلك بتأخير حوالي 8 شهور عن الجدول الزمني الموضوع . وقد علمت مؤخرا (نوفمبر 79) بأن المشروع قد قدرت تكاليفه بمبلغ 4100000 دولار . وأن هذا الارتفاع في تكاليف البناء والتي تبلغ أكثر من خمسة أضعاف تقديراتنا عام 77 لا ترجع إلى خطأ في التقديرات السابقة أو إلى زيادة نسبة التضخم ، وإنما ترجع إلى الرغبة الطموحة في إنشاء مسجد يكون الفن والروعة والضخامة هي الهدف الأول من بنائه .

إنني لا أعارض أن يكون المسجد ضخما وجميلا ورائعا إذا توفر المال لذلك . أما ونحن نحصل على المال بشق الأنفس فإنه يجب علينا أن نجيب على هذا السؤال قبل أن نقدم على بناء المساجد الضخمة . «أيهما أفضل إلى المسلمين المنتشرين في تجمعات صغيرة داخل الدول المسيحية . أن نبني جامعا صغيرا متواضعا لكل تجمع صغير أم أن نبني جامعا واحدا ضخما كي ينبهر السياح بعظمته وجماله ، بينما ملايين المسلمين لا يجدون غرفة متواضعة يمارسون فيها صلاتهم أيام الجمعة وأيام الأعياد ؟؟»

إني أشفق الآن على مشروع بناء مسجد لشبونة . ان الطموح الذي لا تؤيده الإمكانيات والقدرات ، لابد وأن يصطدم بالواقع ولابد أن يتعثر تنفيذه . ان الإمكانيات والقدرات هي التي تحدد الأهداف الممكنة ووقت تنفيذها . أما أن نحدد هدفا خارج طاقاتنا فإن ذلك يعني أن تحقيق هذا الهدف ليس مرهون بإرادتنا ، وإنما هو أمل يجوز أن يتحقق أولا يتحقق ، دون أن يكون لنا السيطرة الكاملة على تحقيقه . ان التبرعات لبناء المسجد خلال الفترة ما بين يوليو 78 ونوفمبر 79 لم تزد عن 10000 دولار تبرعت بها الباكستان أي أن إجمالي التبرعات هو 510000 دولار . كم كنت أود أن يقنع القائمون على هذا المشروع بإقامة جامع متواضع في حدود 750000 دولار ويكون جاهزا في عام 80 ، بدلا من التطلع لإنشاء جامع ضخم تبلغ تكاليفه 4100000 دولار ويعلم الله متى سوف يتم بناء مثل هذا الجامع .

الفصل التاسع

التجربة البرتغالية

وصول سالازار إلى الحكم :

لقد كانت خدمتي في البرتغال ما يقرب من ثلاث سنوات فرصة مثالية لكي أدرس التجربة البرتغالية . كيف وصل سالازار إلى الحكم ، وكيف أنقذ بلاده من التدهور الاقتصادي ؟ كيف تحول إلى دكتاتور تحت شعار المستبد العادل ؟ هل حقا يوجد من هو مستبد وعادل ، أم أن هذا هو مجرد شعار أجوف ؟ كيف استمر نظام الحكم الذي أسسه سالازار في نفس المسيرة بعد وفاة سالازار؟ كيف انهار النظام على أيدي رجال الثورة البرتغاليين بعد 48 سنة من الحكم الديكتاتوري ؟ كيف تحولت البرتغال من نظام الحكم الأوتوقراطي إلى النظام الديموقراطي ؟

في 28 مايو 1926 تحرك الجنرال جومش داكوشتا Général Gomez da Costa من مدينة بورتو Porto على رأس جيش صغير إلى مدينة لشبونة ، حيث أسقط نظام الحكم فيها وأقام نظاما جديدا تحت رئاسته . ولكن سرعان ما دب الخلاف بينه وبين أعوانه ، فعزل من منصبه ونفي إلى جزر الأزورش Açores . وتولى رئاسة الدولة من بعده الجنرال كارمونا Carmona . وقد استدعى الجنرال كارمونا أستاذ الاقتصاد في جامعة كويمبرا Coimbra University وأسند اليه منصب وزير المالية . ولم يكن هذا الأستاذ سوى أنطونيو دي أوليفيرا سالازار Antonio de Oliveira Salazar . كانت خطة سالازار للخروج من الأزمة الاقتصادية تتلخص في فرض قيود شديدة على الإنفاق الحكومي ، وتحقيق الانفراج الاقتصادي بعد فترة طويلة من العمل الشاق . ولكن هذه

الأفكار وهذه الخطة لم ترق في أعين من بيدهم السلطة ، فاضطر سالازار إلى الاستقالة من الوزارة ، والعودة مرة أخرى إلى جامعة كويمبرا .

ولكن استمرار تدهور الموقف الاقتصادي ، اضطر الجنرال كارمونا وزملاؤه إلى استدعاء سالازار مرة أخرى . واعتذروا له على تصرفاتهم السابقة . ووافقوا على جميع الشروط التي فرضها عليهم كأساس لقبوله منصب وزير المالية من جديد . وفي أبريل 28 أصبح سالازار وزيرا للمالية للمرة الثانية . ولكنه في هذه المرة كان ذو قوة ونفوذ كبيرين . لقد كان يسيطر على جميع الوزارات الأخرى عن طريق التحكم في تخصيص الاعتمادات المالية لها ، دون أي رقيب من أي جهة أخرى . فدان له الكل بالولاء أو الخضوع . وإذا كان سالازار لم يصبح رئيسا للوزارة إلا في عام 1932 فإن الكثير من المؤرخين يعتبرون أن حكمه الديكتاتوري قد بدأ عندما قبل الجنرال كارمونا وأصحابه الشروط التي فرضها عليهم سالازار في أبريل 1928 .

وفيما بين 1926 وحتى تاريخ وفاة سالازار في يوليو 70 ، وقع في البرتغال سبعة محاولات انقلاب فاشلة . وقعت على التوالي في 3 فبراير 27 ، 20 يوليو 28 ، 4 أبريل 31 ، 26 أغسطس 31 ، 10 سبتمبر 35 ، 9 سبتمبر 36 ، مايو 45 . ولعل أخطر هذه الانقلابات هو انقلاب مايو 45 حيث أن رئيس الجمهورية كان هو نفسه زعيم هذا الانقلاب الذي كان يريد به أن يطيح برئيس وزارائه ، الذي فرض نفسه عليه وعلى شعب البرتغال . وان فشل انقلاب يقوم به رئيس الدولة وصاحب السلطة الشرعية في اقالة رئيس الوزراء ، يبين لنا كيف كان سالازار يقبض على زمام الأمور في البرتغال بيد حديدية . وفي خلال ال 25 سنة التي أعقبت انقلاب عام 45 الفاشل ، كان سالازار يقوم بمطاردة خصومه وتصفيتهم . لم يسمح قط لأي منهم أن يقوم بتنظيم أي أو معارضة حقيقية ضده . لقد أصيب سالازار بنوبة قلبية شديدة في سبتمبر 68 ورقد طريح الفراش لا يكاد يدري بما يدور حوله . ومع ذلك فلم يجرؤ أحد على إقالته من رئاسة الوزراء . واستمر رئيسا للوزارة وهو على فراش الموت ما يقرب من سنتين بينما كان أحد تلاميذه البرفسور كايتانو Caetano يقود البلاد مكتفيا بلقب نائب رئيس الوزراء .

مات سالازار وهو لا يدري أن النظام الذي أسسه في البرتغال سوف ينهار في عام 74 . وأن الشعب البرتغالي سوف يحاول أن يمحو كل الآثار التي تذكره بهذه الفترة الحالكة من تاريخه . وأن هذا الشعب الذي خضع لجبروته ، سوف يقوم بنسف تماثاله وسحله في الشوارع . ان الغرور واستخدام القوة والقهر قد تمكن الحاكم المستبد من أن يبقى على عرشه إلى أن يسقطه انقلاب عسكري ناجح أو يتوفاه الله . أما أن يتصور هؤلاء أنهم يستطيعون أن يزيفوا التاريخ وأن يسجلوه لصالحهم قبل وفاتهم فإن هذا يدل على قصر النظر والجهل بنفسية

الجماهير . مثلهم كمثل من قال فيهم الله تعالى «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون»[12].

لقد دمر الشعب البرتغالي تمثال سالازار في عام 75 ، وفي فبراير 79 دمر الإيرانيون تمثال الشاه رضا بهلوي ، وفي سبتمبر 79 دمر شعب أفريقيا الوسطى تمثال بوكاسا الذي كان قد نصب نفسه أمبراطورا على قمة جبل من جماجم الفقراء . ومع ذلك فلازال هناك آخرون يسيرون في نفس الطريق الذي سار فيه هؤلاء الطغاة السابقون . «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم» .

سالازار يبقى في السلطة 38 سنة :

ولكن كيف استطاع سالازار أن يبقى في السلطة مدة 38 سنة ؟ وما هي الوسائل والحيل التي لجأ اليها لكي يبقى نفسه في السلطة طوال هذه المدة ؟ . لقد ارتكب سالازار خلال هذه الفترة آلاف الخطايا ولكن هناك ثلاثة كبائر ترتب عليها كل المظالم والخطايا التي ارتكبها النظام طول هذه الفترة . وكانت هذه الكبائر هي :

1 ـ الغاء الأحزاب وتشكيل ما أسماه بالاتحاد القومي National Union الذي كان هو الحزب الرسمي الوحيد في البلاد .

2 ـ أصدر دستورا جديدا للبلاد . وكان هذا الدستور يخدم ويحقق أهدافه الديكتاتورية . وقد عرض هذا الدستور للاستفتاء الشعبي في عام 1933 وكانت نتيجة الاستفتاء الشعبي هي طبعا كما يريد لها سالازار أن تكون .

3 ـ تزوير الانتخابات والاستفتاءات .

لقد كان سالازار يدعي بأن نظامه هو النظام الديموقراطي المثالي . أليس هناك اتحادا قوميا منتخبا ؟ أليس هناك دستورا صادق عليه الشعب بأغلبية ساحقة ؟ أليست السلطات التي يمارسها هي طبقا لما ورد في الدستور؟ أليس هناك مجلس شعب انتخبه الشعب البرتغالي ؟ أليس هذا المجلس المنتخب هو الذي يصدر القوانين ؟ أليس شعاره وشعار الدولة هو سيادة القانون ؟ ماذا يريد هؤلاء السفهاء الذين ينتقدون نظامه ويطالبون بالديموقراطية ؟ ان كل من يعارض هذا النظام ما هو إلا عميل لدولة أجنبية . وجزاء العملاء هو أن يقتلوا أو يسجنوا أو ينفوا في الأرض . هكذا كان يفكر سالازار. وهكذا كان يفكر كايتانو خليفته من بعده .

وبإلغاء تكون الأحزاب حرم سالازار خصومه من تنظيم صفوفهم وبالتالي فإن معارضتهم النظام أصبحت معارضة فردية وغير مؤثرة . وبتزوير الانتخابات أصبح يستطيع أن يتحكم

في انتقاء الأشخاص المنتخبين ، وأصبح أعضاء الاتحاد القومي وأعضاء مجلس الشعب ألعوبة في يده . هو الذي أوصلهم إلى هذه المناصب ، وهو الذي يستطيع أن يحرمهم منها . وبالتالي فإنهم لم يكونوا سوى أداة تبصم على القرارات والقوانين التي يريد سالازار أن يستصدرها . لقد كان نظام سالازار في جوهره نظاما أوتوقراطيا ، ولكنه كان يلبس فوق وجهه قناعا أسماه الديموقراطية . وتصور أنه بهذا القناع يستطيع أن يخدع الناس بحقيقته .

وفي دستور 33 حرص سالازار على أن ينص الدستور على حق الحكومة في إصدار قرارات لها قوة القانون Decree laws ، ذات طبيعة إدارية ولا تخضع لرقابة السلطة القضائية . وعن طريق هذا النص استطاع سالازار أن يصدر قرارات قمعية ، تعطي الحكومة حق فرض الرقابة ، وحقها في اعتقال الأفراد ونفيهم من البلاد .

الـرقـابـــــة :

لم يكن سالازار من السذاجة بحيث يعلن أن الرقابة التي يريد أن يفرضها هي لتثبيت سلطاته ، بل أنه لجأ إلى تخدير الشعب بأقوال معسولة هي أبعد ما تكون عن الحقيقة . وعندما كان سالازار يتقدم بالقانون رقم 22469 في 11 أبريل 33 فإنه قال «ان هذا القانون يهدف إلى عدم تضليل الرأي العام . إنه سوف ينفذ بحيث يحمي الرأي العام من كل العوامل التي قد تؤدي إلى الانحراف عن الحق والعدل والنظام ، والمثل الأساسية في المجتمع» . لقد كان الكلام جميلا ولكنه كان خادعا . فبعد أقل من سبعة شهور منْ اقرار هذا القانون وعلى وجه التحديد في 6 نوفمبر 33 ، أصدر سالازار قانونا جديدا للصحافة ، حدد فيه الجرائم التي يمكن أن تخضع تحت طائلة القانون رقم 22469 وقد جاء فيه ما يلي :

- كل من يدعو إلى ما يمكن اعتباره ماسا بالوحدة الوطنية
- كل من ينتقد النظام القائم أو يدعو إلى إسقاطه
- كل من ينتقد رئيس الجمهورية أو وزرائه
- كل من يثير الشعب أو يشجع الآخرين على التظاهر
- كل من يهدد السلام الاجتماعي
- كل من يدعو إلى الاضراب عن العمل
- كل من يبث الإشاعات التي ترمي إلى إشاعة الفوضى وعدم استتباب الأمن .

والرقابة هي كالغول الذي لا يشبع أبدا ، يبدأ بالقليل ثم يعود فيطلب المزيد إلى أن يلتهم الجميع . ويقول المثل المصري في ذلك «تعطيه صباع يطلب ذراع» وهذا هو ما فعله الغول البرتغالي ومشى على نهجه الكثيرون من بعده . فبعد قانون الصحافة ، أصدر سالازار

قوانين أخرى تتعلق بفرض الرقابة على جميع الاتصالات التليفونية والبرقية واللاسلكية . كما امتدت يد الرقيب إلى جميع الكتب والمطبوعات سواء كانت محلية أو أجنبية . وفي النهاية أصبح الشعب البرتغالي أسير سالازار . فإنه لا يقرأ في الصحف أو في الكتب إلا ما يريده سالازار . كما وأنه لا يسمع في الإذاعة إلا ما يريده له سالازار أن يسمعه . ولا يرى في السينما والتليفزيون من بعد ذلك إلا ما يريد له سالازار أن يراه . وهذا هو قمة الغزو الفكري . وبالرغم من التضليل البشع الذي ارتكبه سالازار في حق شعبه ، فإنه كان يرتكب كل ذلك تحت شعار سيادة القانون .

الاعتقـــال :

أما قوانين الاعتقال التي أصدرها سالازار فقد كانت تعطي الحكومة الحق في اعتقال الأفراد لمدة 180 يوما . وعندما تقدم سالازار بقانون الاعتقال ، فإنه أورى بأن الغرض من هذا القانون هو إعطاء الحكومة الحق في اعتقال الأفراد الخطرين الذين يقومون بأعمال تهدد أمن وسلامة البلاد . ولكن الممارسة أثبتت بأن الحكومة قامت في ظل هذا القانون بالقبض على كل من تشتبه فيه بأنه يعارض سياستها . لقد كانت قوانين الرقابة تعطي الحكومة الحق في القبض على من يعارضها في العلن ، ولكن هذه القوانين لم تكن تعطيها الحق في القبض على من يعارضها وهم في صالونات المنازل أثناء مناقشاتهم الخاصة ، فجاء قانون الاعتقال ليكمل هذا النقص . ان تقريرا واحد من جهاز المخابرات العامة ، الذي قام سالازار بتشكيله بعد انفراده بالسلطة عام 32 وكان يطلق عليه اسم Pide ، كان مبررا كافيا للقبض على أي شخص وإيداعه إلى المعتقل دون أن توجه اليه أي تهمة .

كم من الأحرار دفع بهم سالازار إلى معتقلات الجب Aljube ، كاشياش Caxias ، بنيش Peniche ، أنجرا Angra (في جزر الأزورش) ، طرافال Traffal (في جزر الرأس الأخضر) . كم منهم مات وكم منهم فقد عقله فيها . ورغم أن ثورة أبريل 74 قد حررت جميع المعتقلين ، إلا أن هؤلاء رغم ما يشعرون به من حرية ، فإن مجرد ذكر هذه الأسماء أمامهم ، يثير الرعدة في نفوسهم . إنه يذكرهم بما لاقوه من تعذيب وإهدار للإنسانية في تلك السجون والمعتقلات الرهيبة .

النفـــي :

وقد استحدث سالازار موضوع النفي أو الطرد من البلاد . وقد أصدر القوانين التي تعطي الحكومة الحق في طرد أي مواطن من البلاد ، إذا رؤي أن بقاؤه هو أمر غير مرغوب فيه . وقد كان سالازار يفضل أن ينفي خصومه إلى المستعمرات البرتغالية حيث يمكن إبقاؤهم تحت السيطرة ، بدلا من أن ينفيهم إلى بلد أجنبي يستطيعون منه أن يوجهوا نقدهم إلى نظامه .

التعـــذيــب :

لقد كان التعذيب هو أحد وسائل الحكم في نظام سالازار. وفي حديث مع الصحفي أنطونيو فرو Antonio Ferro ، قال سالازار لكي يبرر عمليات التعذيب التي يمارسها نظامه «انه من الضروري أن نمارس بعض وسائل العنف ضد هؤلاء الإرهابيين الخطرين لإرغامهم على قول الحقيقة» . وان مثل هذا القول الذي يتنافى مع حقوق الإنسان ، وميثاق الأمم المتحدة ، هو دليل على مدى القسوة والعنف التي ارتكبها هذا النظام في حق الشعب البرتغالي وفي حق البشرية جمعاء .

الاغتيـــــال :

وفي ظل هذه القوانين الظالمة قام سالازار بسحق كل صاحب رأي حر . وكان مصيرهم الاغتيال بواسطة ال Pide أو السجن والاعتقال والتشريد . ولم يبق في الساحة إلا المرتزقة من الكتاب والسياسيين والمنافقين ، الذين يطبلون ويزينون له كل أعماله ، ويسبحون بحمد جلادهم في ذلة وخنوع . أما الشرفاء والأحرار فكم من مئات منهم قد تم اغتيالهم بواسطة السلطة . ولعل أكثر حوادث الإغتيال في تاريخ سالازار الأسود شهره وثبوتا هو حادث اغتيال الجنرال أومبرتو دلجادو general Humberto Delgado : ، الـذي رشح نفسه في انتخابات رئاسة الجمهورية التي عقدت عام 1958 .

كان سالازار يقبض على زمام السلطة بيد من حديد ، ولكنه كان مجرد رئيس وزراء . كان هناك رئيس جمهورية ينتخب كل 7 سنوات . وكان في الدستور البرتغالي مادة تعطي لرئيس الجمهورية الحق في إقالة رئيس الوزراء . ولم تكن هذه المادة لتزعج سالازار مادام هـو الـذي يتحكـم في انتخـاب رئيس الجمهـوريـة . وقـد اختـار سالازار الأدميرال أميريكـو تـومـاس Admiral Americo Thomas ليـجـري في انـتـخـابـات عام 58 ، بينما اختار الجنرال دلجادو أن يتحدى سالازار وأن يرشح نفسه للرئاسة . كان دلجادو هو مندوب البرتغال في حلف الناتو Nato ، وقد تأثر نتيجة إقامته بالخارج بالديموقراطية وحرية التعبير التي يمارسها الفرد في دول أوروبا الغربية ، وصمم على أن يكافح من أجل إرساء الديموقراطية في بلاده . .

بالرغم من ديكتاتورية النظام السلازاري ، إلا أن سالازار كان يحرص على إبداء بعض المظاهر الشكلية التي قد توحي للبسطاء بأن هناك قدرا من الديموقراطية ، وأن هناك قدرا من الحرية . ومن بين هذه المظاهر الشكلية تمسكه برفع الرقابة عن الصحف لمدة ثلاثين يوما قبل يوم الاقتراع . وفي ظل وقف الرقابة والقيود على الاجتماعات لأغراض الحملة

الانتخابية ، قام الجنرال دلجادو بانتقاد سالازار ، وأعلن أثناء اجتماع جماهيري في مدينة بورتوPORTO حضره بضعة مئات من الألوف ، بأنه إذا نجح في انتخابات الرئاسة فانه سوف يعزل سالازار من منصبه . وقد قابلت الجماهير تصريح دلجادو بالفرح والهتاف منفثين بذلك عما يشعرون به من كبت ومرارة . كانت الاجتماعات الجماهيرية تؤكد أن الغالبية العظمى من الشعب البرتغالي تؤيد دلجادو ، ولكن التأييد الشعبي شيء والنتيجة الرسمية للإنتخابات شيء آخر . لقد أعلن سالازار نتيجة الانتخابات فكانت 758998 لصالح الأدميرال توماس بينما لم يحصل دلجادو إلا على 236528 . وبمجرد إعلان نتيجة الانتخابات أعيدت الرقابة مرة أخرى وأصبح انتقاد الحكومة أو اتهامها بتزييف الانتخابات جريمة تؤدي بصاحبها إلى الاعتقال والسجن والتشريد . وصمتت الأصوات الحرة . وكسرت الأقلام الشريفة . وعاد المرتزقة والمنافقين من السياسيين والكتاب إلى التسبيح بحمد الاله سالازار .

وبالرغم من سقوط دلجادو في انتخابات الرئاسة ، إلا أن حملته الانتخابية قد هزت النظام وأزعجته . ولكي يضمن عدم إمكانية تكرار مثل هذا الموقف مستقبلا ، قام سالازار بتعديل الدستور بحيث أصبح الترشيح لرئاسة الجمهورية ليس حقا مباحا لأي فرد ، ولكنه يجب أن يتم ترشيحه أولا بواسطة مجلس الشعب . وحيث أن مجلس الشعب هو من صنع سالازار فإن مثل هذا المجلس لا يمكنه أن يرشح شخصا لا يرضى عنه سالازار .

بعد ذلك عرض سالازار على دلجادو المال والمنصب ، لكي يستقطبه أو يحيده ، ولكن دلجادو رفض هذه العروض . وهنا تحركت المخابرات العامة PIDE ، وأخذت تتربص به لاغتياله . فهرب إلى خارج البلاد . وأخذ يمارس نشاطه ضد نظام سالازار من الخارج . ولكن ال Pide استطاعت أن تخترق صفوف أعوانه ، وتزرع بينهم جوسيسها الذين يتظاهرون بأنهم يتآمرون معه ضد سالازار . وفي ديسمبر 65 أقنعه بعض الخونة من رجاله والذين لم يكونوا سوى عملاء سالازار ، بالذهاب إلى مدينة باداخوش Badajoz ، وهي بلدة إسبانية على الحدود البرتغالية . لقد أخبروه أن بعض المعارضين لنظام سالازار في داخل البرتغال سوف يحضرون لمقابلته ليلا في هذه المدينة ، وذلك للإتفاق على انقلاب يطيح بهذا النظام . وفي 13 فبراير 65 قام عملاء المخابرات باغتيال الجنرال دلجادو الذي لم يعرف أحد بوفاته إلا في 27 أبريل 65 عندما اكتشفت جثته في Villa Nueva del Frenso على مقربة من الحدود البرتغالية الإسبانية .

سالازار في الميـــزان :

ومع كل ما قيل عن سالازار فإننا يجب أن نعترف بأنه كان له بعض الحسنات . ففي

المجال الاقتصادي نجح سالازار في إنقاذ البرتغال من التدهور الاقتصادي . وأخذ معدل النمو الاقتصادي يرتفع عاما بعد عام . وفيما بين 1950 ـ 56 كان معدل النمو الاقتصادي السنوي هو 4,5٪ ، وفيما بين 57 ـ 61 ارتفع معدل النمو الاقتصادي السنوي إلى 5,7٪ ، بينما كان معدل النمو السنوي في دول المجموعة الأوروبية OECD عن نفس الفترة هو 4,4٪ فقط . وقد تم تحقيق كل ذلك بدون الاستعانة برأس المال الأجنبي . وقد ازداد متوسط دخل الفرد في البرتغال خلال فترة حكم سالازار زيادة كبيرة ، جعلته يقترب كثيرا من متوسط الفرد في الدول الأوروبية . ولكن يجب ألا ننسى أن هذا الازدهار الاقتصادي لم يستفد منه إلا فئة قليلة من الناس . وبالرغم من أن جموع الشعب الكادحة هي التي حققت هذا الرخاء ، فإن نصيبها من هذا الرخاء كان محدودا جدا .

لقد كان سالازار شخصيته غريبة حقا . لقد نشأ في بيئة فقيرة وقد قاسى شظف العيش أثناء فترة طفولته وشبابه . وبعد أن وصل إلى الحكم والسلطة فإنه لم يغير في نظام حياته . لم يخصص لنفسه ـ وهو سيد البرتغال الأوحد ـ عشرات القصور التي تكلف الدولة مئات الملايين من الدولارات ، كما يفعل أمثاله من الحكام الأوتوقراطيين . لقد عاش حتى آخر يوم في حياته في فيلاً صغيرة متواضعة . لقد رأيتها بنفسي وهي لا تزيد في منظرها عن أي فيلا يسكنها أستاذ جامعي سواء في البرتغال أو في مصر . وقد عاش حياته أعزبا ولم يعرف عنه إن كان له عشيقات . وكانت حياته من ناحية المأكل والمشرب والملبس أقرب إلى التقشف منه إلى الرفاهية والاستمتاع بالحياة . لم يسرق شيئا من مال الشعب لنفسه . فلم يترك من بعده ضياعا واسعة أو أموالا في البنوك كما فعل غيره من الحكام الأوتوقراطيين . ومع كل هذه الحسنات فإن سالازار كان يمينيا متطرفا ، يقوم بخدمة مصالح اليمين ويعمل على إنعاشه اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وفكريا ، على حساب الطبقات العاملة التي كانت لا تحصل على نصيب عادل من الثروة والإنتاج الذي تحققه بعرقها وبدمائها .

كان سالازار يعيش حياة الراهب المتقشف . أما الشعب فقد كان يتكون من طبقتين . طبقة تتكون من بضعة آلاف من الناس يملكون المال والسلطة ويعيشون في قصورهم حياة الترف والرفاهية . وطبقة كادحة لا يملكون شيئا من المال أو السلطة ولا يحصلون مقابل عملهم إلا بما يكاد يقيم أودهم . لقد كان سالازار كريما جدا مع الأغنياء ، شحيحا قاسيا مع الفقراء . وقد كان أكثر شحا وقسوة مع العمال الأفريقيين من سكان المستعمرات . لقد بلغت قسوة سالازار واستهانته بآدمية سكان المستعمرات البرتغالية أن أخذ يستغلهم في العمل في جنوب أفريقيا ، وكأن حكومة البرتغال قد تحولت إلى مقاول للانفار . لقد عقد سالازار اتفاقا مع حكومة جنوب أفريقيا يقوم بموجبه بتوريد عشرات الألوف من العمال من موزمبيق

وأنجولا وغيرها من المستعمرات البرتغالية الأفريقية ، للعمل في مناجم الذهب في جنوب أفريقيا ، على أن تقوم تلك الحكومة بدفع أجور هؤلاء العمال إلى حكومة البرتغال بالعملة الذهبية . كان العمال الأفريقيون يكدون ويعرقون ، ويستبدلون بغيرهم كل ستة شهور قبل أن يموتوا من التعب والإرهاق ولا يحصلون في مقابل ذلك إلا على طعامهم وإيوائهم . طعام لا يغني ولا يسمن من جوع ، ومساكن هي أشبه بزرائب الماشية . أما أجورهم بالعملة الذهبية فقد كان يتم توريدها رأسا إلى لشبونة .

وبالرغم من الانتعاش الذي حققه سالازار خلال الأربعينات والخمسينات ، إلا أن الموقف خلال الستينات بدأ يتغير نتيجة الحروب الاستعمارية التي أخذت البرتغال تنغمس فيها . لقد كان سالازار يفكر خلال الستينات بنفس الأسلوب الذي كان يفكر فيه في الثلاثينات . لم يستطع سالازار أن يتفهم الحركات التحررية التي بدأت تجتاح العالم في الخمسينات . كان يعتبر المستعمرات البرتغالية جزءا لا يتجزأ من أمبراطوريته . كان تفكيره يتطابق مع تفكير فرنسا التي كانت تعتبر الجزائر جزءا لا يتجزأ من الوطن الفرنسي . وبالرغم من أن فرنسا أذعنت إلى الأمر الواقع وحصلت الجزائر على استقلالها في 5 يوليو 1962 ، إلا أن سالازار تشبث بأفكاره البالية ، وصمم على أن يسحق الثورات التي كانت رياحها تزداد قوة في المستعمرات البرتغالية . وفي خلال الستينات دفعت البرتغال ثمنا غاليا في تلك الحروب الاستعمارية . لقد دفعت حوالي 1000 مليون دولار وقتل من أبنائها حوالي 10000 رجـل .

كان سالازار يكره الاستدانة ويكره تشجيع رأس المال الأجنبي . كانت نظريته الاقتصادية في التنمية تعتمد على التمويل المحلي . ولكن تكاليف الحروب الاستعمارية اضطرته إلى الخروج من هذه القاعدة وأعلن سياسة الانفتاح . وفي 28 أبريل 65 أصدر قانونا لتشجيع الاستثمار الأجنبي . ونتيجة لهذه السياسة الجديدة تدفقت رؤوس الأموال الأجنبية على البرتغال . وارتفع نصيب الشركات الأجنبية في الصناعة البرتغالية من 1,5٪ عام 60 إلى 27٪ عام 70 .

ومن ضمن محاسن سالازار أنه استطاع أن يقف ببلاده موقف الحياد إبان الحرب العالمية الثانية 39 ـ 45 . أن هذا الموقف لم يجنب البرتغال ويلات الحرب ويوفر للخزينة الإنفاق الحربي فحسب ، بل أنه ساعد في انتعاش الموقف الاقتصادي ، نتيجة الأرباح التي حققتها من التجارة مع كل من الطرفين المتحاربين . وبالرغم من موقف الحياد الذي انتهجته البرتغال ، إلا أنه من الثابت أن سالازار كان يميل بقلبه وعواطفه نحو هتلر . وكان يؤدي لدول المحور بعض الخدمات الخاصة ، ولاسيما عندما سمح للغواصات الألمانية باستخدام

جزر الأزورش في عمليات التموين والراحة . ولكن عندما بدأت الموازين تميل لصالح الحلفاء ، وبدأت الولايات المتحدة ترسل قواتها لغزو شمال أفريقيا ، بدأ سالازار يتودد إلى أمريكا والدول الغربيـة .

وخلاصة القول فإن سالازار كان له بعض الحسنات ولكن سيئاته كانت تفوق حسناته . لقد أنعش الاقتصاد البرتغالي ولكنه لم يتوخَ العدالة في توزيع الأرباح . لقد جنب البرتغال ويلات الحرب العالمية ثم تورط بعد ذلك في حروب استعمارية . لقد كان يخلط بين سلامة البلاد وبين سلامة نظامه . كان يعتبر أن كل ما يهدد نظامه هو تهديد لسلامة البرتغال . وهذا هو منطق الحكام الأوتوقراطيين . لقد ذبح الديموقراطية في البرتغال وهذه هي جريمته الكبرى . ليس من حق أي حاكم مهما قدم إلى بلاده من خدمات أن يرغم شعبه على أن يدفع ثمن ذلك ، عبودية وخضوعا وتاليها لهذا الحاكم . ان قوة أي بلد هي بقوة أفراده . وإذا حول الحاكم شعبه إلى مجموعة من العبيد ، فإنه لن يستطيع أن يخلق منهم أمة قوية .

كايتـانـو Caetano يخلف سالازار :

البرفسور كايتانو هو الآخر أستاذ جامعي في الاقتصاد . وقد أخذ يدير شؤون البلاد فترة مرض سالازار التي امتدت ما يقرب من 22 شهرا مكتفيا بلقب نائب رئيس الوزراء . ولكنه خلف سالازار بصفة رسمية بعد وفاته في يوليو 70 . كان نظام كايتانو هو استمرار لنظام سالازار . ولكنه حاول أن يدخل بعض التغييرات في الشكل دون المساس بالجوهر.

لقد استمر النظام الاقتصادي كما هو. لقد استمر النظام البوليسي القمعي كما هو. لقد استمرت الحروب الاستعمارية في أفريقيا كما هي . لقد استمر النظام السياسي كما هو.

وفي ظل هذا النظام القمعي لم يكن من الممكن أن يحدث أي تغيير في هذا النظام إلا بواسطة العنف الثوري . ان النظام كان يمنع المعارضة ، ويمنع حرية التعبير ، ويفرض الرقابة على الصحف وجميع وسائل الإعلام ، ويمنع التظاهر أو الإضراب عن العمل . شيء واحد لم يستطع أن يصل اليه وهو ما يكتمه الثوار في نفوسهم . وفي يوم 25 أبريل 1974 تحركت مجموعة من الضباط الأحرار وأسقطوا النظام الدكتاتوري الذي أسسه الجنرال جومش داكوشتا في مايو 1926 والذي ورثه وطوره سالازار من بعده . لقد سقط النظام دون قتال ، لأنه ما من أحد كان يريد أن يضحي بنفسه من أجل هذا النظام . كان العمال والفلاحين يكرهون النظام . كان الضباط والجنود يكرهون النظام الذي يزج بهم في حروب استعمارية ، لا تتماشى مع روح العصر ولا تحقق من شيء اللهم إلا إرضاء غرور حاكم مستبد .

سقط النظام الذي كان يدعي أن الشعب البرتغالي يؤيده تأييدا ساحقا وأنه لا يوجد داخل البرتغال من يعارضه . حقا لم يكن داخل البرتغال من يستطيع أن يعارض النظام بلسانه . ولكن كان هناك الملايين ممن يلعنون هذا النظام بقلوبهم . لم يكن أمام من يريد أن ينتقد النظام إلا أن يهاجر إلى بلد آخر . وعاش الاحرار الذين لا يستطيعون الصمت في المنفى الذي اختاروه لأنفسهم . عاشت مجموعة منهم في الجزائر ، وأخرى في سويسرا ، بينما عاشت مجموعة ثالثة في تشيكوسلوفاكيا . ومن تلك البلاد كانوا يهاجمون ويفضحون نظامسالازار وكايتانو من بعده . لم يعد هؤلاء إلى بلادهم إلا بعد أن سقط النظام . لقد سقط النظام الذي كان يخدم مصالح 0,1٪ من الشعب ويستقطب 0,9٪ من الانتهازيين بينما كان 99٪ من الشعب يعيشون في ضنك وبلاء .

طبيعـة الثـورة البرتغاليـة :

لم تكن الثورة البرتغالية ذات طابع أيديولوجي متميز . فقد كان من بين قادة الثورة من يدين بالأفكار اليسارية ، كما كان من بينهم من يدين بالأفكار اليمينية . لقد كان يجمعهم هدف واحد هو إسقاط هذا النظام الأوتوقراطي وإرساء قواعد الديموقراطية الحقيقية في البلاد . وفي ظل الديموقراطية الحقيقية يستطيع الشعب أن يتخذ قراره في المواضيع الهامة . لقد نجحوا في تشخيص الأسباب التي أدت إلى الديكتاتورية . فأعلنوا منذ اليوم الأول لثورتهم بأنهم يؤيدون تعدد الأحزاب ، وحرية التعبير المطلقة . وأنهم سيقومون بتسليم السلطة إلى المدنيين بمجرد أن يتم تشكيل المؤسسات الديموقراطية في مدة قدرت حينئذ بسنتين .

ولعل مجلس قيادة الثورة البرتغالية هو أول مجلس قيادة ثورة لا يعطي لأعضائه حقوقا أبدية نظير قيامهم بقيادة الثورة . كان أعضاء مجلس قيادة الثورة خلال المرحلة الانتقالية (مرحلة السنتين اللتين يتم خلالهما انتخاب المؤسسات الديموقراطية) يتكون من مجموعتين . مجموعة تعين طبقا للوظائف التي يشغلونها ومجموعة أخرى يتم انتخابها بالإقتراع المباشر في الوحدات العسكرية . كانت المجموعة الأولى تشمل رئيس أركان حرب القوات البرية ، رئيس أركان حرب القوات البحرية ، رئيس أركان حرب القوات الجوية ، قادة المناطق العسكرية . أما المجموعة الثانية فكانت تتكون من 14 عضوا منتخبا . القوات البرية 6 ، القوات البحرية4 ، القوات الجوية 4 .

وضع الدستـور الجديـد :

ان الدستور هو عنوان أي نظام سياسي . إنه يحدد الحقوق والواجبات بالنسبة للشعب . ويحدد السلطات بالنسبة للهيئة التنفيذية . ولقد وضع البرتغاليون دستورهم الجديد بأسلوب

ديموقراطي لم يسبقهم فيه أحد من قبل . ولعل بقاء الشعب البرتغالي تحت نير الحكم الديكتاتوري لمدة 48 سنة ، هو الدافع الرئيسي وراء اختيارهم لهذا الأسلوب الديموقراطي الرائع في وضع دستورهم الجديد .

ان إقرار الدستور بالاستفتاء الشعبي كما فعل السادات في مصر عام 71 هو إجراء غير سليم لجملة أسباب . السبب الأول هو أن المواطن العادي لا يستطيع أن يتبين المطبات والقيود التي يحشو بها الحاكم مواد الدستور . لقد استطاع السادات في دستور عام 71 أن يعطي باليد اليمنى ثم يأخذ باليد اليسرى أكثر مما أعطاه باليمنى . كان دائما يأخذ أكثر مما يعطي . وعلى سبيل المثال فإن الدستور المصري لعام 71 ينص في المواد 47 ، 48 ، 54 على حرية التعبير وحرية الاجتماع وحرية الصحافة ولكنه يضيف دائما إلى هذه المواد تعبير «في حدود القانون» وتحت ستار هذا التعبير «في حدود القانون» استطاع السادات أن يفرغ هذه المواد من مضمونها . لقد أصدر في ظل هذا التعبير قانونا أسماه قانون الحريات . وبموجب هذا القانون أصبح لرئيس الجمهورية الحق في وضع قيود على حرية الأشخاص في الاجتماع والانتقال ، والقبض على المشتبه فيهم واعتقالهم ، ومراقبة الصحف وكافة وسائل التعبير والدعاية ، والاستيلاء على أي منقول أو عقار الخ . ماذا تبقى بعد كل ذلك من مضمون للحريات التي نصت عليها المواد 47 ، 48 ، 54 ؟

أما السبب الثاني فهو أن الدستور يحتوي على مود كثيرة وقد يكون 95٪ من مواد الدستور ممتازة تستدعي من الناخب أن يقول نعم ، في حين أن المواد الباقية والتي قد لا تتجاوز 5٪ من المواد تتطلب منه أن يقول لا فماذا يصوت ؟ نعم أم لا ؟ لو صوت بنعم فقد قبل القيود التي فرضت عليه . ولو صوت بلا فما هو البديل ؟

ولكي يتغلب البرتغاليون على هذه المشكلة قرروا أن يقوم الشعب بنفسه بمناقشة الدستور وإقراره مادة مادة وفقرة فقرة . وقد تم ذلك خلال عامين كاملين . في خلال العام الأول سمحت القيادة السياسية بتشكيل الأحزاب بدون قيود . وعكف كل حزب على وضع برنامجه ومناقشته مع الجماهير مستخدما جميع وسائل الإعلام في حرية تامة . وفي نهاية العام أجريت أول انتخابات نزيهة بعد 49 سنة من التزييف . وأدلى الشعب بأصواته على مبادىء الأحزاب يوم 25 أبريل 75 فكانت النتائج التالية :

	عدد الأصوات ٪
الحزب الاشتراكي P.S.	46,6
الأشتراكيون الديموقراطيون P.S.D.	32,6
الشيوعيون P.C.P.	12

الوسط الديموقراطي الاجتماعي .C.D.S	6,4
الحركة الديموقراطية .M.D.P	2
الاتحاد الديموقراطي الشعبي .U.D.P	0,4
	100,0

وبناء على هذه النتائج تشكل أول مجلس شعب من 249 عضوا يمثلون الأحزاب بنسبة عدد الأصوات :

الاشتراكيون .P.S	116
الأشتراكيون الديموقراطيون .P.S.D	81
الشيوعيون .P.C.P	30
الوسط الديموقراطي الاجتماعي .C.D.S	16
الحركة الديموقراطية .M.D.P	5
الاتحاد الديموقراطي الشعبي .U.D.P	1
	249

واجتمع هذا المجلس وأخذ يناقش الدستور مادة مادة ، يضيف اليها ويحذف منها إلى أن تحظى بأغلبية الأصوات. لقد بلغ عدد مواد الدستور البرتغالي 312 مادة . وهو لذلك يعتبر من أطول الدساتير في العالم . ولكنه في نفس الوقت يعتبر أقلها غموضا . لقد كان إقرار بعض المواد الهامة التي يختلف عليها الأحزاب تستغرق عدة أيام ، وأحيانا عدة أسابيع ، وتنتقل إلى صفحات الجرائد والراديو والتليفزيون حتى يقوم كل حزب بشرح وجهة نظره . وقد كانت مناقشة الدستور بهذه الصورة العلنية فرصة أخرى لكي يلم الناخبون بوجهات نظر الأحزاب في القضايا العامة . وقد استغرق المجلس عاما كاملا لكي يناقش ويوافق على الدستور. ولذلك فإن الدستور البرتغالي جاء متمشيا مع مطالب الجماهير بمختلف أيديولوجياتهم وفي حديث حول هذا الموضوع بيني وبين رئيس المجلس قال لي البرفسور هنريك دي بارو Henrique de Burro «ان الحزب الاشتراكي هو الحزب الوحيد الذي وافق على جميع مواد الدستور . أما الأحزاب الأخرى فإنها كانت توافق على بعض المواد وتعترض على مواد أخرى . ولكنها أصبحت ملتزمة بها بعد تصويت الأغلبية عليها» .

بعد أن وافق المجلس على الدستور مادة مادة عرض الدستور بجميع مواده مرة أخرى للموافقة عليه ككل . فوافقت عليه جميع الأحزاب إلا حزب الوسط الديموقراطي الاجتماعي

الذي امتنع عن التصويت . وكانت حجته في ذلك أنه يعترض على المادة التي تنص على أن النظام البرتغالي هو نظام اشتراكي . وأن امتناع 16 عضوا عن التصويت لم يكن ليؤثر على إقرار الدستور بأغلبية 233 ضد لا شيء ، ولكنه كان مظهرا من مظاهر ممارسة الديموقراطية . وبعد أن وافق المجلس على الدستور عرض الدستور للاستفتاء الشعبي العام . وان عرض الدستور للاستفتاء بهذه الصورة فيه الكثير من الضمانات الديموقراطية لأن الفرد قبل أن يقول نعم أو لا فإنه يكون قد استمع إلى المناقشات التي دارت في المجلس حول كل مادة وحول التفسير والصياغة ، وبالتالي فإنه يكون في مأمن من الوقوع في المصيدة التي كان من الممكن أن يقع فيها ، فيما لو قام الحاكم بعرض دستور من وضعه للاستفتاء ، بدون تلك المناقشات الحرة، وبدون مئات التعديلات التي أدخلت على مواده نتيجة هذه المناقشات .

قانون الانتخاب الجديد :

ان اعتبار الوطن وحدة انتخابية واحدة ، وإجراء الانتخاب بين الناس على أساس مبادىء الأحزاب وليس على أساس أسماء الأشخاص ، هو أحدث النظريات لتحقيق أكبر قدر من الديموقراطية . ومن بين الدول التي تأخذ بهذا الأسلوب الانتخابي إسرائيل والبرتغال . ان نظام الانتخاب بالدوائر كما هو الحال في أنجلترا لا يحقق عدالة التمثيل النسبي . فعلى سبيل المثال فإن حزب الأحرار في بريطانيا حصل خلال الانتخابات التي أجريت في أكتوبر 1974 على 20٪ من مجموع الأصوات التي أدلت برأيها في هذه الانتخابات . ومع ذلك فإنه لم ينجح إلا في 13 دائرة انتخابية من ضمن 635 دائرة . ولذلك فإن تمثيله في مجلس العموم البريطاني كان بنسبة 2٪ فقط من مجموع مقاعد المجلس . ولو أن بريطانيا أخذت بمبدأ التمثيل النسبي طبقا لعدد الأصوات التي حصل عليها كل حزب على مستوى الدولة ، لحصل حزب الأحرار على 127 مقعدا في مجلس العموم ، وليس مجرد 13 فقط .

ان انتخاب الأشخاص بالدوائر يعيبه أيضا أنه يشجع العصبيات ويشجع الوساطة . ان الانتخاب في ريفنا المصري يعتمد أولا وقبل كل شيء على العصبية . فإن الأفراد ينتخبون ابن العائلة وابن القرية . والعائلات والقرى المجاورة تنتخب ابن العائلة أو القرية التي تربطها بهم أواصر الصداقة أو المصاهرة الخ بصرف النظر عن المبادىء أو الأيديولوجيات التي يعتنقها المرشح . كذلك فإن الناخبين الذين يؤيدوا أحد المرشحين أثناء حملته الانتخابية ، فإنه يترسخ في اعتقادهم بأن لهم حقوقا على هذا المرشح . وأنه يجب عليه أن يرد لهم هذا الجميل . ومن هنا فإنهم يلجأون اليه لكي يتوسط لهم لدى المسؤولين لحل مشاكلهم الخاصة ومشاكلهم المحلية . فمنهم من يطلب التوسط لإعفاء إبنه من الخدمة العسكرية ، أو نقله من وحدة إلى

أخرى . ومنهم من يطالب بتوظيف ابنه . ومنهم من يطلب إنشاء ترعة أو طريق يمر بقريتهم الخ . وان الاستجابة إلى تنفيذ هذه المطالب هو اعتراف بالوساطة ، وخروج عن مبدأ تكافؤ الفرص بين جميع أفراد الشعب وبين جميع قرى الجمهورية . ان المجتمع الفاضل الذي نرجوه لمصر هو ذلك المجتمع الذي يستطيع فيه كل فرد أن يحصل على حقوقه كاملة ، دون أي وساطة من أحد ودون أن يتفضل به أحد . وان تضامن وتكاتف ذوي المبادىء الواحدة وذوي المصالح الواحدة ، هو الضمان الوحيد لإظهار قوتهم عندما يطالبون بحقوقهم العادلة .

ان انتخاب المبادىء هو خير وأبقى ، وهو في صالح الفرد وفي صالح الجماعة أيضا . ان القضايا العامة والقضايا القومية يجب أن تكون هي أساس الانتخاب . ما هو رأي الحزب في قانون الإصلاح الزراعي ؟ في قانون المساكن ؟ في الانفتاح-الاقتصادي ؟ في ربط الأجور بالأسعار؟ في حق الإضراب ؟ في موضوع الرقابة ؟ في معاهدة الصلح مع إسرائيل ؟ الخ . ان برنامج الحزب وإعلان رأيه في هذه المواضيع وغيرها ، يجب أن تكون هي المنارة التي على ضوئها يستطيع الناخب أن يفاضل بين حزب وآخر . وبالتالي فإنه يستطيع أن يدلي بصوته لصالح من يعتقد أنه أصلح من الآخرين . ان انتخاب المبادىء وليس الأفراد ، واعتبار الوطن وحدة انتخابية واحدة ، وتشكيل البرلمان على أساس التمثيل النسبي طبقا للأصوات الصحيحة هو أمل أرجو أن أراه يتحقق في مصر .

انتخابات أبريل 1976 :

بعد إقرار الدستور تم حل مجلس الشعب الذي وضع الدستور . وأجريت انتخابات جديدة في 25 أبريل 76 فكانت النتيجة التالية :

	عدد الأصوات	عدد المقاعد
الحزب الاشتراكي	40,75	108
الأشتراكيون الديموقراطيون	27,55	73
الوسط الديموقراطي الاجتماعي	16,23	43
الشيوعيون	15,1	40
الاتحاد الديموقراطي الشعبي	00,37	1

وتجدر الملاحظة أن نتائج هذه الانتخابات تختلف قليلا عن نتائج الانتخابات التي سبقت ذلك بعام . ويرجع ذلك إلى أن المناقشات العلنية حول مواد الدستور خلال عام كامل كانت قد حددت موقف كل حزب من المشاكل العامة . ونتيجة لذلك خسر الحزب الاشتراكي حوالي 6٪ ذهب جزء منها إلى الحزب الشيوعي حيث اعتبر هؤلاء الناخبين أن الحزب

الاشتراكي أكثر يمينية مما كانوا يعتقدون ، بينما ذهب جزء من هذه الأصوات إلى حزب الوسط الديموقراطي الاجتماعي لأنهم اعتبروا أن الحزب الاشتراكي أكثر يسارية مما كانوا يعتقدون . كذلك خسر الأشتراكيون الديموقراطيون حوالي 5٪ من أصوات الناخبين ذهب معظمهم إلى حزب اليمين (الوسط الديموقراطي الاجتماعي C.D.S.) . وهذا يؤكد لنا مرة أخرى بأن مبادىء الأحزاب ورأيها في القضايا العامة كانت هي العامل الحاسم في نتائج هذه الانتخابات .

انتخاب رئيس الجمهوريـة :

كان من الممكن أن يدعو رئيس الجمهورية رئيس الحزب الاشتراكي لتشكيل الحكومة فور ظهور نتائج الانتخابات ، ولكنه رؤي أن يؤجل تنفيذ ذلك إلى أن يتم انتخاب رئيس الجمهورية بطريقة شرعية . لقد كان الجنرال كوشتا جومش هو رئيس مجلس قيادة الثورة ورئيس الجمهورية ولكنه لم يكن منتخبا بواسطة الشعب . واستكمالا لخلق المؤسسات الدستورية ، رؤي الانتظار إلى أن يتم انتخاب رئيس الجمهورية . ثم يقوم الرئيس المنتخب بتكليف رئيس حزب الأغلبية بتشكيل الوزارة .

ورشح نفسه لرئاسة الجمهورية كل من رئيس الوزارة الأميرال أزيفيدو Admiral Azevido ، الجنرال رماليو أيانش ، general Ramalec Eanes رئيس أركان القوات البرية ، الميجور أوتلو Otello ، السنيور باتو Senhor Pato ، ولم يرشح رئيس الجمهورية نفسه في الانتخابات . وقد تكاتف كل من الحزب الاشتراكي PS ، الأشتراكيون الديموقراطيون P.S.D. ، والوسط الديموقراطي الاجتماعي C.D.S. مؤيدين ترشيح الجنرال رماليو أيانش ، ووقف الحزب الشيوعي وراء مرشحه السنيور باتو . أما أوتلو فقد كان أحد زعماء ثورة 25 أبريل 74 وقد منح بعد الثورة لقب جنرال وكان من ألمع نجوم مجلس قيادة الثورة ، إلا أنه أبدى آراء يسارية متطرفة انتهت باختلافه مع زملائه فترك مجلس قيادة الثورة وعاد إلى وحدته برتبته القديمة وهي ميجور (رائد) . والغريب أنه دخل انتخابات رئاسة الجمهورية وهو برتبته العسكرية.والأغرب من ذلك أنه عاد إلى وحدته مرة أخرى بعد أن فشل في انتخابات الرئاسة . وقد كان يقف وراء أوتلو جميع العناصر اليسارية . أما الأدميرال أزيفيدو فقد كانت آرؤه السياسية غامضة ، ولكنها كانت إلى حد ما يمينية . ومع أن حزب الوسط الديموقراطي الاجتماعي C.D.S هو الذي يمثل اليمين في البرتغال ومبادؤه تتطابق مع مبادىء حزب المحافظين البريطانيين ، إلا أنه كان حريصا على أن ينفي عن نفسه صفة اليمين . ولذلك فإنه لم يعلن تأييده للأدميرال أزيفيدو ، وأعلن تأييده للجنرال أيانش الذي يمكن اعتباره بين اليمين وبين اليسار .

أجريت انتخابات رئاسة الجمهورية يوم 27 يونيو 76 وكانت النتائج كما يلي :

	عدد الأصوات ٪
الجنرال رماليو أيانش	61,54
ميجور أوتلو	16,52
الأدميرال أزيفيدو	14,36
السنيور باتو	7,58
	100,00

تشكيل أول حكومة دستورية :

بعد انتخاب رئيس الجمهورية أجريت احتفالات تسليم السلطة من الجنرال كوشتا جومش إلى الجنرال راماليو أيانش . وتم الاحتفال في مجلس الشعب حيث قام الرئيس الجديد بحلف اليمين أمام المجلس ، فكان بذلك أول رئيس للجمهورية ينتخب بواسطة الشعب انتخابا حرا بعد خمسين سنة من الحكم الأوتوقراطي .

وفي أوائل يوليو استدعى رئيس الجمهورية الدكتور ماريو سوارش Mario Soares رئيس الحزب الاشتراكي ، بصفته صاحب الأغلبية في مجلس الشعب ، وكلفه بتأليف الوزارة . وبعد عدة مشاورات أعلن ماريو سوارش حكومته ، وقامت بحلف اليمين يوم 25 يوليو 76 فكان هذا التاريخ هو نهاية المرحلة الانتقالية التي بدأت بثورة القوات المسلحة في 25 أبريل 74 ، وبداية لعهد جديد من الحكم الدستوري الديموقراطي .

الثورة البرتغالية في الميزان :

لقد نجحت الثورة البرتغالية في خلال 27 شهر فقط من أرساء قواعد الديموقراطية ، وتشكيل المؤسسات الدستورية . وأن هذا الإنجاز يعتبر إنجازا ضخما لم تحققه أي ثورة قبل ذلك . وقد تعرضت هذه الثورة لكثير من الانتقادات . فنهم من قال ان التحرك نحو الديموقراطية كان يسير بخطوات واسعة ، وأن البلاد كانت تعيش في حالة فوضى خلال فترة التحول إلى الديموقراطية . ومنهم من قال عكس ذلك تماما ، وكان يطالب قيادة الثورة بأن تقوم بتسليمَ السلطة فورا إلى زعماء الشعب ، وأن ينسحب الجيش إلى المعسكرات. وفي اعتقادي أن كلا الرأيين قد جانبه الصواب ، وأن ما حدث فعلا كان هو أفضل الحلول الممكنة . ان شعبا لم يمارس الديموقراطية عبر 50 سنة ، لا يمكن أن يبلغ سن الرشد الديموقراطي

بين يوم وليلة . كما وأن إطالة الفترة الانتقالية إلى أكثر من سنتين يمكن أن يغري قادة الثورة على الاستئثار بالسلطة . ان للسلطة بريقا يفتن الناس مهما كان معدنهم . وكلما عاش الإنسان وسط الفتنة والإغراء ، كلما زادت احتمالات خضوعه لها ، واستمتاعه بها . لذلك فإن الابتعاد عن الفتنة والإغراء ، هو العمل الأصوب .

وإذا كان بعض الناس قد غالوا بعض الشيء في ممارسة حقوقهم خلال تلك الفترة الانتقالية ، فإن هذه التصرفات يجب ألا نبالغ في تفسيرها . إذا كان بعض الفلاحين قد احتلوا الأراضي التي كانوا يزرعونها وعاملوا أصحاب الأرض بشيء من الغلظة ، فيجب ألا ننظر إلى ذلك إلا في حدود أنها كانت مجرد حوادث فردية ، ومحدودة العدد . وسرعان ما صدر قانون الإصلاح الزراعي الذي نظم هذه العملية وحقق العدالة بين صاحب الأرض وبين من يفلحونها .

ويرجع الفضل الأول في نجاح الثورة البرتغالية إلى قادتها ، وإلى إيمانهم بالديموقراطية الحقيقية . فلولا هذا الإيمان ، لجمحت بهم السلطة وبقوا فيها إلى أن تسقطهم ثورة شعبية أو انقلابا عسكريا آخر ، كما يحدث عادة في بلاد أمريكا اللاتينية وغيرها من بلاد العالم الثالث . لقد كان مجلس قيادة الثورة يضم لفيفا من ذوي الأفكار اليمينية واليسارية ، ومع ذلك فلم يحاول أي منهم أن يفرض أفكاره على أحد . لقد اتفقوا فيما بينهم على أن تتاح الديموقراطية للشعب من أوسع أبوابها . وعلى الشعب أن يختار النظام الذي يريده . لقد كان مجلس قيادة الثورة هو الحارس الأمين الذي تحت حمايته يستطيع كل حزب أو صاحب رأي أن يمارس حريته ، دون أن يعتدي على حرية الآخرين .

وفي ظل هذه الأوضاع الجديدة تشكل في البرتغال ما يزيد عن عشرين حزبا لم يعترض أحد على أي منها . فكان منهم الشيوعيون بل كان منهم من هم يسار الشيوعيين (الاتحاد الديموقراطي الشعبي U.D.P.) . وكان منهم من هو في أقصى اليمين . وكان لكل حزب الحرية التامة في إصدار صحيفة تنطق باسمه . كما كان له الحق في عقد الندوات والاجتماعات الخ بدون قيود من السلطة . وفيما يتعلق بالراديو والتليفزيون خصصت الدولة لكل حزب وقتا متساويا مع باقي الأحزاب الأخرى ، يستطيع من خلاله أن يخاطب الشعب بما يريد . كان يخصص لكل حزب في كل مرة 15 دقيقة . فإذا انتهى مندوب الحزب من حديثه قبل هذا الوقت كان بها ، فإذا لم يستكمل حديثه انقطع الإرسال عنه في نهاية المدة المحددة .

وفي بعض المشاكل العامة كان التليفزيون يجري حوارا حول مائدة مستديرة ، يستضيف فيها رؤساء الأحزاب أو مندوبيهم لاجراء المناقشة أمام الشعب وعلى الهواء مباشرة . كنت

أتابع هذا الحوار بعجب ودهشة وسرور. كانت المناقشات تدور بصراحة تامة . وكان المذيع يحاول أن يغطي الموضوع تغطية جيدة ، وذلك بتوجيه الأسئلة المحرجة لجميع الحاضرين دون أي تحيز لأي طرف . كنت أسأل نفسي «هل أنا حقا في لشبونة أم أنني لازلت في في لندن ؟» لو أنني لازلت في لندن لكان ما أراه شيئا عاديا . أما أن يكون ذلك في لشبونة ، وعمر الثورة أقل من سنتين ، فإن هذا شيء يثير الدهشة حقا . كم تمنيت في تلك اللحظات أن أرى مثل هذا الحوار على شاشة التليفزيون في مصر الحبيبة ؟

مرة أخرى أقول وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم . لقد كرهت أن أذهب إلى لشبونة من بعد لندن . ولكني كنت أرى أن الظروف المناسبة لتفجير الخلاف بيني وبين السادات لم تكن قد نضجت بعد ، فذهبت إلى لشبونة وأنا لا أعلم أنني سوف أتعلم الكثير الكثير من هذه التجربة البرتغالية . فشكرا لله وحمدا . إنه هو العليم الحكيم .

مصر والتجربة البرتغالية :

ان التجربة البرتغالية مليئة بالدروس التي يمكن أن يتعلمنها المصريون . ان الظروف السائدة في مصر الآن في ظل حكم السادات تكاد تتطابق مع ما كان سائدا ابان حكم سالازار وكايتانو من بعده . وان نجاح الثورة البرتغالية في إسقاط هذا النظام وإقامة نظام ديموقراطي حقيقي على أنقاضه ، بعد فترة انتقالية مدتها سنتان ، هو أيضا من الأمور التي يمكن أن نتعلم منها .

السادات وسالازار :

لا أريد أن أذكر كل نقاط التشابه بين سالازار والسادات لأني لو حاولت ذلك لأعدت كتابة ما ذكرته عن سالازار ونظامه . وإني أقترح أن يعيد القارىء قراءة هذا الفصل ، وأن يستبدل كلمة سالازار بكلمة السادات ، وسيجد تطابقا مذهلا بين أسلوب الرجلين في معالجة الأمور . عندما كنت أدرس التجربة البرتغالية وأنا في البرتغال لم أتمالك من أن أسأل نفسي من هو الأستاذ ومن هو التلميذ . هل السادات هو تلميذ ملتزم ومخلص للأستاذ سالازار ، أم العكس هو الصحيح ؟ لقد بدأ السادات تجربته من حيث انتهى سالازار ، أو بمعنى أدق بعد 40 سنة من بداية التجربة السالازارية . وبالتالي فإن السادات تاريخيا هو أحد تلاميذ سالازار . ولكننا إذا دققنا في الأمر فإننا نجد أن السادات قد أضاف وطور أساليب سالازار الديكتاتورية لكي تناسب العصر . لذلك فإنه يمكن القول بأن التلميذ قد سبق أستاذه في هذا المجال . وسوف أكتفي هنا بذكر النقط الرئيسية في أسلوب الرجلين وطبيعة كل منهما :

1 ـ تزوير الانتخابات :

لقد اكتشف كل من الرجلين أن تزوير الانتخابات هو الخطوة الأولى لإرساء قواعد أي نظام أوتوقراطي . فعن طريق هذا التزوير يمكن أن يحصل على النتائج التي يريدها . وبالتالي فإنه يمكنه أن يدعي بأنه يتكلم باسم الشعب . وعن طريق التزوير يمكن أن يشكل عددا من المؤسسات التي يطلق عليها مؤسسات ديموقراطية ، وما هي في الحقيقة إلا مؤسسات شكلية كل مهمتها هي أن تنفذ أوامره وتبرر أفعاله . وعن طريق هذه المؤسسات الهيكلية يمكن أن يصدر الدستور ، أو يعدل مواده طبقا لما يناسبه ، وأن يصدر القوانين القمعية والمقيدة للحـريـــة .

2 ـ تضليل الشعب :

عندما يصدر أي من الرجلين قانونا ، أو يحتفظ لنفسه بسلطات واسعة ، فإنه يعطي للشعب تفسيرات هي أبعد ما تكون من الحقيقة ، ولكنها في نفس الوقت قد تجد صدى في نفوس الناس . مثال ذلك القول بأن الهدف من هذا القانون هو حماية الوحدة الوطنية ، أو حماية السلام الاجتماعي بين فئات الشعب ، أو حماية الحريات العامة من الأقلية المشاغبة التي تريد أن تفرض رأيها على الآخرين بوسائل غير ديموقراطية ، أو مقاومة الألحاد والملحدين الخ الخ وهكذا تصدر القوانين تحت شعارات رنانة ولكنها سرعان ما تتحول إلى سيف حاد يضرب به كل من يعارض سياسته .

ولكي يتفوق السادات على أستاذه في تضليل الجماهير ، فقد أعلن الإقلاع عن نظام الحزب الواحد والآخذ بنظام تعددية الأحزاب . وذلك لكي يضفي على نظامه نوعا من أشكال الديموقراطية الزائفة . ولكن ما قيمة الأخذ بنظام التعددية إذا كان السادات يستطيع في ظل قانون الأحزاب أن يلغي أي حزب قائم . لو أن حزبا من أحزاب المعارضة دعى العمال إلى الإضراب عن العمل ، أو المطالبة بربط الأجور بالأسعار ، أو اتهم أصحاب الاحتكارات بأنهم يستغلون الطبقات الكادحة ويثرون على حسابهم ، لاعتبر السادات ذلك في ظل القوانين القائمة التي أصدرها ، كأنه تهديد للسلام الاجتماعي ، ولاتخذ ذلك ذريعة لحل الحزب . ما الذي تستطيع الأحزاب أن تفعله إذا كانت لا تستطيع في ظل قوانين الرقابة أن تنتقد الحكومة بشكل حاد ؟ ان أي نقد لا يرضى عنه السادات يمكن أن يفسره على أنه تهديد للوحدة الوطنية . أو إثارة للفتنة الطائفية . أو دعوة إلى تخريب الاقتصاد الوطني . إلى غير ذلك من العبارات المطاطة ، التي تبيح له أن يكمم أفواه معارضيه .

3 ـ شخصية الرجليـــن :

وبالرغم من تطابق أسلوب الرجلين لتحقيق أهدافهما ، التي كانت ترمي في المقام

الأول إلى البقاء في السلطة مدى الحياة ، مع الاحتفاظ بسلطات كأسلحة ، فإن سلوكيات كل منهما كانت تختلف اختلافا متباينا . إنهما يتفقان في أن كل منهما نشأ في أسرة فقيرة . وأن كل منهما بعد أن وصل إلى السلطة سخر نظامه لخدمة البورجوازية . ولكن بالرغم من ذلك فإن سالازار لم يندمج في الوسط الأرستقراطي وعاش حياته كراهب متقشف . أما السادات فقد استهوته حياة القصور وحياة الرفاهية بشكل لم يسبق له مثيل . فكان له سرب من الطائرات الخاصة ، 28 قصرا تمتليء بمئات الخدم لكي يتنقل بينها في أي وقت يشاء . وفوق هذا وذاك فقد انغمس هو وعائلته وبطانته في أعمال تجارية وأعمال للسمسرة جنوا من ورائها ملايين الجنيهات .

ان السادات الذي يقول في مذكراته أنه نشأ نشأة بائسة وأنه كان يسير في قريته حافي القدمين وهو طفل ، قد نسي معاناة الطبقة التي خرج منها وفتنته حياة القصور والعطور ، أما سالازار فإنه بكل عيوبه فإن بريق المال والقصور لم تفتنه .

الفصل العاشر

الدين والسياسة

السيدة مريم العذراء تظهر في فاطمة :

في 13 مايو 1917 ادعى ثلاثة أطفال من الرعاة هم لوسيا Lucia ، فرانسسكو Francisco ، جاسينتا Jacinta من سكان قرية الجستريل Aljustrel بأن السيدة مريم العذراء قد ظهرت لهم وتحدثت اليهم[13] . لقد قالت لهم بأنه يجب عليهم أن يصلوا كل يوم من أجل أن تنتهي الحرب ويسود السلام ، ثم طلبت اليهم أن يحضروا إلى عين المكان ، وفي نفس الوقت ، خلال الخمسة أشهر التالية . لم تخطرهم بشخصيتها ولكنها وعدتهم بأنها ستخطرهم بذلك فيما بعد . لقد استغرق ظهورها وحديثها 10 دقائق . ولقد رآها الثلاثة ، ولكن لوسيا وجاسينتا هما اللتان سمعتا حديثها. أما فرنسيسكو فلم يسمعها تتكلم ولكنه رآها . كان ظهورها في مكان يدعى كوفا دا ايريا Cova da Iria قريبا من قرية فاطمة Fatima .

وفي 13 يونيو ظهرت العذراء مرة أخرى ، وتحدثت أيضا مع لوسيا . وكان تناقل الأخبار عن الظهور الأول ، قد دفع 50 فردا للتجمع في عين المكان . وكما حدث في المرأة الأولى رآها الأطفال الثلاثة . أما حوارها مع لوسيا فلم يسمعه سوى لوسيا وجاسينتا في حين أن فرانسيسكو لم يسمع حوارها . أما الأفراد الآخرين الذين تجمعوا في هذا المكان فإنهم لم يروا ولم يسمعوا أي شيء . وفي هذه المرة ، كانت السيدة مريم تحمل في يدها قلبا به أشواك . وقالت للأطفال بأن قلبها مثقل بالآلام من الخطايا التي يرتكبها البشر. وقد أخبرتهم بأن جاسينتا وفرانسيسكو سيصعدان إلى السماء قريبا . أما لوسيا فإنها ستبقى . لأن المسيح يريد منها أن تعمل في خدمة العذراء ، حتى يزداد الناس معرفة بها وحبا لها .

وقبل أن تطير العذراء وتختفي نحو الشرق كما حدث أول مرة قالت للوسيا بأنه يجب عليها أن تتعلم القراءة[14].

وفي 13 يوليو 17 ظهرت العذراء للمرة الثالثة . . وكان قد تجمع في المكان 5000 شخص ، يرددون الصلاة والدعاء مع الأطفال الثلاثة في انتظار قدومها . وبعد أن تكلمت العذراء عن الصلاة والصلاح طلبت اليها لوسيا Lucia أن تأتي بآية يمكن أن تقنع الجميع بأن الأطفال الثلاثة رأوها وأنها تكلمت معهم . فقالت لهم أن يستمروا في الحضور كل شهر وأنها في أكتوبر ستخبرهم بشخصيتها ، وبماذا تريد . وأنها ستأتي لهم بمعجزة يقتنع بها الجميع . ولكن الأطفال الثلاثة شاهدوا ما أفزعهم . لقد شاهدوا أمامهم النار. ورأوا الشياطين وبعضا من الناس يلقون فيها وهم يصرخون ويتعذبون .

لقد استغرق منظر النار بضع ثوان ، وقالت لهم العذراء بعد ذلك «لقد شاهدتم جهنم . وشاهدتم كيف تتعذب نفوس الخاطئين . ومن أجل أن ننقذ هذه النفوس ، فإن الله يريد من الناس أن يتفانوا في حب قلبي الطاهر . فإذا فعلتم ما أقوله ، فإن كثيرا من النفوس سوف يمكن إنقاذها ، وسوف يعود السلام ، وسوف تنتهي الحرب . ولكن إذا لم يقلع الناس عن إغضاب الله ، فإن حربا أخرى ستقوم . وسوف تكون أشد قسوة من هذه الحرب . ان الله يعاقب العالم على خطاياه بالحروب والجوع . ومن أجل ذلك ، فإني أطلب الدعاء من أجل روسيا ، ومتابعة حضور عشاء الرب في أيام السبت الأول من كل شهر لمدة خمسة شهور متتالية[15] وإذا أتبعتم ما أطلبه منكم ، فإن روسيا ستتحول will be Converted (المقصود هنا هو أن تعود مرة أخرى إلى المسيحية) وسيعود السلام . وإذا لم تفعلوا فإن أخطاءها ستنتشر في جميع أنحاء العالم ، ستثير الحروب ، ستضطهد الكنيسة ، ستذبح الفضيلة ، ستمحو كثيرا من الشعوب ، وسيقاسي الأب المقدس من أجل ذلك . ومع ذلك في النهاية فإن قلبي الطاهر سوف يفرح . سيقوم الأب بإصلاح روسيا وتطهيرها ، وإعادتها إلي . وسيعود السلام إلى العالم . لا تقولوا هذا الكلام لأحد . تستطيعان أن تقولاه إلى فرنسيسكو» [16].

في 13 أغسطس تجمع في منطقة فاطمة جمع غفير من الناس يتراوح عددهم بين 15000 ـ 18000 شخص ، لمشاهدة الظهور المنتظر . ولكن حاكم الناحية اختطف الأطفال الثلاثة ، وقرر حبسهم لكي يعرف منهم السر الذي يدعون أن السيدة مريم قد قالته لهم . ولكي يرغم جمهور المشاهدين الذين كانوا ينتظرون وصول الأطفال الثلاثة على الانصراف . وعندما علم الجمهور بخبر القبض على الأطفال الثلاثة ، ثار وغضب وصمم البعض على ضرورة التوجه إلى حاكم الناحية لإرغامه على الإفراج عنهم . ولكن فجأة توقف كل شيء . فقد ظهر بريق فوق الشجرة التي كانت قد ظهرت عليها العذراء في المرات السابقة

ثم أتبعها رعد . وأخذت السماء تمطر ما هو أشبه برقائق الثلج وما هو بثلج ، أو ما هو أشبه بالزهور وما هو بالزهور . هرع الناس ليجمعوها ، ولكنها كانت تتلاشى قبل وصولها إلى الأرض ، أو بمجرد لمسها دون أن يتخلف عنها أي أثر . وأخذ لون السحب في السماء يتغير لونه ، ما بين أحمر في لون الدم إلى أصفر إلى غير ذلك . ثم ظهرت سحابة بيضاء فوق الشجرة . وأخذت تسير بسرعة نحو الشرق . وهكذا تصور المشاهدون بأن السيدة مريم قد زارت المنطقة بالرغم من عدم وجود الأطفال هناك .

أما الأطفال فقد أبقاهم حاكم الناحية في الحجز يومين . ولكنه اضطر للإفراج عنهم دون أن يتمكن من معرفة السر . ودون أن يحصل منهم على وعد بعدم الذهاب إلى مكان ظهور السيدة العذراء ، وبعد أن سبب احتجازهم وقوع مظاهرات واحتجاجات كانت تهدد حالة الأمن في المنطقة . وفي يوم 19 أغسطس ظهرت العذراء للأطفال الثلاثة في مكان آخر قريب من حيث يسكنون . ودعتهم في هذا اللقاء إلى أن يحضروا في مكان الظهور الأول في يوم 13 من الشهر القادم . وأكدت لهم وعدها السابق بأنه في ظهورها الأخير في 13 أكتوبر ، فإنها سوف تأت لهم بمعجزة تقنع بها الناس .

وفي يوم 13 سبتمبر بلغ جمهور المشاهدين 30,000 . وكان من بينهم بعض رجال الكنيسة . وقد شاهد الناس كرة بيضاوية من الضوء الساطع تهبط من اتجاه الشرق فوق الشجرة ، بحيث كان الجزء الممتد منها متجها نحو الأرض ، ثم أخذ الضوء يتلاشى ، وازداد الجو برودة ، وهطلت السماء تلك الزهور التي تشابه ما حدث في الشهر الماضي والتي كانت تتلاشى قبل وصولها إلى الأرض . أما الأطفال الثلاثة فقد شاهدوا السيدة مريم ، وتحدثت معها لوسيا كالمعتاد . وفي هذا اللقاء قالت لهم «في خلال الشهر القادم سيظهر أيضا كل من سيدنا Our Lord ، سيدة دولورس Lady of Dolours ، سيدة الكرمل Lady of Carmel . وسيظهر السيد يوسف ومعه الطفل لكي يبارك العالم . ان الله سعيد بتضحياتكم ولكنه لا يريدكم أن تناموا بالحبال . ألبسوها فقط أثناء النهار» ثم أكدت أقوالها السابقة الخاصة بالمعجزة المنتظرة . وعند مغادرتها للمكان ، شاهد الناس نفس الكرة الضوئية ترتفع من مكانها وتتجه نحو السماء . واقتنع الجميع بأن هذه الهالة الضوئية إنما هي العذراء . وفي هذا اليوم كان صيت الأطفال الثلاثة قد بلغ الآفاق . كان النساء والرجال يركعون أمامهم ، ويتقدمون اليهم بالتماساتهم لكي يرفعونها إلى السيدة العذراء مما كان يثير القلق والخجل بين الأطفال .

ولقد أثار التفاف الناس حول هؤلاء الأطفال انزعاج السلطات . وأذاعوا بين الناس بأن قنابل سوف تنفجر يوم 13 أكتوبر في مكان الظهور ، ولكن ذلك لم يمنع أن يصل عدد

الحجاج في هذا اليوم إلى 70000 شخص . وفي الميعاد المحدد وصلت العذراء بنفس أسلوبها السابق وفي هذا اللقاء قالت «أريد أن تبنى لي كنيسة هنا لأنني أنا العذراء . استمرارا في أداء الدعوات Rosary كل يوم . ستنتهي الحرب قريبا وسيعود الجنود إلى منازلهم» . وبعد أن اختفت العذراء بنفس الأسلوب السابق ، رأى الأطفال بجوار الشمس السيد يوسف ومعه المسيح طفلا ، وبجواره السيدة مريم في لباس أبيض وعباءة زرقاء . وقام السيد يوسف والمسيح بمباركة العالم ، وذلك بأن رسموا الصليب بأيديهم ثم اختفوا . وبعد اختفائهم ظهر المشهد الثالث وفيه سيدة دولورس Lady of Dolours . أما المشهد الرابع فقد ظهرت فيه سيدة جبل الكرمل Lady of Mount Carmel .

وعندما اختفت السيدة مريم للمرة الأخيرة ، هتفت لوسيا أن أنظروا إلى الشمس . فأطاع آلاف الحجاج الحاضرين . فشاهدوا ما عرف بعد ذلك بأنه«المعجزة التي كانوا ينتظرونها . لقد كانت السماء ملبدة بالغيوم . ولكن السحاب انقشع من حول قرص الشمس بطريقة غير طبيعية . وكأن أحدا كان يزيحه بيديه ليبقى القرص ظاهرا مع بقاء السحب تحيط به من كل جانب . ثم بدأت الشمس وكأنها تقذف بحممها نحو الأرض وتتأرجح . وفجأة ظهر وكأن الشمس قد بدأت تفقد توازنها وتتجه بسرعة نحو الأرض . وركع الناس يصلون ويبتهلون وظنوا أن نهاية العالم قد حانت . وبالرغم من أن هذا المنظر قد شاهده عدة آلاف ، وبالرغم من أن البعض قال أن الشمس سقطت حتى أنها كادت تلمس قمة بعض الأشجار ، إلا أن الأرصاد الجوية في جميع أنحاء العالم لم تسجل أي ظاهرة طبيعية تؤكد ما رآه الناس .

السلطة تقاوم أطروحة فاطمة :

من الصعب الفصل بين الدين والسياسة . فالدين عقيدة والعقيدة تغزو عقل الإنسان وتؤثر على تصرفاته . لذلك يلجأ بعض الحكام إلى استغلال هذه العقائد لخدمة مصالحهم . بينما يلجأ آخرون إلى معارضتها إذا وجدوا أن هذه العقائد تهدد سلطاتهم . وإذا نحن رجعنا إلى موضوع ظهور العذراء في فاطمة Fatima ، نجد أن السلطات قد عارضت ما يدعيه الأطفال . بل واتخذت جميع الإجراءات لتكذيب هذه الادعاءات والتشهير بكذبها . وقامت الكنيسة بتأييد الحكومة في هذا الاتجاه . وقد تم استجواب الأطفال الثلاثة يوم 11 أغسطس 1917 استجوابا فظا لم يخل من التهديد والوعيد . فلما فشل الحاكم في استخلاص اعتراف منهم ، فإنه لم يتورع من اختطافهم يوم 13 أغسطس واحتجازهم لمدة يومين ، لكي يمنعهم من حضور اللقاء المنتظر ، ولكي يدفع المؤمنين بصحة دعواهم إلى التفرق .

وبعد أن فشلت وسائل الإعلام في إقناع الناس بعدم صحة أقوال هؤلاء الأطفال ، لجأت السلطة بالتعاون مع بعض الفئات الدينية إلى ترويج إشاعات ، مفادها بأن بعض الناس سيقومون بتفجير القنابل في مكان الاحتفال يوم 13 أكتوبر 17 ، وذلك حتى لا يذهب الناس إلى هناك . ولكن الناس لم تأبه لهذه التهديدات . وأخذت أعداد المؤمنين بما يدعيه الأطفال يزداد عاما بعد عام . وفي يوم 13 مايو 1920 قامت السلطة بإرسال كتيبة من الحرس الجمهوري وأخرى من الخيالة ، لمساعدة قوات البوليس في منع جميع العربات التي تتجه إلى فاطمة . ولكن الجنود لم يكونوا متحمسين لتنفيذ هذه التعليمات . لأن الكثير منهم كان قد بدأ يؤمن بصحة هذه العقائد .

وبعد وفاة كل من فرانسيسكو وجاسينتا ، لجأت الدولة ورجال الكنيسة إلى حيلة أخرى . فقد أقنعوا والدة لوسيا بأن يرسلوا الطفلة إلى أحد الملاجيء بحيث لا يعرف أحد مكانها ، اعتقادا منهم بأن وجودها قد يكون أحد أسباب جذب الحجاج إلى فاطمة ، وأملا في أن ينصرف الناس عن الحج إلى هذا المكان بعد اختفائها . وفعلا انتقلت الفتاة لوسيا في الساعة الثانية من صباح يوم 17 مايو 21 (كان عمرها وقتئذ 14 سنة) تحت اسم مستعار ، ودخلت ملجأ في فيلار Vilar بالقرب من بورتو Porto .

أثار اختفاء لوسيا سخط الناس وبدأوا يتساءلون ، مما اضطر الحكومة إلى أن تقوم بعملية تحقيق شكلية لامتصاص سخط الجماهير ، دون أن يسفر التحقيق طبعا عن أي نتيجة . ولكن اختفاء لوسيا لم يقلل من حماس الجماهير لكي يحجوا إلى فاطمة في الأيام التي ظهرت فيها العذراء . وفي 6 فبراير 1922 قام مجهولون بنسف كنيسة العذراء التي كان الناس قد أقاموها في مكان ظهورها . وسواء كانت الحكومة هي التي وراء هذه العملية أم لا ، فإن أصابع الاتهام كانت تشير اليها ، من حيث عدم قيامها بمجهودات جدية لكي تقبض على الجناة ، وتقدمهم إلى المحاكمة .

وبالرغم من قرارات الحكومة بمنع الناس من الحج إلى هذا المكان ، واتخاذها الإجراءات البوليسية لتنفيذ هذا القرار ، فقد أخذت أعداد الحجاج تزداد عاما بعد عام ، فوصلت 100000 عام 33 ، 150000 عام 34 الخ .

سالازار يركب الموجـــة :

لا يمكن لأحد أن يتهم سالازار بأنه هو الذي اخترع أطروحة فاطمة ، لأنها بدأت في عام 1917 ، أي قبل أن يصل سالازار إلى السلطة بحوالي 11 عام . ولكن جميع الأحداث والوثائق تظهر بوضوح أن سالازار هو الذي نجح في احتواء هذه الأطروحة . بل وتنميتها

وتشجيعها ، لكي يستغلها في أغراضه السياسية بصفة عامة ، وفي مكافحته للشيوعية بصفة خاصة . وقد أخذت علاقة سالازار بهذه الأطروحة تتطور من مرحلة التهادن ، إلى مرحلة التأييد الصامت ، إلى مرحلة إعطائها طابعا رسميا ، وتغذية وإلهاب الشعور الديني لدى الشعب البرتغـالي .

في 13 أكتوبر 30 أعلن مطران كنيسة ليرا Bishop of Leira أول تقرير رسمي . واستعرض كل ما قاله الأطفال الثلاثة . ثم أعلن أنه لم يرد في أقوالهم أي شيء تتعارض مع الدين أو المثل والمبادىء [17] . ثم أعلن أن قرار الكنيسة هو الاعتراف بأن ما قاله الأطفال الثلاثة حول ظهور العذراء هو حقيقة . ثم أعلن بعد ذلك لقبا جديدا للعذراء وهو «سيدة فاطمة Lady of Fatima » .

في 13 مايو 35 كان احتفال البرتغال بظهور العذراء يكاد يكون رسميا . فقد حضره 300000 من الحجاج من شتى أنحاء البلاد ، يتقدمهم باطرياق البرتغال الكاردينال سيرجايرا Cardinal Cerjeira، ومندوبا للبابا . وكانت أجهزة الحكومة تقدم للحجاج جميع المساعدات الممكنة [18] .

وفي 12 سبتمبر 35 نقلت رفات جاسينتا Jacinta من حيث كانت قد دفنت عام 20 في فيلاّ نوفا دى أورم Vila Nova de Ourem ، إلى مدفن جديد في فاطمة . وفي أبريل 51 نقلت رفاتها مرة أخرى إلى كنيسة كوفا دا ايريا Basilica Cova da Iria وفي نوفمبر من نفس العام نقلت رفات أخيها فرانسيسكو إلى كنيسة الروزاري Rosary Church

وفي 19 سبتمبر 39 أعلن لأول مرة طبيعة وأسلوب الدعوات التي يجب على الناس أن يرددوها في أيام السبت الأول من خمسة شهور متتالية . (أنظر ما ورد في ظهور العذراء الثالث يوم 13 يوليو 1917) [19] .

في عام 1942 ، أذاعت الكنيسة بأن لوسيا تلقت الإذن الالهي بأن تذيع جزئين من السر الذي أطلعتها عليه العذراء خلال ظهورها الثالث . وأن ذلك يشمل المنظر الخاص بجهنم . والجزء الخاص بروسيا (أنظر الظهور الثالث) [19] .

في 20 أبريل 46 (بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بحوالي عام) أذاعت الكنيسة أن لوسيا قد أعلنت قبل انتهاء الحرب ما يلي «ان الله سينهي الحرب قريبا ولكن عودة روسيا إلى الدين لن يحدث . إذا اتبع المطارنة الاسبان ما أوصى به الرب فإن الله سيصلح الناس ويصلح رجال الكنيسة . وإلا فسوف يعاقبهم الله جميعا» .

في ديسمبر 1949 (بعد بداية الحرب العالمية الثانية بأكثر من 10 سنوات ، أعلن الكاردينال سيرجايرا Cardinal Cerjeira بأن لوسيا علمت بالحرب العالمية قبل وقوعها . وأن المسيح قد أخبرها في مايو 38 بأن النهاية تقترب . وأن الحرب بكل أهوالها سوف تقع في القريب . وأنه سيتخذ احتياطات خاصة لوقاية البرتغال من هذه الحرب ، وذلك لأنهم يقيمون الصلاة ، ويرتلون الدعوات في أيام السبت الأوائل في خمس أشهر متتالية .

وفي أغسطس 1958 أقيم في لوكا دو كابيسو Loca do Cabeco ، تمثالا لملاك يسمى ملاك البرتغال وذلك لتمجيد المكان الذي وقف فيه الملاك الذي رافق العذراء في ظهورها الرابع . وذلك على الرغم من أنه لم يثبت قط أن أي من فرانسيسكو أو جاسينتا قد أورى بأن العذراء كان يرافقها أحد الملائكة .

استغلال الدين لخدمة السياسة :

ان ما نسب إلى لوسيا على أنها سمعته من السيدة العذراء أو من المسيح عليه السلام ينقسم إلى قسمين . قسم خاص بالصلاة والدعاء للرب والاستغفار الخ . وقسم خاص بالسياسة . وإننا لن نتحدث عن القسم الأول حيث أن جميع الأديان من يهودية ومسيحية وإسلام تنص على عبادة الرب ، وطلب الصفح والمغفرة الخ . أما القسم الثاني الخاص بالشؤون السياسية فهو يستحق الدراسة والتوقف بعض الشيء ، لأن كل ما نسب إلى لوسيا على أنها سمعته من السيدة العذراء أو السيد المسيح عليه السلام ، يتمشى تماما مع الخط السياسي الذي كان ينتهجه سالازار .

عن الحرب تقول لوسيا أن المسيح أخبرها في مايو 1938 بأن حربا ضروسا سوف تقوم (الحرب العالمية الثانية) . وأنه قال لها أنه سيتخذ احتياطات خاصة لوقاية البرتغال من الحرب . وأن ذلك لأنهم يقيمون الصلاة ويرتلون الدعوات في أيام السبت الأوائل في خمس أشهر متتالية . ويلاحظ أن ذلك يتمشى مع سياسة سالازار الذي أعلن حياد البرتغال خلال تلك الحرب . وأن المرء ليتساءل لماذا ــ وبالرغم من تزايد الدعوات والصلاة خلال الستينات عما كان عليه في الثلاثينات والأربعينات ــ لم يتكلم المسيح أو العذراء كلمة واحدة عن حروب البرتغال الاستعمارية . والتي خسرت فيها حوالي 10000 قتيل ، علاوة على إصابة ثلاثة أضعاف هذا العدد بعاهات مستديمة نتيجة تلك الحروب . ناهيك عن الخسائر التي تحملها سكان المستعمرات والتي تصل إلى حوالي 100000 قتيل . ان الدين المسيحي شأنه في ذلك شأن كل الأديان السماوية ، لا يفرق بين رجل أبيض وأسود ، أو بين حرب تجري في أوروبا وأخرى تجري في أفريقيا .

وعن الكفاح ضد الشيوعية تقول لوسيا - وإن كانت لم تذكر كلمة الشيوعية - أن أخطاء روسيا ستنتشر في جميع أنحاء العالم وستثير الحروب ، وستضطهد الكنيسة ، وستذبح الفضيلة ، وستمحو كثيرا من الشعوب . ومن المعروف أن سالازار كان من ألدّ أعداء الشيوعية والاتحاد السوفيتي . ومما يدعو للغرابة حقا ، أن طفلة عمرها عشر سنوات لا تقرأ ولا تكتب ، تتلقى هذه المعلومات في 13 يوليو 1917 ، ولا تذاع إلا في عام 1942 .

من المعروف أن نظام سالازار كان نظاما أوتوقراطيا يسيطر على جميع وسائل الإعلام . وأنه ما من كلمة مكتوبة أو مسموعة أو صورة ، يمكن أن يقرأها أو يسمعها أو يراها الشعب البرتغالي ، إلا إذا كانت تمر من خلال الرقيب . وأن ذلك يدفعنا إلى التشكك في صحة ما كان ينسبه الإعلام السالازاري إلى لوسيا . فقد كانت لوسيا منذ عام 1922 في شبه عزلة تامة عن العالم . وكان إعلام سالازار هو الذي يعلن من وقت إلى آخر بيانات ينسبها إلى لوسيا . ولا يعلم إلا الله والقليل من الناس ممن قابلوا لوسيا ، بما قالته هي فعلا .

ولكي يضفي سالازار القدسية على كل ما يعلن منسوبا إلى لوسيا ، فإنه لم يعلن قط نبوءة منسوبة اليها قبل أن تتحقق فعلا ، وذلك إذا افترضنا وقوع النبوءة فعلا . فبعد الحرب العالمية الثانية أذاع الإعلام السالازاري بأن المسيح أخبر لوسيا بأن الحرب ستندلع وذلك قبل أن تبدأ الحرب فعلا . وأن المسيح أخبرها أيضا بأن الحرب ستنتهي قبل أن تنتهي بصفة رسمية . وأن المرء ليسأل لماذا حرص الإعلام السالازاري على إخفاء هذه التنبوءات ولم يعلنها إلا بعد تمام وقوعها ؟

ان استغلال الحكام للدين لتحقيق أهداف سياسية هو أمر معروف منذ آلاف السنين . ان رجال الدين هم بشر كسائر البشر يصيبون أحيانا ويخطئون أحيانا . منهم من لا يشتري (بضم الياء) بذهب الأرض كله . ومنهم من قد تفتنه الحياة الدنيا ، أو يخشى أن يبطش به الحاكم ، فيبرر للحاكم الظالم أفعاله . والحاكم الظالم المتجبر من أمثال سالازار ، يستطيع دائما أن يجد بين رجال الدين من يتعاون معه وينفذ له رغباته . لذلك فإن أقوال رجال الدين التي تؤيد وجهة نظر الحاكم الأوتوقراطي يجب أن تؤخذ بحذر شديد .

أطروحة فاطمة الآن :

بعد نجاح الثورة في البرتغال تغيرت كل المفاهيم ، ولكن الأوضاع الموروثة لم يكن من السهل تغييرها بين يوم وليلة . لقد تحققت الديموقراطية ، وظهرت أربعة أحزاب رئيسية كما سبق أن قلنا . كان إثنان منها يمثلان اليمين وإثنان منها يمثلان اليسار . كانت أحزاب اليمين هي حزب الوسط الديموقراطي الاجتماعي .C.D.S ، وحزب الاشتراكيون الديموقراطيون

P.S.D (16,23٪ ، 27,55٪ على التوالي) . وكانت أحزاب اليسار هي الحزب الاشتراكي .P.S ، الحزب الشيوعي (40,75٪ ، بـ 15,1٪ على التوالي) . أي أن اليمين يمثل حوالي 44٪ بينما اليسار يمثل 56٪ .

كان الإعلام السالازاري قد استطاع أن يرسخ في عقول الناس ، أن كل من ينادي بالاشتراكية هو شيوعي . لأن الدين ضد الاشتراكية ، والشيوعية هي كفر وإلحاد . وقد لعبت أطروحة فاطمة دورا هاما في ترسيخ تلك المعتقدات ، وكان يقدر عدد الحجاج يوم 13 مايو من كل عام بحوالي 500000 حاج ومثلها في 13 أكتوبر وأقل من ذلك في الأشهر الأخرى . أي أن فاطمة يحج اليها ما بين 1,25 ـ 1,5 مليون شخص سنويا . وهذا عدد ضخم بالنسبة لبلد تعداد سكانه حوالي 8 مليون فقط .

ورغبة في الاستفادة من هذا التراث ، فإن الأحزاب اليمينية في البرتغال أخذت تعمل على إذكاء الشعور الديني بين المواطنين بما في ذلك ترسيخ الإيمان بأطروحة فاطمة . أما الحزب الشيوعي فأخذ يردد أن أصحاب الأرض والمصانع ورؤوس الأموال يريدون أن يستغلوا الطبقات الكادحة باسم الدين . وأن العمال يجب أن يتحدوا تحت زعامة الحزب الشيوعي لكي ينتزعو حقوقهم ممن يريدون استغلالهم . أما الحزب الاشتراكي فقد وجد نفسه في مأزق . فإنه يريد أن يحقق العدالة الاجتماعية بين الشعب ولكنه يحرص على ألا يتهمه أحد بالشيوعية . ولتحقيق ذلك رفع الحزب شعارا انتخابيا هو «نعم للاشتراكية لا للشيوعية Socialism Sim. Comunism Não » . ونتيجة لهذا الصراع السياسي الذي يتم تحت مظلة الدين ، حصلت الأحزاب على النتائج السابق ذكرها . وخلاصة القول فإن الدين يلعب دورا هاما في الصراع السياسي بصفة عامة . وتزداد أهمية هذا الدور حيث تكون الجذور الدينية أكثر عمقا وتكون العقيدة أكثر رسوخا .

زيـارة فـاطمـــة :

لم أكتف بدراسة أطروحة فاطمة في لشبونة وحسب ، بل قررت أن أذهب إلى هناك بنفسي لمدة ثلاثة أيام في أحد أيام الحج الهامة . وفي يوم 12 مايو 77 وصلت إلى هناك فرأيت شيئا عجبا . رأيت ميدانا طوله 600 متر بعرض حوالي 400 متر حول المكان الذي يفترض أن تكون العذراء قد ظهرت فيه . رأيت 500000 شخص من الرجال والنساء والأطفال يفدون إلى القرية الصغيرة التي تحولت إلى مهرجان شعبي . رأيت أناسا يزحفون على ركبهم ، لكي يوفوا بنذورهم إلى العذراء . كانوا يتحركون والدماء تسيل منهم ، والآلام تبدو على وجوههم . بينما يقوم أقاربهم وأصدقاؤهم بتجفيف عرقهم . ومسح الدماء التي تسيل

منهم . رأيت الرجال والنساء الذين في خدمة الصليب الأحمر ، يحاولون أن يثنوا بعض الرجال أو النساء عن الاستمرار في رحلة العذاب التي فرضوها على أنفسهم ، ولكنهم كانوا يرفضون ويستمرون حتى يغمى عليهم من شدة الألم والإرهاق . رأيت الرجال والنساء والأطفال يبيتون في العراء ، وسعيد الحظ منهم هو من يستطيع أن ينام هو وعائلته في عربته . رأيتهم وهم يرددون الدعوات . ورأيتهم وهم يزفون تمثال العذراء في الميدان الكبير في احتفال مهيب .

لقد أصبحت أطروحة فاطمة جزءا لا يتجزأ من العقيدة الدينية والنظام السياسي في البرتغال . ان الثورة البرتغالية لم تحاول أن تتدخل في هذه الأطروحة ، إلا من ناحية الشكل فقط . كان سالازار يفتتح هذه الاحتفالات وكان يشترك في حضورها رجال الحكومة وسفراء الدول المعتمدين في البرتغال . ولكن هذا التقليد أصبح غير مرعي بعد الثورة . أما كل ما عدا ذلك فقد ظل قائما كما كان . فبالإضافة إلى ما تقدمه الدولة من خدمات للحجاج فإنها تقوم بتقديم التسهيلات اللازمة لآلاف المتطوعين والمتطوعات الذين يساعدون في شتى الأعمال لخدمة الحجاج .

وبينما كنت أسير ليلا أنا وزوجتي في هذا الميدان الفسيح وإذا بإحدى الممرضات تتعرف علينا وتسرع للقائنا . وعرفنا فيها الكونتيسه بالميلا Countesse Palmela وهي سيدة مجتمع أرستقراطية ، كنا قد تعرفنا عليها في إحدى الحفلات . ودار بيننا حديث قصير لم يخلو من التعليق السياسي . فقد قالت الكونتيسه بفخر وثقة «أنظر يا جنرال إلى هذه الجموع المحتشدة . ان الشيوعية لن تنتصر في البرتغال وفاطمة موجودة . ان كونيال Cunhal (تقصد بذلك زعيم الحزب الشيوعي) لن يستطيع أن يقنع هؤلاء الناس بالشيوعية» فقلت لها «أظنك على حق يا كونتيسه . ولا شك أن وجودك هنا اليوم وتطوعك للقيام بعملك هذا هو في حد ذاته عمل جاد لكي يحقق هذا الهدف» .

البَابُ الثالث

تطوّر العَلاقات بَيني وَبين السَّادَات

الفصل الحادي عشر

مرحلة التعاون

بحلول الساعة الثامنة من صباح يوم الأثنين 19 يونيو 78 كان قد تم توزيع البيان الذي أهاجم فيه السادات ونظامه . وفي هذا البيان اتهمت السادات بالنفاق السياسي وأنه يدعي الديموقراطية ويمارس الديكتاتورية . وأن سياسته الخارجية فاشلة ويستحيل من خلالها أن يتحقق سلام عادل . وأنه يسحق الطبقات الكادحة في مصر تحت شعار المحافظة على السلام الاجتماعي . وأنه استغل منصبه وأصدر مذكراته التي ملأها بالأكاذيب والقصص المختلفة [20] .

وإذا كان يوم 19 يونيو 78 هو يوم إعلان المجابهة السافرة بيني وبين السادات ، فإن هذا اليوم لم يكن إلا نهاية سلسلة من المصادمات والخلافات التي بدأت خلال أكتوبر 73 ، ثم أخذت تتفاعل وتتعاظم خلال ما يزيد قليلا عن أربع سنوات ونصف ، إلى أن وقع الانفجار في هذا اليوم . وقد مرت علاقتي مع السادات بثلاثة مراحل رئيسية : مرحلة التعاون ، مرحلة الخلاف ، مرحلة المجابهة .

كانت مرحلة التعاون ما بين مايو 71 وحتى أكتوبر 73 . وكانت مرحلة الخلاف ما بين أكتوبر 73 وحتى يونيو 78 . وكانت مرحلة المجابهة ما بين يونيو 78 وحتى آخر يوم في حياته .

قبل قيام ثورة 23 يوليو 1952 كنت على علاقة طيبة بالغالبية العظمى من العناصر القيادية في الضباط الأحرار والذين تشكل منهم فيما بعد مجلس قيادة الثورة . وقد بدأت علاقتي ببعضهم خلال فجر شبابنا عندما كنا طلبة في الكلية الحربية ، وبدأت مع البعض الآخر خلال السنوات الأولى لخدمتنا في القوات المسلحة حيث كنا نلتقي في مناسبات عدة . وقد كانت هذه المرحلة من شبابنا هي أنقى مراحل حياتنا ، حيث كان كل واحد منا يعرف

الآخر على حقيقته ، قبل أن تفتنه السلطة . ولعل أنور السادات هو الوحيد من بين أعضاء مجلس قيادة أعضاء الثورة ، الذي لم التق به قط قبل قيام الثورة . وقد يرجع ذلك إلى قصر المدة التي قضاها في الجيش والتي كانت لا تزيد في مجموعها عن خمس سنوات .

وفيا بين يوليو 52 وحتى وفاة عبد الناصر ، لم يكن هناك أي اتصال بيني وبين السادات . وبالتالي كانت معلوماتي عنه محدودة جدا . وكانت تتلخص في أنه رجل مطيع جدا لمن بيده السلطة ولا يعارضه أبدا . أي أنه رجل نعم . كان المشير عبد الحكيم عامر يدعوه أحيانا لحضور بعض المؤتمرات التي يعقدها مع القادة العسكريين في اليمن . وفي هذه الاجتماعات كنت أرى السادات جالسا بجوار المشير عبد الحكيم عامر لا يتكلم ، ولا يعلق بكلمة واحدة . كذلك كان عبد الناصر يحضره معه في بعض لقاءاته مع المجلس الأعلى للقوات المسلحة ، وكان السادات لا ينبس بكلمة واحدة خلال هذه المؤتمرات . كان صمت السادات المطلق خلال هذه المؤتمرات ، يؤكد ما عرف عنه بين الضباط وغيرهم بأنه رجل نعم .

في خلال الفترة ما بين انتخاب السادات رئيسا للجمهورية في أكتوبر 70 ، وإلى أن قام بانقلاب 15 مايو 71 ، لم أقابل السادات سوى أربعةمرات فقط . كان ذلك خلال المؤتمرات التي عقدها بصفته رئيسا للجمهورية لكي يلتقي بكبار الضباط . وقد تم المؤتمر الأول يوم 19 أكتوبر 70 ، وتم المؤتمر الثاني يوم 30 ديسمبر من نفس العام ، وتم المؤتمر الثالث في 23 مارس 71 ، وتم المؤتمر الرابع في 11 مايو 71 . لقد كان المؤتمر الأول للتعارف بين الرئيس وكبار القادة . وفي هذا المؤتمر أعلن السادات أمامنا بأنه سوف يلتزم بسياسة عبد الناصر الداخلية والخارجية . وفي المؤتمر الثاني والثالث ركز هجومه على امريكا وعلى الدول العربية التي تتعامل مع أمريكا ، وأثنى على الاتحاد السوفيتي وما يقدمه لنا من مساعدات . وفي خلال مؤتمره الرابع شرح لنا المبادرة التي كان قد تقدم بها في فبراير 71 ، وما دار بينه وبين روجرز خلال زيارته للقاهرة والتي كانت قد تمت قبل عقد هذا المؤتمر ببضعة أيام فقط . وكرر الرئيس ما سبق أن قاله في المؤتمرات الأخرى ، فأثنى على الاتحاد السوفيتي . وقال ان الاتحاد السوفيتي يقوم ببناء مشروعات صناعية في مصر قيمتها 460 مليون دولار . وأن هذا سيمكننا من بناء القاعدة الاقتصادية التي هي أساس الاستقلال السياسي . ومن خلال هذه المؤتمرات الأربعة ، بدأت أعرف السادات لأول مرة . وقد كان انطباعي عنه هو أنه لا يعدو أن يكون امتدادا لنفس النظام الذي كان قائما أيام عبد الناصر .

أما الفترة ما بين 16 مايو 71 وحتى أكتوبر 73 فقد كانت هي فترة التعاون الحقيقي بيني وبين السادات . لقد عينت رئيسا للأركان العامة للقوات المسلحة يوم 16 مايو 71 وكان ذلك بعد يوم واحد من قيام السادات بانقلاب يوم 15 مايو ، حتى تصور البعض وكأنني

أحد عناصر هذا الانقلاب ، ولكن الحقيقة هي غير ذلك . لقد عدت إلى مركز قيادتي في منطقة البحر الأحمر بعد حضور مؤتمر يوم 11 مايو ولم أعد إلى القاهرة إلا يوم 16 مايو بناء على طلب عاجل من الفريق محمد صادق في ساعة متأخرة من يوم 15 . وعند وصولي إلى القاهرة كان السادات قد تخلص تماما من كل خصومه . قد يقول بعض الناس أن قبولي منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة في هذه المرحلة المتقدمة من الانقلاب ، يعتبر في حد ذاته تأييدا وتدعيما لهذا الانقلاب الوليد الذي يحتاج إلى من يحميه ويؤيده . قد يكون لديهم بعض الحق في ذلك إذا افترضنا معهم على أن ما قام به السادات يوم 15 مايو هو انقلاب ضد السلطة الشرعية . ولكن هذه الحقيقة لازالت مثار جدل حتى وقتنا هذا .

لقد اختلفت الآراء حول حركة 15 مايو . هل هي انقلاب ضد السلطة الشرعية كما يصفها البعض ؟ أم هي حركة تصحيح لثورة 23 يوليو كما كان يصفها السادات خلال الثلاث سنوات الأولى من وقوعها ؟ أم هل هي ثورة كما يحلو للبعض أن يصفها منذ 1974 ؟ وفي تصوري فإن جميع هذه التعاريف غير صحيحة بل ومضللة . لقد كان السادات هو السلطة الشرعية يوم 15 مايو ، ولم تكن القواعد الشعبية تدري بما يدور من صراع على مستوى القمة . وإذا كان هناك مأخذ على هذا التعتيم الإعلامي ، فإن المسؤولية الكبرى في ذلك تقع على عاتق النظام الذي تعمد دائما ألا يشرك الشعب في اتخاذ القرار . وأنه في استطاعتنا اليوم وبعد مرور تسع سنوات على هذه الأحداث ، أن نتصور مدى التعتيم الإعلامي الذي يفرضه أصحاب السلطة على الشعب المصري ، إذا نحن قرأنا مذكرات كل من السادات وعلي صبري .

يدعي السادات في الصفحة 299 من مذكراته التي نشرت عام 78 بأن اللجنة المركزية انعقدت يوم 25 أبريل 71 وأيدت مشروع الاتحاد بين مصر وسوريا وليبيا ، كما هو . وهو لذلك يقول «وهكذا انتهى اختبار القوة معي إلى انتصاري المطلق» أما إذا قرأنا مذكرات علي صبري والتي نشرت عام 79 في مجلة 23 يوليو التي تصدر في لندن ، فإننا نجد أنفسنا أمام رواية مختلفة تماما . يقول علي صبري في العدد 16 من المجلة المذكورة (18 يونيو 79) بأن غالبية اللجنة المركزية كانت تؤيده . وأن ذلك ظهر عندما أراد السادات أن يوقفه عن الكلام فاحتج الأفراد وزاد ضجيجهم مما اضطر السادات إلى أن يأخذ الأصوات . فأيدت الغالبية العظمى من اللجنة المركزية قرارا بضرورة استمرار علي صبري في الكلام وبدون مقاطعة من الرئيس ، وأن الذين عارضوا ذلك هم 15 عضو فقط . ويقول علي صبري أيضا في نفس المذكرات أن الدكتور مصطفى أبو زيد تدخل واقترح بعض التعديلات على صيغة مشروع الاتحاد الذي كان قد تم التوقيع عليه في بنغازي ، لكي يجعل هذا المشروع

مقبولا لدى السيد علي صبري ومؤيديه . وأنه بعد إدخال هذه التعديلات وافقت اللجنة المركزية على المشروع بالإجماع . ولم يذكر السادات في مذكراته شيئا عن اجتماع الهيئة البرلمانية للاتحاد الاشتراكي الذي انعقدت يوم 29 أبريل ، في حين يروي لنا علي صبري في العدد 17 من مجلة 23 يوليو بأنه لم يحضر هذا الاجتماع ولكنه سمع من محمد فايق وزير الإعلام والذي حضر هذا الاجتماع ، بأن الجلسة سادها القلق والاضطراب .

وكما قلت فإن الصراع كان يدور على مستوى القمة السياسية ، دون أن يعلم الشعب شيئا عما كان يجري على مستوى هذه القمة . ان كل ما أعلنته وسائل الإعلام المختلفة في ذلك الوقت هو إقالة علي صبري في 2 مايو ، ثم أعلن بعد ذلك استقالة خمسة وزراء من بينهم وزير الحربية ، صباح يوم 14 مايو [21] . ثم قام السادات بتوجيه خطاب للشعب وأعلن فيه أن هؤلاء المستقلين كانوا يريدون أن يفرضوا وصايتهم عليه متجاهلين بذلك سلطاته الدستورية ، وقد كان هذا التبرير معقولا ومقبولا في مثل هذا التاريخ . كان الشعب قد تعود في ظل نظام عبد الناصر أن السلطة الحقيقية تتركز في يد رئيس الجمهورية . وأن ما دون ذلك من مؤسسات فهي لا تعدو أن تكون مؤسسات شكلية لا سلطة لها على أحد . لقد كنا نعلم جميعا أن اللجنة التنفيذية العليا ، واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي ما كانت لتجرؤ أن تتخذ قرارا يخالف القرار الذي يريده جمال عبد الناصر . وأن قصة القرار الذي اتخذته اللجنة التنفيذية العليا في شهر يوليو 70 برفض مبادرة روجرز أثناء زيارة عبد الناصر في موسكو، ثم تراجعها عن هذا القرار بمجرد أن علمت بأن عبد الناصر قد قرر قبول المبادرة ، هو دليل قاطع على أن هذه المؤسسات الدستورية ، لم تكن سوى هيئات استشارية للرئيس ، وأنها لم تكن تملك السلطة التي يمكنها من فرض قرارها عليه . ومن هنا فإن الادعاء بأن حركة السادات يوم 15 مايو هي انقلاب ضد المؤسسات الدستورية هو اتهام لا يستند إلى الواقع أو الممارسات السابقة .

وإذا لم تكن حركة 15 مايو 71 هي انقلابا ضد المؤسسات الدستورية الشرعية فهل كانت حقا تصحيحا لمسار ثورة 23 يوليو؟ مرة أخرى أقول أن هذا التعبير ليس صحيحا ، لأن التصحيح يكون دائما إلى الأفضل ، في حين أن حركة 15 مايو لم تأتِ لنا بشيء جديد . ان مسار السياسة الخارجية والاقتصادية والداخلية لم يتغير عما كان عليه أيام جما عبد الناصر . لقد اختلف السادات مع السوفيت . ولكنه ظل يردد خلال هذه المرحلة أن صداقتنا مع السوفيت هي صداقة استراتيجية . وأن أمريكا هي العدو الأول للعرب ، لأنها هي التي تمد إسرائيل بالسلاح الذي يمكنها من احتلال الأراضي العربية . وقد فسر السادات خلافه مع السوفيت على أنه خلاف تكتيكي وليس خلافا استراتيجيا ، وكذلك فعل عبد الناصر عندما

اختلف مع السوفيت في عدة مرات سابقة . كذلك فقد استمر المسار الاقتصادي للبلاد كما كان أيام عبد الناصر وبدون أي تغيير . وفي المجال الداخلي فإن السادات لم يتخذ أي خطوة ، بل أنه لم يعلن أيضا أن في نيته أن يجري أي تغيير ، في البنية التنظيمية للنظام الذي ورثه عن عبد الناصر . فقد بقي التنظيم السياسي كما هو . وبقي الدستور كما هو . وبقيت القوانين كما هي . وفي مجال القوات المسلحة فقد استمر السادات في تقوية القوات المسلحة وإمدادها بالأسلحة المتطورة . وقد ازدادت قدرات القوات المسلحة خلال الفترة من مايو 71 وحتى أكتوبر 73 بحوالي 30٪ وزاد عدد أفرادها خلال تلك الفترة وحدها بمقدار 400000 رجـــل .

لذلك فإن أي نظرة غير متحيزة سوف تكتشف أن تلك الفترة (من 15 مايو 71 وحتى حرب أكتوبر 73) ، لم تكن في الحقيقة تصحيحا لمسار ثورة 23 يوليو ، وإنما كانت استمرارية لنظام عبد الناصر . لم يكن فيها شيئا من الإصلاح . كما أنه لم يكن فيها شيئا من الانحراف الملمـوس .

أما القول بأن حركة 15 مايو هي ثورة فهو قول لا يستحق أن نبحثه . إنه قول المنافقين الذين يأكلون على كل الموائد ويزينون أعمال الشياطين لأسيادهم . وخلاصة القول فإن حركة 15 مايو لم تكن سوى صراع على السلطة ، بين رئيس الجمهورية الذي كان يريد أن يحتفظ لنفسه بجميع الحقوق التي كان يتمتع بها سلفه ، وبين مجموعة من السياسيين كانوا يريدون أن يستفيدوا من موت عبد الناصر ، فيغتصبوا السلطة لأنفسهم . أما الشعب فلم يكن طرفا في هذا الصراع ، وذلك على الرغم من أن كل القوى المتصارعة كانت تدعي بأنها تتكلم باسمـه .

الفصل الثاني عشر

مرحلة الخلاف

فيا بين نوفمبر 73 ونوفمبر 78 ، كانت هناك تحركات كثيرة للسادات توحي جميعها بأنه أخذ ينحرف بمسار ثورة 23 يوليو . ولكن السادات خلال هذه المرحلة كان حريصا على أن يخفي المعاني الحقيقية لهذه التحركات ، والأهداف البعيدة التي كان يرمي إلى تحقيقها . كان يحاول أن يخدع كل من حوله من السياسيين ومن عامة الشعب ، وذلك بإعطاء تفسيرات خاطئة عن تلك التحركات المريبة التي كان يقوم بها .

السياسة الخارجية :

في مجال العلاقة بين مصر والدولتين الأعظم ، نجد أن السادات أخذ يتحول عما كان ينادي به من صداقة استراتيجية مع الاتحاد السوفيتي ، إلى صداقة استراتيجية مع الولايات المتحدة . وقد قام بتنفيذ ذلك على مراحل . وكانت البداية هي إعادة تبادل التمثيل الديبلوماسي مع الولات المتحدة في 28 فبراير 74 ، والذي كان قد قطع منذ يونيو 67 . وفي 15 مارس 76 ألغى معاهدة الصداقة التي كان قد عقدها هو مع الاتحاد السوفيتي في مايو 71 . وفي 26 مارس من نفس العام ألغى التسهيلات التي كانت مصر قد منحتها لسفن الأسطول السوفيتي . وفي 26 أكتوبر 77 أعلن السادات تجميد دفع الديون إلى الاتحاد السوفيتي . وفيما يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي ، حرص السادات على أن يستبعد الاتحاد السوفيتي من أي مساهمة في الجهود التي تبذل لتسوية هذا الصراع . وارتمى تحت أقدام الولايات المتحدة واتخذها كبديل لهيئة الأمم المتحدة . وهكذا تمت كل من اتفاقية فصل القوات في 24 يناير 74 ، واتفاقية سيناء في 24 سبتمبر 75 بين مصر وإسرائيل تحت إشراف الولايات المتحدة . ولكي يقنع

الناس بهذا التحول أخذ السادات يردد أن الولايات المتحدة تملك 99٪ من أوراق الحل في يدهـا .

وفي مجال العلاقات العربية ، وافق السادات في مؤتمر الملوك والرؤساء العرب الذي عقد في الرباط 26 ـ 29 أكتوبر 74 ، على أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد لكل الفلسطينيين . وأكد السادات ذلك في حديث له مع جريدة لومند الفرنسية في 22 يناير 75 . فشجب في هذا الحديث أي محاولة قد تقوم بها إسرائيل بإعادة الضفة الغربية أو جزء منها إلى الأردن ، مؤكدا أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للفلسطينيين . ولكن السادات نفسه أعلن في 30 ديسمبر 76 بأن الأراضي الفلسطينية بعد تحريرها يجب أن تكون جزءا من الأردن . وأكد هذا الرأي مرة أخرى في مقابلة تمت بينه وبين وزير الخارجية الأمريكي في القاهرة في 17 فبراير 77 . كذلك اتفق السادات مع الملوك والرؤساء العرب في مؤتمر الرباط 74 بأنه لا يجوز لأي دولة عربية أن تعقد صلحا منفردا أو تسوية منفردة مع إسرائيل ، ومع ذلك فقبل أن يمر عام واحد على هذا المؤتمر ، كان السادات قد وقع على اتفاقية سيناء في سبتمبر 75 . وقد دافع السادات عن ذلك بأن اتفاقية سيناء ليست تسوية منفردة . في حين أن المادة رقم واحد ورقم إثنين من هذه الاتفاقية تؤكد عدم التجاء أي من الطرفين إلى القوة في حل أي نزاع بينهما ، كما تؤكد عدم قيام أي من الدولتين بالتهديد باستخدام القوة أو إقامة أي حصار على الدولة الأخرى . وأن إقرار مصر بذلك يحرمها من حقها في تقديم أي مساعدة عسكرية لأي دولة عربية سواء بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر ، إذا ما اعتدت عليها إسرائيل . وهذا يعني أن مصر قد انسلخت عن المجموعة العربية .

ولكي يثبت للشعب المصري وللدول العربية بأنه لا يسير في طريق السلام، فقد حرص السادات دائما أن يظهر بمظهر الحريص على تقوية القوات المسلحة المصرية وتجهيزها بالسلاح المتطور ، في الوقت الذي كان يضمر فيه عكس ذلك تماما . وتنفيذا لسياسة الخداع هذه ، فقد أعلن في مجلس الشعب المصري يوم 18 أبريل 74 شعار تنويع مصادر السلاح . وفي 29 يناير 75 أعلن أثناء زيارة رسمية له في فرنسا نبأ قيامه بعقد صفقة أسلحة قيمتها 2200 مليون دولار . وفي 11 مايو 75 اتفقت مصر مع كل من السعودية وقطر والإمارات العربية على إنشاء الهيئة العربية للتصنيع برأس مال قدره 1200 مليون دولار . وفي أثناء زيارة رسمية قام بها وزير خارجية مصر إلى المملكة المتحدة 10 ـ 13 يونيو 75 ، أعلنت أجهزة الإعلام المصرية أنه تم عقد صفقة سلاح بمبلغ 450 مليون جنيه استرليني (1000 مليون دولار) .

ووسط هذا الإغراق الإعلامي الكاذب ، تصور الناس أن السادات يعمل فعلا على تقوية القوات المسلحة المصرية وليس العكس .

ونتيجة لهذه المناورات ، فإن السادات لم ينجح في خديعة الغالبية العظمى من الشعب المصري فحسب ، بل أنه نجح أيضا في خديعة الدول العربية جنميعها . واستطاع خلال هذه الفترة (أكتوبر 73 وحتى أكتوبر 77) أن يحصل على الدعم الاقتصادي من الدول العربية المحافظة ، وأن يحتفظ بعلاقات سياسية حسنة مع الدول العربية التقدمية . وفيما عدا فترة عشرة شهور من الخلاف مع سوريا جاءت في أعقاب التوقيع على اتفاقية سيناء في سبتمبر 75 ، ومثلها مع ليبيا خلال عام 77 ، فإن علاقة السادات مع جميع الدول العربية كانت جيدة . ولم تصل إلى مستوى قطع العلاقات الديبلوماسية أو إدانة تلك التحركات الساداتية بشكل رسمي ، كما حدث بعد ذلك .

السياسة الاقتصاديـــة :

وفي المجال الاقتصادي ، كان السادات يرمي منذ البداية إلى تحويل المسار الاقتصادي إلى سياسة الاقتصاد الحر ، أو ما أطلق عليه بسياسة الانفتاح Open door policy . وقد بدأ تنفيذ هذه السياسة بشن حملة شعواء على سياسة الاقتصاد الموجه ، التي كانت متبعة منذ قيام الثورة وحتى عام 73 . فأخذ يدعي بأن اقتصاد مصر كان قد وصل قبل حرب أكتوبر 73 إلى ما هو تحت الصفر. ومن الملاحظ أن السادات عندما يريد الخداع فإنه يستخدم التعبيرات الديماجوجية ويبتعد عن ذكر الأرقام والتواريخ . ان الأرقام والتواريخ لا تعرف الكذب . أما هذه التعبيرات الديماجوجية من أمثال اقتصاد تحت الصفر ، فإنها لا تعني أي شيء ، ولكنها كفيلة بأن تخدع الكثير من البسطاء . ولكي نوضح الأمور بالأرقام فإننا نقول أن ديون مصر الخارجية حتى نهاية عام 1970 (السادات تولى رئاسة الجمهورية في أكتوبر 70) بلغت 1639 مليون دولار . فإذا علمنا أن تعداد مصر في ذلك الوقت كان 33450000 نسمة فإن ذلك يعني أن ديون مصر الخارجية كانت بمعدل 49 دولار على الرأس الواحدة .

وفي خلال حكم السادات ، وفي ظل سياسة الانفتاح الذي أخذ يناي بها اعتبارا من عام 74 تعاظمت الديون بشكل يثير الفزع . وأخذت مصر تقترض ، لا لتقيم المصانع ، ولا لتصلح الأراضي ، ولا لتزيد من الدخل القومي الحقيقي ، ولكن لكي تغرق السوق المحلي بالسلع الكمالية ، التي يكتسب بها السادات رضاء الطبقة البورجوازية . ونتيجة لهذه السياسة اختفت السلع الضرورية من السوق ، وارتفعت أسعارها ارتفاعا شديدا لا يتناسب مع دخول

الطبقة الكادحة ومحدودي الدخل . وقد أدى ذلك إلى انتفاضة الجماهير في يومي 18 ـ 19 يناير 1977 ، مما دفع حكومة السادات إلى التدخل وقمع تلك المظاهرات بعنف وقسوة . وطبقا لبيان الحكومة فقد سقط في هذين اليومين 79 قتيلا ، 214 جريحا . ولكن انتفاضة 18 ، 19 يناير كانت مؤشر حيا لما وصل اليه الاقتصاد المصري من تدهور .

وفي خلال 10 ـ 12 مايو 77 عقد في باريس اجتماعا حضره 13 دولة مقرضة (أمريكا ـ كندا ـ ألمانيا الغربية ـ بريطانيا ـ فرنسا ـ إيطاليا ـ هولندا ـ اليابان ـ إيران ـ السعودية ـ الكويت ـ الإمارات العربية ـ قطر) وحضر معهم الدكتور القيسوني نائب رئيس الوزراء المصري . لقد كان الغرض من هذا الاجتماع ، هو فرض بعض القيود على مصر من قبل الدول المقرضة فيما يتعلق بأوجه صرف القروض التي تتلقاها مصر من هذه الدول . لقد شعرت هذه الدول بأن الاقتصاد المصري في حالة سيئة . وأنه يجب أن يكون لها صوت مسموع في تسيير الاقتصاد المصري ، حتى تضمن إمكانية قيام مصر بالوفاء بديونها . وأنه لمن المحزن حقا أن ما حدث في باريس 1977 هو تكرار لما حدث قبل ذلك بمائة عام ، عندما تدهور الاقتصاد المصري نتيجة الإسراف والإنفاق التفاخري الذي كانت تنفقه مصر ابان حكم الخديوي اسماعيل . وأمام هذا المؤتمر الدولي ، أعلن الدكتور القيسوني أن ديون مصر بلغت 10500 مليون دولار ، منها 3700 مليون دولار للاتحاد السوفيتي ودول الكتلة الشرقية ، 6800 مليون دولار للدول الغربية والدول العربية . وحيث أن تعداد مصر عام 77 كان 38880000 نسمة فإن ذلك يعني أن متوسط الدين على كل رأس في مصر قد بلغ 270 دولار . وأن هذا يعني ببساطة ، أن متوسط الدين على كل رأس في منتصف عام 77 قد ارتفع إلى أكثر من خمسة أمثال ونصف ، عما كان عليه عام 70 . وإذا قارنا نسبة الديون إلى الدخل القومي نجد أنها كانت في عام 70 هي 24,5٪ ثم قفزت إلى 79٪ من الدخل القومي عام 77 .

ولكي تستطيع مصر أن تستبدل قروضها القصيرة الأجل ـ والتي كانت شروطها مجحفه ، بأخرى طويلة الأمد وبشروط أقل إجحافا . ولكي يزداد الاقتصاد المصري ارتباطا بالدول الغربية . ولكي يصبح السادات أكثر خضوعا لهذه الدول في المجال السياسي ، قررت هذه الدول بأن تمنح مصر ديونا أخرى قدرها 13800 مليون دولار خلال الأربع سنوات التالية . بحيث يسلم اليها خلال عام 77 وحده قروضا قدرها 5400 مليون دولار ، وأن تقرض بعد ذلك ما يوازي 2800 مليون دولار في كل من الأعوام 78 ، 79 ، 80 .

لقد بدأ السادات ينادي بسياسة الانفتاح الاقتصادي اعتبارا من عام 74 . وتحت هذا الشعار صدرت عشرات القوانين التي أدت إلى تغيير المسار الاقتصادي والاجتماعي

لثورة 23 يوليو 52 . وفي ظل شعار الانفتاح ، أخذ السادات ومن يسير في ركابه يبشرون المصريين بأن هذه السياسة هي الحل الوحيد لكل مشاكلهم . ولم يتورع السادات ومعاونيه من أن يعدوا الشعب بوعود هم أول من يعلم بأنها لن تتحقق . لم يكن ذلك يهمهم في شيء ان كل ما كان يهمهم هو أن يقوموا بإلهاء الشعب عن حاضره حتى يصبرعلى ما هو فيه من بلاء . وأن يعدوه بما يخدر أعصابه ويبعث فيه الأمل بالمستقبل . ومن الأمثلة الفاضحة على ذلك ما طالعتنا به جريدة الأهرام في 12 يونيو 77 تحت عنوان «بدأت وزارة الزراعة في تنفيذتوجيهات الرئيس» . وتقول الجريدة أن المهندس إبراهيم شكري وزير الزراعة أعلن في مؤتمر صحفي عاجل دعى اليه أمس بأن الوزارة قد وضعت خطة على أساس إصلاح 4,5 مليون فدان حتى عام 1980 . وأن هذه الأراضي التي ستقوم الوزارة بإصلاحها هي متناثرة في مناطق شمال الدلتا ، وشرقها ، وغربها وعلى طول الوجه القبلي والوادي الجديد . وها نحن الآن في عام 1980 دون أن يتحقق ولو 1٪ من هذه الوعود .

والسادات كعادته دائما يحاول أن ينسب أي فشل يقع فيه إلى غيره من الناس ، أو أن يبرر هذا الفشل بأسباب مختلفة لا تمت إلى الأسباب الحقيقية بصلة . إنه يدعي أن حرب أكتوبر 73 هي السبب الرئيسي لتدهور الموقف الاقتصادي المصري . وأننا لا ننكر أن فترة الاستعداد لهذه الحرب قد كلفت مصر الكثير من الأموال . ولكننا نختلف مع السادات من حيث أن هذه الحرب هي السبب الرئيسي لتدهور اقتصاد بلادنا . ان القوات التي دخلنا بها حرب أكتوبر 73 كان قد تم بناء ثلثيها قبل وفاة عبد الناصر . ومع ذلك لم تزد ديون مصر عند وفاة عبد الناصر عن 1639 مليون دولار . ان ثمن الأسلحة التي اشتريناها من الاتحاد السوفيتي خلال الأعوام 71 ، 72 ، 73 لم تزد عن 750 مليون دولار ، فلو أننا اعتبرنا أننا نستدين لنشتري هذه الأسلحة ، وأنه لا يوجد في ميزانيتنا العادية دولارا واحد لكي نشتري به السلاح ، لارتفعت ديوننا إلى 2400 دولار أو حتى 2500 مليون دولار وليس إلى أربعة أضعاف هذا المبلغ . حقا ان ثمن السلاح والعتاد لا يمثل إلا نسبة ضئيلة من ميزانية الدفاع . ولكنه هو الذي يستهلك العملة الصعبة ، وهو الذي يضطر مصر إلى الاقتراض . ثم أن مصر سواء كانت في حالة حرب أم لا فإنها لن تستغني عن وجود القوات المسلحة والإنفاق عليها . وأن الأرقام مرة أخرى تكشف لنا أن نفقات الدفاع في مصر في الأعوام 70 ، 71 ، 72 ، 73 كانت على التوالي 1266 ، 1477 ، 1512 ، 2757 مليون دولار . ومنه يتضح أن الزيادات في الإنفاق العسكري عن مستوى عام 1970 هو 948 مليون دولار فقط .

والخلاصة هي أن الاستعداد لحرب أكتوبر والإنفاق خلال هذه الحرب ، لم تكن

هي السبب الرئيسي في تدهور الاقتصاد المصري . لقد تدهور الاقتصاد المصري نتيجة الانفتاح على الاستهلاك التفاخري ، وفتح الباب على مصراعيه أمام رأس المال الأجنبي ، الذي لم يعمل في المشاريع التي تزيد من الدخل القومي للبلاد ، بل اتجه إلى المشروعات الاستهلاكية التي تدر عليه الربح الوفير في أقصر وقت ممكن . ومع هذا الانفتاح اختلت الموازين والمثل الاجتماعية ، فزادت الرشوة والعمولات وكان كل ذلك على حساب كفاءة الإدارة وترشيد الإنفاق . وكان نتيجة كل ذلك أن استهلاكنا أخذ يتزايد كل عام دون أن يقابله أي زيادة في الإنتاج . والنتيجة الحتمية لذلك هي الاستدانة ، وطبع أوراق مالية لتغطية العجز في الميزانية . وهكذا بدأت مصر تغرق في الديون كما غرقت قبل ذلك بمائة عام أيام الخديوي اسماعيل ، ولنفس الأسباب التي كانت قائمة في ذلك الوقت .

السياسة الداخلية :

وفي مجال النظام الداخلي ، عمد السادات إلى نفس أسلوب الخداع والتضليل . لقد عمد إلى إجراء بعض تغييرات في الشكل دون المساس بجوهر النظام . لقد أراد أن يلبس نظامه ثوبا جديدا ، بحيث قد يبدو للبسطاء من الناس أنه قد تحول إلى نظام ديموقراطي ، دون أن يؤثر ذلك على سلطاته الكاسحة . وقد بدأ ذلك بأن أباح حرية النقد بالنسبة للماضي بصفة عامة ، وبالنسبة لجمال عبد الناصر بصفة خاصة . وانبرت الأقلام التي كانت تمجد عبد الناصر في حياته لكي تنهش لحمه بعد مماته . كانت هذه الحملات المسعورة ضد جمال عبد الناصر تحقق للسادات هدفين . الهدف الأول هو أن يوهم البسطاء بأن المصريين في عهده يمارسون حرية النقد بطريقة لم يعرفوها أيام عبد الناصر . والهدف الثاني هو تحطيم صورة عبد الناصر الأسطورية ، التي كانت صورة السادات تتضاءل وتنخسف بجوارها . وبينما كانت تلك الحملة على عبد الناصر في أوجها ، ظهر علينا السادات بتمثيليتين جديدتين . ففي التمثيلية الأولى قال أنه يشارك عبد الناصر المسؤولية في كل شيء عن الفترة التي تولى فيها عبد الناصر حكم مصر . وفي التمثيلية الثانية قال أنه لم يكن يشارك في اتخاذ القرار ، وأنه إنما أعلن قبل ذلك بأنه مشارك في المسؤولية مع عبد الناصر كنوع من الشهامة والرغبة في المحافظة على ذكرى هذا الرجل العظيم . ومرة أخرى فإن السادات يريد أن يخدع البسطاء فيظهر أمامهم بمظهر الرجل المخلص الوفي لزعيمه الراحل ، بينما هو أبعد ما يكون إلى ذلك .

وبعد أن شبع السادات من الحملة الإعلامية التي قامت بتجريح عبد الناصر ، وجه مدافع إعلامه ضد الاتحاد الاشتراكي الذي لا شك وأن السادات كان يضمر التخلص منه منذ البداية . ومن بعد الاتحاد الاشتراكي أباح السادات حرية انتقاد المسؤولين في جميع

المصالح الحكومية ، مع الإبقاء على قدسية أربعة مجالات لا يجوز المساس بها أو توجيه النقد اليها . تلك المجالات الأربعة هي ، رئيس الجمهورية ، السياسة الخارجية ، السياسة الاقتصادية ، السياسة الدفاعية . وانبرت الأقلام الانتهازية تهاجم المسؤولين في الحكومة عن مشاكل الطرق والمواصلات وشبكات المياه والكهرباء الخ . وكأن الديموقراطية وحرية التعبير عندهم هي نقد من ينفذوا أوامر من بيدهم السلطة ، أما أصحاب السلطة الحقيقية فهم في منأى عن أي نقد ، ولا يجوز محاسبتهم أو توجيه النقد اليهم . وهنا يبدو الفرق بين شخصية جمال عبد الناصر وشخصية السادات . كان كل منهما يمسك في يده بجميع خيوط السلطة . ولكن جمال عبد الناصر كان يعلن ذلك ويتحمل المسؤولية عن كل أعمال مرؤوسيه ، لأنه كان يعلم ونعلم جميعا ، أنهم إنما كانوا ينفذون سياسته وأوامره . أما السادات فإنه يريد أن يستفيد وينسب إلى نفسه كل شيء جيد يمكن أن يحققه مرؤوسيه . أما الأخطاء فيجب أن يتحملوها هم وحدهم . وحيث أن السادات قد عودنا على أن يرفع شعارا براقا لكل عمل يقوم به مهما كان تافها ، فإنه أطلق على هذه المرحلة مرحلة الثورة الإدارية . ووصفها بأنها لا تقل أهمية عن أي ثورة أخرى . ولو أنه حقق شيئا بهذا الشعار وتحسنت الأحوال الإدارية لهان الأمر . ولكن وللأسف الشديد فإن الإدارة لم تتحسن بل أنها ساءت كثيرا . وهكذا فإن شعار الثورة الإدارية الذي رفعه السادات عام 75 لم يكن سوى شعارا أجوف ، هدفه هو إلهاء الجماهير وخداعها عن حقيقة المشاكل التي تواجهها .

وفي سبتمبر 1976 ابتكر السادات نظاما سياسيا ليس له أي شبيه في العالم . ذلك أنه قسم الاتحاد الاشتراكي الذي هو الحزب الوحيد في البلاد إلى ثلاثة أقسام ، يمين ووسط ويسار وأطلق عليها منابر . لم تكن هذه المنابر ترقى إلى مستوى الأحزاب ، لأنها كانت جزءا من الاتحاد الاشتراكي الذي كان لا يزال قائما ، وكانت له سلطات سياسية وإدارية ومالية يسيطر من خلالها على الكثير من شؤون هذه المنابر . وفي خلال أكتوبر 1976 أجريت أول انتخابات برلمانية في ظل ما يطلق عليه نظام المنابر وكانت النتيجة التي ارتضتها الحكومة ، هي أن يحصل منبر الوسط الذي يمثل الحكومة على 80٪ من الأصوات ، وأن توزع الأصوات الأخرى بين اليمين واليسار والمستقلين .

ومع ان المعارضين الحقيقيين داخل مجلس الشعب لم يكونوا يزيدون عن 5٪ من أعضاء المجلس البالغ عددهم 360 ، إلا أن نظام السادات الذي لم يتعود نقدا من أحد ، أخذ يضيق بهذه المعارضة ويتهمها أحيانا بالعمالة ، وأحيانا أخرى بالخيانة . واستمر الحال على هذا الحال إلى أن جاءت انتفاضة الجماهير يومي 18 ، 19 يناير 77 وتظاهرهم ضد الحكومة وضد السادات .

لقد قامت انتفاضة الجماهير في يناير 79 بعد ثلاثة أشهر فقط من انتخاب السادات رئيسا للجمهورية بأغلبية 99,95٪ ، وبعد شهرين من انتخاب حكومة ممدوح سالم التي حصلت على أغلبية تصل إلى 80٪ من أصوات الناخبين . ومع ذلك فقد خرجت الجماهير تهتف بسقوط السادات وسقوط الحكومة ، فكان ذلك تعبيرا عن ازدرائها لهذه الانتخابات المزورة ، وشهادة حية أمام العالم أجمع أن هذه الانتخابات التي يجريها نظام السادات ، ليست سوى صورة طبق الأصل من الانتخابات التي كان يجريها فرانكو في اسبانيا ، وسالازار في البرتغال ، وبارك في كوريا الجنوبية ، وغيرهم كثيرون وكثيرون . وقد قام السادات بقمع هذه الانتفاضة بوحشية ، مما دفع النائب كمال الدين حسين إلى أن يرسل له برقية احتجاج شديدة اللهجة . ولكن السادات الذي أحس بالعرش يهتز من تحته ، لم يطق أن يسمع كلمة نقد من عضو في مجلس الشعب يقوم بتنفيذ واجبه تجاه وطنه ومواطنيه . واجتمع مجلس الشعب وقرر فصل كمال الدين حسين ، من مجلس الشعب في فبراير 77 . بعد ذلك أخذ السادات يهدد كل من يعارض سياسته بالقبض والاعتقال . ففي حديث له نشر في أخبار اليوم بتاريخ 16 يونيو 77 قال «أنا زي ما قلت لن أرحم أي واحد منهم . أنا باعتبرهم خونة . دى خيانة لمصر . لأن اللي ما يقدرش يقول كلمة أمل أو كلمة تشجيع ، أحسن له يقفل بقه أو يكسر قلمه» . هكذا كانت ديموقراطية السادات . أما أن يهلل الفرد فيكون من المحظيين . وإما أن ينتقد فيكون من الخونة والمعتقلين .

وخلاصة القول فإن السادات كان يتكلم عن الديمقوقراطية ويمارس الأوتوقراطية . كان يرفع شعار سيادة القانون . وهو شعار جميل إذا كان القانون عادلا بالنسبة لمن يطبق عليهم القانون . لقد كانت هناك قوانين خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر تبيح الرق وتبيح للمالك أن يجلد عبده وأمته . وكان هؤلاء المساكين يباعون ويجلدون تحت شعار سيادة قانون لم يساهموا في إصداره . لقد اكتشف السادات أن تزوير الانتخابات هو الخطوة الأولى على الطريق الذي يثبت به أركان حكمه الأوتوقراطي . إنه بهذا التزوير يستطيع أن يصدر دستورا يمنح نفسه بموجبه سلطات كاسحة . إنه بهذا التزوير يستطيع أن يتحكم في من ينجح في انتخابات مجلس الشعب . إنه بهذا التزوير يستطيع أن يعين نفسه رئيسا للجمهورية لمدى الحياة . وعن طريق مجلس الشعب الذي يكاد يكون بالتعيين إلا قليلا منهم فإنه يستطيع أن يصدر القوانين التي تخدم الحاكم ولا تخدم المحكومين ، كما كان يحدث في القرون الغابرة التي كانت تبيح الرق وتقننه . ومن هنا يتضح لنا أن تزوير الانتخابات ولو مرة واحدة هو سبب كاف لإسقاط شرعية النظام وكل ما يصدره من قوانين .

الاستعداد للمجابهة :

كانت تحركات السادات في مجال السياسة الخارجية والسياسة الاقتصادية تؤكدان أن السادات قد بدأ رحلة الانحراف عن الخط الناصري انحرافا واضحا وملموسا . وأن الانحراف عن الخط الناصري ليس جريمة ، إذا كان هذا الانحراف إلى الأفضل . ولكنه وللأسف الشديد كان إلى الأسوء . في ظل تلك السياسة الخارجية أخذت القدرات القتالية للقوات المسلحة المصرية تتضاءل يوما بعد يوم نتيجة توقف الاتحاد السوفيتي عن إمدادنا بالسلاح لأسباب سياسية ، وذلك في الوقت الذي استمرت فيه أمريكا في إمداد إسرائيل بأسلحة متطورة وبكميات كبيرة . وهكذا اختل التوازن بين القوات المسلحة المصرية والقوات المسلحة الإسرائيلية ، وأصبح لإسرائيل التفوق العسكري الساحق على مصر . وفي ظل هذا الاختلال في التوازن ، فقدت مصر وبصفة نهائية الفرصة في الحصول على أي تسوية عادلة . فلا هي تستطيع أن تحرر أراضيها بالقوة المسلحة . ولا هي بقادرة أن تحصل على تسوية سلمية عادلة وهي في موقف الضعف الذي أصبحت فيه .

وفي مجال الاقتصاد فقد أدت سياسة الانفتاح إلى توقف التنمية وسيطرة الرأسمالية الطفيلية على الحياة الاقتصادية . وظهرت النزعات الاستهلاكية بين الشعب بصورة لا تتناسب مطلقا مع الإنتاج والدخول ، مما تسبب عنه كثرة حالات الانحراف المالي والأخلاقي . وتزايدت الديون لكي تصبح في مايو 77 ما يوازي 79٪ من الدخل القومي كما سبق أن أشرنا .

وفي مجال الديموقراطية والنظام الداخلي لم يحدث أي تأثير جوهري ، سوى أن خصوم عبد الناصر الذين كانوا في المعتقلات والسجون قد أفرج عنهم السادات لكي يستخدمهم في تحطيم صورة عبد الناصر. وأحل محلهم في تلك السجون كل من يعارضه أو يوجه النقد اليه .

كنت أراقب عن كثب كل هذه التصرفات الشاذة التي يقوم بها . وكنت أقرأ بوضوح المصير المظلم الذي يقودنا اليه السادات . ولكني كنت أرى أن الوقت المناسب للمجابهة بيني وبينه لم يحن بعد . ان المجابهة من وجهة نظري لا تعني مجرد الاستقالة ثم الصمت . بل أنها تعني الصراع العلني ضد هذا النظام وتعريته أمام الجماهير المصرية والعربية ، وتوعية هذه الجماهير بحقيقة الأمور . ان من يملك الإعلام في عصرنا هذا فإنه يملك سلاحا رهيبا . والسادات وهو يملك الإعلام المصري فإنه لا يسمح ولن يسمح لأي صوت معارض أن يخاطب الشعب المخدوع وأن يوضح له الحقائق . وان الوسيلة الوحيدة لمقاومة هذا الإعلام المصري هو الحصول على منبر إعلامي خارج مصر. ولكن أين يمكن أن يكون هذا المنبر؟ من هو البلد العربي الذي يمكنه أن يقبل إقامة مثل هذا المنبر المعادي لنظام السادات ؟ لقد

كانت جميع الدول العربية على علاقة جيدة مع نظام السادات . وبالتالي فلم تكن هناك أي فرصة متاحة للحصول على منبر إعلامي معادي للسادات في أي بلد عربي ما بين 74 ـ 77 .

كنت أرى أن المجابهة بيني وبين السادات لابد وأنها ستحدث في يوم ما ، ولكني لم أكن أعرف متى سيتم ذلك . فما دامت المبادرة بيدي فإني كنت أفضل إرجاء هذه المجابهة إلى أن يحين الوقت المناسب . أما إذا فرضها السادات علي فليس أمامي إلا أن أقبلها . وكان علي أن أستعد لهذه المجابهة .

لم أكن لأقبل أن تمر مرحلة الاستعداد لهذه المجابهة وأنا صامت أو مؤيد لنظام السادات . وكان لابد أن أتكلم وأن أنتقد ، ولكن بقدر معلوم . كنت حريصا على أن أظهر بوضوح تام بأنني لست مؤيدا لهذا النظام . ولكني كنت في نفس الوقت حريصا على ألا يتم تصعيد هذا الخلاف ، إلى الحد الذي قد يدفع السادات إلى فرض المواجهة علي ، تحت ظروف كنت أعتبرها ليست مناسبة . وفي إطار هذا التصور ، كنت خلال الفترة 74 ـ 77 أنتقد السادات ونظامه . كنت أنتقده في المجالس الخاصة والعامة ، والأحاديث الصحفية والإذاعية التليفزيونية ، ولكن بأسلوب سياسي ودبلوماسي . وقد سبق أن ذكرت في الباب الأول أمثلة من هذه الانتقادات التي وجهتها اليه خلال هذه الفترة . وفي الفترة التي كنت فيها سفيرا في البرتغال كانت فرصتي في توجيه النقد إلى نظام السادات أقل مما كانت عليه في بريطانيا ، ولكنها مع ذلك لم تتوقف أبدا . كان عدد الزوار المصريون في البرتغال محدودا جدا ، ومع ذلك فلم أخفي أمام أي منهم انتقادي لهذا النظام . وفي غذاء أقمته في منزلي يوم 18 يونيو 77 تكريما للأستاذ يوسف السباعي وآخرين ، جرى بيننا حديث حول لجنة كتابة التاريخ التي كان السادات قد أمر بتشكيلها فقلت لهم «ان مهمة اللجنة هي تزييف التاريخ وليس كتابته . ان المقصود هو أن يكتبوا التاريخ كما تريد له السلطة أن يكون» .

وفي 7 سبتمبر 76 أدليت بحديث مطول إلى جريدة الاكسبرسو Expresso اليومية ، ونشر الحديث في صفحة كاملة من صفحات المجلة . ولم يكن هذا الحديث خلوا من توجيه الانتقادات إلى السادات وإلى نظامه .

كتابة مذكراتي عن حرب أكتوبر :

لقد تولدت عندي عادة الاحتفاظ بالوثائق وتدوين الأحداث الهامةفي حياتي منذ منتصف الأربعينات . ثم نمت وترعرعت على مر السنين حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ من حياتي . ومع ذلك فإنه لم يدر بخلدي قط وحتى منتصف السبعينات ، أنني سوف أقوم بنشر هذه المذكرات في يوم ما . لقد كنا نعيش في مجتمع تسيطر عليه المادية والبيروقراطية

وسوء الإدارة ولاسيما فيما يتعلق بأعمال الحفظ والأرشيف . وقد كان هذا المجتمع هو السبب الرئيسي الذي ولد عندي عادة الاحتفاظ بالوثائق وتدوين الأحداث . لقد رأيت في فجر شبابي أناسا يضطرون إلى أن يدفعوا ديونهم مرتين ، لأنهم لم يحتفظوا بالإيصالات التي تدل على قيامهم بتسديد أقساط هذا الدين . لقد رأيت أناسا يحاكمون عن نقص اكتشف في في عهدتهم الحكومية بعد أن كانوا قد سلموها كاملة لغيرهم ، لأنهم لم يحتفظوا بالوثائق التي تثبت بأنهم قاموا بتسليمها إلى غيرهم وهي كاملة غير منقوصة . لقد رأيت أناسا يطلبون للشهادة عن أحداث وقعت أمامهم منذ بضع سنوات فتخونهم الذاكرة . لقد رأيت كل ذلك في فجر حياتي ، فأثرت على تفكيري وتصرفاتي وعلمتني بأننا نعيش في مجتمع يقوم فيه الخبثاء باستغلال السذج والضعفاء . وكان لزاما علي أن أحتاط ضد هؤلاء الخبثاء ، وأن أحتفظ بكل الوثائق التي تسمح لي بأن أدافع عن نفسي ضد أي هجوم خبيث . وهكذا فإن تسجيل يومياتي عن حرب أكتوبر 73 وما قبلها لم يكن إلا استمرارية لعادة نمت وترعرعت عبر ثلاثين سنة .

لقد لمعت في ذهني فكرة نشر مذكراتي عن حرب أكتوبر لأول مرة في منتصف عام 74 . وذلك عندما بدأ السادات يتحدث عن حرب أكتوبر ، ويدعي كذبا بأنني أنا المسؤول عن ثغرة الدفرسوار . ولكني استبعدت هذا الخاطر عن نفسي بعد أن قلبت جميع الأمور واستعرضت جميع العوامل . ان نشر مذكراتي في هذا الوقت المبكر كان يحده أربعة عوامل رئيسية . كان العامل الأول هو عدم رغبتي في كشف الطريقة التي خدع بها السادات الرئيس حافظ الأسد عن أهداف حرب أكتوبر ، مما قد يؤثر على وحدة الصف العربي . وذلك في وقت كنا فيه أحوج ما يكون إلى هذه الوحدة . أما العامل الثاني فقد كنت أرى أن نشر مذكراتي قبل مرور عام على تلك الحرب ، قد يؤثر على المحاولات التي كانت تبذل في ذلك الوقت للتوصل إلى سلام عادل ودائم في المنطقة . لم أكن أؤمن بأن الطريق الذي يسلكه السادات يمكن أن يوصلنا إلى سلام عادل ودائم. ولكني لم أكن أريد أن أعطيه مبررا يمكن أن يدعيه كسبب لهذا الفشل .

أما العامل الثالث فإنني كنت أرى أن نشر مذكراتي كرد على هجوم السادات على شخصي هو رد فعل زائد over reaction ، لا يتطلبه الموقف . أما العامل الرابع فقد كان هو قناعتي بأنه ما من أحد يستطيع أن يزور التاريخ . لقد كان الملوك والفراعنة في الأزمنة الغابرة هم الذين يكتبون ويسجلون تاريخهم بأيديهم ، وقد سرق رمسيس الثاني انتصارات غيره من الأسلاف وأضافها إلى انتصاراته . ومع ذلك فقد استطاع علماء الآثار والتاريخ أن يكتشفوا ويفضحوا هذا التزييف بعد ذلك بـ 3000 سنة . وعموما فقد انتهت العصور

التي كان الملوك فيها يكتبون التاريخ بأنفسهم ، وأصبح التاريخ أمانة في عنق المؤرخين . فليتكلم السادات كيف يشاء . فإنه لن يستطيع أن يزور تاريخ حرب أكتوبر التي شهد أحداثها مئات الألوف وعرف بأسرارها المئات بل الآلاف في كثير من الأحيان . كنت أملك في يدي جميع الأوراق التي تثبت كذب ما يدعيه السادات في أي وقت أشاء . وقد كانت ثقتي في نفسي وفي سلامة موقفي تدفعني لأن أكون أكثر تعقلا في تصرفاتي . ولكل هذه الأسباب قررت ألا أرد على هجوم السادات بنشر مذكراتي ، وأن أكتفي مؤقتا بتكذيب مقتضب لما يقول بشتى الوسائل الممكنة .

وبحلول عام 75 بدا وكأن المجابهة بيني وبين السادات هي أمر حتمي . وأن نشر مذكراتي هو أحد الأسلحة الهامة التي يمكن أن أستخدمها ضد السادات . وكإجراء وقائي قمت بنقل مذكراتي ووثائقي إلى خارج مصر . حتى تكون في مأمن من عبث السادات ورجاله . وبالرغم من ذلك فإني لم أبدأ في تجهيز مذكراتي للنشر إلا في أكتوبر 76 . لقد خشيت أن يفاجئني الموت قبل أن أجهز مذكراتي للنشر . ويضيع مع موتي الكثير من الأسرار التي يريد السادات إخفاءها أو تزويرها . وعندما شرعت في هذا العمل لم يكن لدي أي فكرة أو خطة عن الوقت الذي ستنشر فيه هذه المذكرات . لقد كان مجرد عمل وقائي ، ومرحلة من مراحل الاستعداد للمجابهة الحتمية التي لابد وأنها سوف تقع يوما ما بيني وبين السادات .

كنت أتصور أن تحرير هذه المذكرات لن يستغرف مني سوى بضعة أشهر . لقد كان عندي اليوميات التي تشمل رؤوس المواضيع وملخصا لجميع الأحداث الهامة يوما بيوم وما علي إلا أن أضيف بعض التفاصيل وقد كانت هذه التفاصيل لازالت حية ومحفورة في ذهني . ولكني اكتشفت أنني أمام عمل كبير وضخم . لقد كانت مذكراتي اليومية هي عبارة عن خليط غير متجانس من الأحداث . في يوم واحد قد أحضر مناقشة حامية مع وزير الحربية حول أهداف الخطة الهجومية . ثم أحضر بعد ذلك بيانا عمليا عن أسلوب فتح الثغرة في السد الترابي بواسطة التجريف بالمياه . ثم أستقبل بعد ذلك مدير إدارة المركبات لأطلب اليه تشغيل 1000 عربة جريدوية طبقا للعينة التي سبق تشغيلها في البحر الأحمر . ثم أناقش بعد ذلك مواضيع أخرى مع جهات أخرى متعددة لا ارتباط بين أي منها وبين الآخر . ثم أجد نفسي في النهاية مدعوا إلى حفل عشاء يجرى خلاله حوار سياسي حول موضوع ما . ولو أني قدمت مذكراتي للقارىء بهذه الصورة ، لما استطاع أن يستوعبها أحد . ومن هنا كان يجب علي أن أقوم بتبويبها طبقا للموضوع ، على أن يراعى التسلسل التاريخي داخل كل موضوع . وبدأت في عملية الفرز والتبويب ، ولكنني قابلت مشاكل أخرى . فهناك بعض الأحداث التي تلعب دورا مشتركا في أكثر من باب . فهل أذكرها في كل باب . أم أكتفي

بذكرها في باب واحد وأهملها في الأبواب الأخرى ، فتبدو هذه الأبواب الأخرى وكأن شيئا ينقصها ؟ واستقر رأيي على أن أذكر مثل هذا الحدث بالتفصيل في أكثر الأبواب ارتباطا به ، ثم أشير اليه باختصار شديد في الأبواب الأخرى لكي أتفادى التكرار الممل .

لقد استغرق تجهيز مذكراتي للنشر عاما كاملا من العمل المتواصل . وفي أكتوبر 77 كان هناك ثلاث نسخ من هذه المذكرات في ثلاث خزائن حديدية ، كل واحدة منها في إحدى العواصم الأوروبية ، وذلك علاوة على النسخة الأصلية التي كانت تحت يدي ، وقد كانت هذه المذكرات باللغة الأنجليزية .

عندما بدأت في تجهيز مذكراتي للنشر وفي نيتي أن أكتب الحقائق بصراحة تامة . لم أكن أتصور طبقا للعلاقات التي كانت سائدة بين الدول العربية ونظام السادات في أكتوبر 76 ، ان أي دولة عربية يمكن أن تسمح بنشر المذكرات دون أن تعرض علاقتها مع السادات للخطر الذي قد يصل إلى حد قطع العلاقات الديبلوماسية بين البلدين . ولكي أتفادى إحراج اي دولة عربية فقد قررت ان أكتبها باللغة الأنجليزية . فإذا فرض السادات علي المواجهة في توقيت ليس من اختياري ، فإني أستطيع نشر هذه المذكرات باللغة الأنجليزية وبلغات أجنبية أخرى . أما إذا كان توقيت المجابهة من اختياري فإني لن أختاره إلا إذا ساءت العلاقة بين نظام السادات ومجموعة من الدول العربية ، بحيث تسمح الظروف بنشر مذكراتي في تلك البلاد العربية دون أن يسبب ذلك أي إحراج لتلك الدول . وفي هذه الحالة ، فإن إعادة صياغة هذه المذكرات من اللغة الأنجليزية إلى اللغة العربية لن تستغرق مني سوى ثلاثة شهور فقط .

وعموما فإنه بانتهائي من كتابة مذكراتي عن حرب أكتوبر وتأمينها ضد السرقة أو الإتلاف ، كنت قد استكملت استعداداتي للمواجهة . ولم يبق عندي سوى أن أختار الوقت المناسب لهذه المواجهة .

وصول بيجن إلى الحكـم :

كان وصول بيجن إلى رئاسة الحكومة على إثر الانتخابات التي جرت في إسرائيل في 17 مايو 77 ، يعني الكثير بالنسبة لمستقبل قضية الصراع بين العرب وإسرائيل . فقد كان تاريخ بيجن يشهد بوضوح بدمويته وآرائه المتطرفة . ففي 8 أبريل 1948 كان مناحم بيجن هو سفاح مذبحة دير ياسين ، حيث قام هو ومن معه من الإرهابيين اليهود بقتل المئات من رجال ونساء وأطفال هذه القرية المنكودة بقسوة ووحشية ، لم تعرفها البشرية من قبل . وسرعان ما انتشرت أخبار هذه المجزرة بين السكان العرب في القرى المجاورة ، فدب الرعب في

نفوسهم . وهجروا ديارهم طلبا للنجاة . وهذا هو ما كان يريده مناحم بيجن . لقد كان يريد تفريغ فلسطين من أهلها الأصليين ، حتى يمكن أن يحل محلهم اليهود فيمتلكون أرضهم وديارهم وأموالهم .

لم تغير 29 عاما مرت ما بين مذبحة دير ياسين ووصول بيجن إلى الحكم من آرائه المتطرفة . وقد كان أول تصريح له بعد أن تولى رئاسة الوزراء هو «ان أرض إسرائيل هي من حق اليهود . ان إسرائيل لا تستطيع أن تضم إقليمي يهودا والسامرة وقطاع غزة لأنه لا يمكن للشخص أن يضم لنفسه شيئا هو صاحبه»(22) . وعندما يقول بيجن أرض اسرائيل فإنه لا يعني مطلقا حدود إسرائيل التي أقرتها الأمم المتحدة في 29 نوفمبر 1947 . أو خطوط الهدنة بين إسرائيل وجيرانها طبقا لاتفاقيات الهدنة في عام 1949 . أو خطوط وقف إطلاق النار بعد حرب يونيو 1967 . أو خطوط وقف إطلاق النار بعد حرب 1973 . ان أرض إسرائيل في مفهوم بيجن وغلاة الصهاينة هي الأرض الممتدة بين النيل والفرات وهو هدف لم تتنازل عنه إسرائيل قط . بل أنها تكتبه وتعلنه بوضوح تام على مدخل الكنيست . وإذا كان حكام إسرائيل الآن يتحاشون وهم في الحكم ، أن يطالبوا بتلك الأراضي التي يدعون أن لهم فيها حقوق ، فقد خرج على هذه القاعدة الجنرال شارون وزير الزراعة في حكومة بيجن عندما صرح إلى صحيفة هاآرتس قائلا «ليس للعرب الذين يعيشون على أرض إسرائيل حق في الأرض . ان الشعب اليهودي وحده هو الذي له الحق في كل الأرض . أما الدولة الفلسطينية فيمكن أن تقوم في الأردن . إذ أنه يجب أن نعرف أنه تقوم حاليا دولة فلسطينية على أرض إسرائيل . وهذه الدولة تسمي نفسها الأردن . وهذا هو التنازل التاريخي الذي تم . فشرق الأردن (الجلعاد) جزء لا يتجزأ من أرض إسرائيل . ألا يكفي تنازلنا عن شرق الأردن للفلسطينيين ؟» . وهكذا فإن تحالف ليكود Likud الذي يضم جميع الأحزاب المتطرفة ، والتي تشكل منها الحكومة الإسرائيلية في يونيو 77 ، كان نذير شؤم على العرب بصفة عامة وعلى الفلسطينيين بصفة خاصة .

الاتصالات السرية بين السادات وبيجن

من المؤكد أنه كان هناك اتصالات سرية بين السادات وبيجن منذ أن تولى بيجن رئاسة الحكومة في إسرائيل ، وذلك إلى أن تم اللقاء بينهما بصفة علنية في القدس في 19 نوفمبر 1977 . وإذا كانت المعلومات التفصيلية الكاملة عن هذه الاتصالات لم تعرف بعد ، إلا أن ما كشف عنه الغطاء حتى اليوم يؤكد وجود تلك الاتصالات . في أواخر أغسطس 77 قام بيجن بزيارة رومانيا ، حيث عقد بعض المحادثات مع الرئيس شاوشسكو الذي كان يعمل كطرف ثالث بين السادات وبيجن . وفي شهر سبتمبر 77 كان موشي دايان وزير

خارجية إسرائيل يقوم برحلة سياسية في أوروبا وهو في طريقه إلى أمريكا ، ثم قام فجأة بقطع رحلته يوم 17 سبتمبر وأعلن أنه عاد إلى إسرائيل . ولكن عرف بعد ذلك أنه اتجه إلى المغرب حيث قابل حسن تهامي مستشار السادات ، وذلك قبل أن يتوجه إلى إسرائيل ليطلع بيجن على نتيجة مفاوضاته مع حسن تهامي . ويقول السادات في مذكراته بالصفحة رقم 406 أنه قرر أن يقوم بمبادرته لزيارة القدس قبل ذلك بشهرين وبعد أن كان قد تسلم رسالة من كارتر . ان مضمون رسالة كارتر التي يشير اليها السادات غير معروف حتى الآن ولكن المقابلة بين كل من موشي دايان وحسن تهامي قد تمت فعلا قبل زيارة السادات للقدس بشهرين [23].

وفي 30 أكتوبر سافر السادات إلى بوخارست ، حيث ناقش الموضوع برمته مع شاوشسكو الذي كان على اتصال مستمر مع بيجن . واتفق الثلاثة على السيناريو المناسب لإخراج ما أطلق عليه فيما بعد بمبادرة السادات لزيارة القدس .

السادات يـزور القــدس :

في مساء يوم الأربعاء 9 نوفمبر وفي أثناء خطاب جامع أمام مجلس الشعب ، تحدث السادات عن السلام وقال «إنني مستعد لأن أذهب إلى آخر العالم للبحث عن السلام . ان إسرائيل ربما تندهش من سماع ذلك . ولكني أقول بأني مستعد للذهاب إلى الكنيست الإسرائيلي لمناقشة السلام إذا اقتضى الأمر ذلك» . وظن الناس أن ما قاله السادات إما أن يكون زلة لسان . وإما أن يكون الغرض منه إحراج إسرائيل أمام المجتمع الدولي . ولكن الأحداث توالت بعد ذلك بسرعة مذهلة تدل على أن كل شيء قد أعد وجهز لهذه الرحلة المشؤومة إلى القدس المحتلة . فبعد يومين من خطاب السادات قام بيجن بتوجيه خطاب إلى الشعب المصري دون غيره من الشعوب العربية . وتحدث فيه عن السلام وعن التعاون والإخاء الذي يمكن أن يتم بين الشعبين المصري والإسرائيلي في ظل السلام . ورحب باقتراح السادات . وبعد أربعة أيام أخرى وافق الكنيست بأغلبية ساحقة على توجيه الدعوة إلى السادات . وفي يوم 16 نوفمبر ذهب السادات إلى دمشق لكي يطلع الرئيس الأسد على ما انتواه ، ولكي يدعوه إلى المشاركة في الركب . ولكن الرئيس السوري اعترض على هذه الزيارة وعاد السادات إلى القاهرة يوم 17 . وفي يوم 19 نوفمبر سافر السادات من الإسماعيلية إلى القدس وسط ضجة إعلامية دولية ضخمة . لقد أوقعت السرعة المذهلة التي تمت بها هذه الزيارة رجال الإعلام المصري في مواقف محرجة مع أنفسهم وفي مواجهة الشعب الذي أذهلته المفاجأة . فقد علق بعضهم بسخرية على الخطاب الذي رد به بيجن على السادات ورحب بحضوره إلى القدس ، اعتقادا منهم بأن السادات لم يكن يعني ذلك حقا . ولكنهم بدأوا يتراجعون بسرعة من حالة السخرية إلى الصمت ، ثم إلى التأييد . وتم كل ذلك في خلال أسبوع واحد .

كنت أنا وزوجتي نؤديان فريضة الحج ، وكنا منغمسين في الصلاة والعبادة لا نكاد ندري بما يدور في العالم من أحداث ، ولم أعرف عن خطاب السادات في مجلس الشعب ، إلا من صديق مصري قابلته في المدينة المنورة ، وكان قد حضر مؤخرا من القاهرة . ولكني كغيري من ملايين البشر لم أكن أتصور أن السادات كان يعني حقا ما يقول . ولكن في يوم 18 نوفمبر تأكد لدينا بأنه مصمم على تنفيذ ذلك . خرجت مع بعض الأصدقاء في مساء ذلك اليوم والألم يعصر قلوبنا ، لكي نرى ونسمع تعليق المسلمين على هذه الزيارة . لم يكن بين الحجاج المتجمعين في منىً من حديث ، سوى هذا المصاب الجلل الذي أصاب به السادات العرب والمسلمين . كانت جميع التعليقات تنعته بالخيانة ، وتبتهل من الله أن ينتقم منه . وفي صباح اليوم التالي 19 نوفمبر كانت وقفة عرفات . وفي المساء أنستنا الكارثة ذكر الله بعض الوقت ، وأخذنا نستمع إلى الراديو وهو يصف رحلة السادات إلى القدس المحتلة .

كنا مجموعة من الحجاج نلتف حول راديو ترانزستور لنستمع إلى إذاعة القاهرة . وقد كان من بين هذه المجموعة الأستاذ علي حمدي الجمال رئيس تحرير جريدة الأهرام فقلت له : «إنك من المؤيدين لنظام السادات فما هو رأيك في هذه الزيارة ؟» قال إنه خطأ ما كان يصح للسادات أن يقع فيه . فأعجبني هذا الرد فسألته «وهل ستقوم بانتقاد هذه الزيارة عندما تعود إلى القاهرة ؟» قال لا ، فسألته ولماذا ؟ قال لأن الرئيس قد اتخذ هذا القرار . ومن واجبنا أن نؤيده في هذا القرار . فقلت له غاضبا : «إذا كان هذا هو منطقك في الديموقراطية وأنت تشغل منصب رئيس تحرير أكبر جريدة يومية فمن الخير ألا أتناقش معك في هذا الموضوع» .
كنت أنتقد هذه الزيارة انتقادا علنيا مع كل من أقابله من مصريين وعرب . وصممت بيني وبين نفسي أن هذه الخطوة التي اتخذها السادات يجب أن تكون هي الحد الفاصل بيني وبينه .

الفصل الثالث عشر

مرحلة المجابهة

اتخاذ القرار بالمجابهة :

بعد أداء فريضة الحج عدت إلى القاهرة لكي أقضي بها بقية إجازتي قبل أن أعود إلى مكان عملي في لشبونة . ولكني كنت قد عقدت العزم على أن أفجر الخلاف ، وأن أقطع شعرة معاوية التي كانت لا تزال تربط بيني وبين السادات ونظامه . كانت خطتي الأولية هي أن أبدأ هذه المجابهة وأنا في خارج البلاد وأن يتم ذلك بمجرد عودتي إلى لشبونة . وفي أثناء تواجدي بالقاهرة حاولت أن أجس نبض الجماهير فيما يتعلق بزيارة السادات للقدس ، فراعني ما يمكن للإعلام أن يفعله في ظل نظام أوتوقراطي . لقد تمكن الإعلام المصري الموجه أن يغسل عقول المصريين من جميع الشرائح ، مثقفين وغير مثقفين موظفين وعمال وغيرهم من جميع الفئات . لقد قال لهم الإعلام أن السادات سوف يحقق لهم بهذه الخطوة سلاما عادلا تنسحب بموجبه إسرائيل من جميع الأراضي العربية التي احتلتها عام 67 . وأنه ستنشأ الدولة الفلسطينية على الضفة الغربية وقطاع غزة . وأن القدس العربية ستعود الينا . وأن أمريكا ستفرض هذا الحل على إسرائيل . وفي مقابل ذلك ستنتهي حالة الحرب التي بيننا وبين إسرائيل . وسيرفرف السلام على المنطقة . وستساعد أموال البترول العربي والتكنولوجيا الأمريكية في تطوير اقتصاد البلاد ويعم الرخاء على كل الناس . وفي غيبة الديموقراطية وفي ظل الاحتكار الإعلامي ، استطاع السادات أن يخدع الشعب المصري .

كانت جميع الحسابات الاستراتيجية والسياسية والعسكرية تؤكد أن تلك الوعود التي يبعثرها السادات على شعب مصر ، لن تتحقق . ولكن الناس الذين قاسوا وتحملوا الكثير طوال ثلاثين عاما ، كانوا على استعداد لتصديق كل ما يقال لهم ، حتى ولو كان الأمل

ضعيفا في تحقيق تلك الوعود . وأمام هذه الظروف قررت أن أؤجل المجابهة بضعة شهور ، حتى تزول الغشاوة عن أعينهم ، وحتى يكونوا على استعداد لسماع الحلول البديلة . سافرت إلى لشبونة يوم 25 ديسمبر ولكن زوجتي تخلفت في القاهرة لتكون بجوار ابنتي التي كانت تنتظر مولودها ، ولم تلحق بي في لشبونة إلا في نهاية فبراير 1978 .

في أوائل مارس أخطرت زوجتي بقراري الخاص بالمجابهة . وبعد مناقشات طويلة اقتنعت بوجهة نظري ، وقررت أن تربط مصيرها بمصيري . ومنذ ذلك الوقت شرعت في وضع الخطة المناسبة للمجابهة المنتظرة . لم أكن أتصور أن تأخذ المجابهة بيني وبين السادات شكل الاستقالة احتجاجا على زيارة السادات للقدس . ثم أقبع بعدذلك في داري في القاهرة لا أستطيع أن أصل بصوتي إلى الجماهير المصرية . كنت أتصور أن المجابهة يجب أن تكون نقطة انطلاق أبدأ منها قيادة حملة إعلامية ترد على التعتيم الإعلامي الذي يفرضه السادات على الشعب المصري . وان مثل هذا الموقف لا يمكن أن يتحقق إلا إذا استخدمت بعضا من وسائل الإعلام العربي .

الاتصال بالرئيس هواري بومدين :

كانت زيارة السادات مفاجأة غير سارة للغالبية العظمى من الدول العربية . وقد أدانتها الدول العربية وانتقدتها ولكن بدرجات متفاوتة . وكان أكثر الدول إدانة لها هي سوريا وليبيا والعراق والجزائر واليمن الجنوبية . وقد اجتمعت هذه الدول في طرابلس ما بين 1 ـ 5 ديسمبر 77 ، وقررت تجميد علاقاتها الديبلوماسية مع مصر فرد السادات على ذلك بقطع العلاقات الديبلوماسية مع تلك الدول . وأصبحت إذاعة مصر وإذاعات تلك الدول الخمس تتراشق بالاتهامات . وفي ظل هذه الأوضاع أصبح في إمكاني ، في حالة وقوع المجابهة بيني وبين السادات ، أن أستخدم وسائل الإعلام في أي دولة من هذه الدول العربية المعادية لنظام السادات ، دون أن أسبب لها إحراج سياسي أو ديبلوماسي . وبعد تفكير طويل قررت أن تكون الجزائر هي المكان الذي أعيش فيه بصفة دائمة ، ومنها انطلق وأتحرك جسديا أو من خلال وسائل الإعلام للدول العربية الأخرى .

كان علي أن أتصل بالرئيس هواري بومدين لكي أخطره بما عزمت عليه . ولكي أحصل على موافقته بأن أقيم في الجزائر بعد أن أقطع كل صلة تربطني بنظام السادات . ولكن كيف يمكن تحقيق هذا الاتصال بطريقة سرية لا تشعر بها مخابرات السادات ؛ أو مخابرات الدول الأخرى التي تتعارن معه ؟ لقد كان أمامي حلين . إما أن أسافر إلى لندن حيث أقابل السفير الاخضر الإبراهيمي سفير الجزائر في لندن الذي تربطني به صداقة منذ

أن كنت سفيراً في لندن . وإما أن أستدعي أحد الأصدقاء الموثوق بهم من الجزائر ، لكي أطلعه على ما نويت عليه ، ولكي يقوم بإبلاغ ذلك شخصيا وبدون أي وسيط ثالث إلى الرئيس هواري بومدين . واخترت الحل الثاني . كان السيد عبد المجيد فريد يشغل منصب أمين عام رئاسة الجمهورية في مصر أيام عبد الناصر وحتى مايو 71 . ولكن السادات قدمه للمحاكمة ضمن من قدموا في مايو 71 وحكم عليه بالسجن ، ثم أفرج عنه بعد أن قضى في السجن 42 شهرا . وفي عام 75 عينه الرئيس هواري بومدين مستشارا في رئاسة الجمهورية الجزائرية . كان عبد المجيد فريد زميل وصديق قديم فأرسلت له في أواخر 78 خطابا مقتضيا الجزائرية . كان عبد المجيد فريد زميل وصديق قديم فأرسلت له في مارس 78 خطابا مقتضيا قلت له فيه «أرجو أن تحضر لمقابلتي في لشبونة حيث أن لدي رسالة هامة أريد أن أبعث بها إلى الرئيس هواري بومدين» وفي منتصف أبريل اتصل بي عبد المجيد فريد من لندن ، وأخبرني بأنه في طريقه إلى دمشق وبغداد وأنه سوف يمر علي أثناء رحلة العودة إلى الجزائر . وفي أوائل مايو حضر عبد المجيد فريد إلى لشبونة ، وأبلغته برسالتي إلى الرئيس هواري بومدين واتفقت معه على كلمات كودية نستطيع أن نستخدمها أثناء حديثنا في التليفون ، بحيث لا يستطيع من يسترق السمع أن يفهم وجود أي شيء غير عادي . واتفقت مع عبد المجيد فريد على إجراءات محددة تتم خلال الخمسة عشر يوما التي تلي موافقة الرئيس بومدين . وفي أول يونيو أبلغني عبد المجيد فريد بكلمة السر التي تعني موافقة وترحيب الرئيس بومدين .

الخطـــة :

كنت أريد أن يحدث إعلان المجابهة بيني وبين السادات أثرا إعلاميا كبيرا يكشف طبيعة الحكم الأوتوقراطي الذي يمارسه ، وفي نفس الوقت كنت أريد أن تتم الخطوات النهائية نحو هذه المجابهة في سرية تامة . كان تحقيق المطلب الأول يتطلب عقد مؤتمر صحفي أقوم من خلاله بفضح السادات ونظامه . ولكن أي مؤتمر صحفي ناجح يتطلب الإعداد والإعلان المسبق عن موعده وعن الموضوع الرئيسي الذي سوف يناقشه هذا المؤتمر الصحفي . ولم يكن من السهل أن أعلن عن مثل هذا المؤتمر لأن السادات لو شعر بمثل هذا الاحتمال قبل وقوعه ولو ببضع ساعات ، لأصدر أمرا بإقالتي قبل إقامة هذا المؤتمر حتى يبدو مؤتمري الصحفي وكأنه رد فعل من شخص موتور أحاله السادات إلى التقاعد . ان في استطاعة السادات أن يتهم الأبرياء وأن يدعي أسبابا لتصرفاته لا تمت بصلة إلى الأسباب الحقيقية التي دفعته إلى ذلك . لقد كنت أعرف عنه ذلك جيدا ولم أكن لأعطيه مثل هذه الفرصة . ومن هنا قررت أن تبدأ المواجهة ببيان يوزع على وكالات الأنباء على أن أعقد مؤتمر صحفيا بعد ذلك بيــومــين .

كذلك كان علي أن أستعد للسفر على مرحلتين . المرحلة الأولى وتمتد إلى حوالي 15 يوما وتنتهي بإعلان البيان على وكالات الأنباء الأجنبية ، والمرحلة الثانية وتمتد إلى بضعة أيام قليلة بعد إعلان البيان وتنتهي بمغادرتي لشبونة . كانت المرحلة الأولى رغم ما يبدو من طولها مليئة بالأعمال . وكان علي أن أقوم بهذه الأعمال بسرعة وبطريقة هادئة لا تلفت نظر أحد إلى احتمال قيامي بمغادرة البرتغال في المستقبل القريب . لقد كنت أشغل منصب سكرتير المركز الإسلامي في البرتغال وكان أمامي ثلاث مواضيع رئيسية أريد أن أنتهي منها . كان لدي حسابات مالية يجب أن يتم تجهيزها وجردها استعدادا لعملية التسليم . كنت أتفاوض مع بعض المهندسين المعماريين والمحامي في بنود العقد الذي سيكون أساس التعاقد بين المركز وبين من سوف يقع عليه الاختيار لبناء الجامع . وأخيرا فقد كان الجزء الثلاثين من القرآن الكريم الذي كتبته بالحروف البرتغالية ـ بعد أن أدخلت عليها 16 حرفا جديدا ـ في المطبعة وكان علي أن أراجعه كلمة كلمة وحرفا حرفا . كذلك كان علي أن أجهز الحسابات المالية الخاصة بالجامعة العربية كي تكون جاهزة للتسليم إلى من سيخلفني . ولم يكن كل ذلك ليشغلني عن العمل الرئيسي خلال تلك المرحلة وهو تجهيز البيان وطبعه ، وتحديد العناوين وأرقام التليفونات الخاصة بوكالات الأنباء الأجنبية في البرتغال .

ولكي أختار اليوم المناسب لتوزيع البيان استعرضت أيام الأسبوع ، فوجدت أن يومي الأثنين والثلاثاء هي أنسب الأيام ، وأن أيام الخميس والجمعة هي أسوؤها . وقررت أن أختار يوم الأثنين 19 يونيو لتوزيع البيان . وفي خلال المدة من 2 ـ 18 يونيو كانت الأمور تسير في مجراها الطبيعي ، دون أي تصرف من جانبي قد يوحي بما كنت قد عزمت عليه . لقد حضر حفيداي هشام وكريم يوم 6 يونيو لكي يقضيا إجازة الصيف معنا . لقد حضر الصغيران وحدهما على الطائرة من جنيف حيث كنت أنا وزوجتي في استقبالهما بمطار لشبونة بناء على اتفاق مسبق مع والدتهما التي أركبتهما من جنيف . لقد اتصل بي من لندن أخ زوجتي وأخطرني بأنه سيحضر لزيارتنا في لشبونة في 23 يونيو ، وأنه سيمكث لدينا خمسة أيام فرحبت بحضوره . لقد اتصل بي سفير الكويت في مدريد وأخبرني بأنه سوف يصل إلى لشبونة في أول يوليو ، لكي يسلمني الشيك الخاص بتبرع الكويت للمركز الإسلامي فقررت أن أقيم مأدبة عشاء على شرفه يوم 4 يوليو ، وأصدرت الدعوات الخاصة بذلك . وبالإضافة إلى كل ذلك فقد حرصت رغم مشاغلي الكثيرة خلال تلك الفترة على ألا أقوم بإلغاء أي مناسبة اجتماعية كنت قد دعيت اليها أو دعوت أنا لحضورها . وفي يوم 16 يونيو كنت أقيم في منزلي حفل عشاء على شرف السفير التركي ، الذي كان قد تقرر نقله إلى بلاده . وفي اليوم التالي كنا نحضر حفلا ساهرا في كازينو اشتوريل Estoril بدعوة من السفير الإيطالي الخ .

وقع الخبر على زوجتي :

في الساعة السابعة من صباح يوم الأثنين 19 يونيو ، تحرك سائق عربتي ومعه مظاريف مغلقة لكي يسلمها إلى الجهات المحددة . وحوالي الساعة الثامنة والنصف كان قدعاد إلى المنزل لكي يأخذني إلى مكتبي بالسفارة . وقبل أن أغادر منزلي إلى السفارة أخبرت زوجتي بما فعلت فظهرت عليها آثار المفاجأة فقلت لها ماذا دهاك ؟ ألم أقل لك أني نويت على ذلك منذ أكثر من ثلاثة أشهر ؟ قالت بلى . قلت «ألم أخطرك أنني أخترت الجزائر وطنا ثانيا إلى أن يسقط السادات ونظامه ؟» قالت بلى . قلت ألم أخبرك بأنني أرسلت مع عبد المجيد فريد رسالة إلى الرئيس هواري بومدين وأنني في انتظار موافقته ؟ قالت بلى . قلت ألم نشتري سويا عددا من الشنط لكي نستخدمها عند السفر ؟ قالت بلى . قلت أي مفاجأة إذن فى هذا ؟ قالت لم أكن أتصور أن يتم كل ذلك بهذه السرعة . كنت أعتقد أن ذلك سيحدث بعد نهاية الصيف . ماذا ستفعل بالصغيران هشام وكريم ؟ قلت لها هذا موضوع بسيط جدا . سوف أتصل بوالدتهما لكي تحضر لأخذهما فإذا تأخرت فسوف آخذهما معي إلى الجزائر ومن هناك أقوم بترحيلهما إلى القاهرة . قالت وماذا عن أخي سعد الذي سيحضر الينا بعد أربعة أيام ؟ قلت لها سوف أتصل به تليفونيا في لندن وأخطره بألا يحضر نظرا لتطور الموقف . لقد كانت أسئلة زوجتي تخفي ما تملكها من خوف على أولادنا الذين يعيشون في القاهرة . وقد ظهر ذلك عندما قالت «سينتقم منك السادات في أولادك» فقلت لها «إنه لن يستطيع ذلك لأنه يعلم بأنني سأرد عليه بما يجرحه . لو أنني شخص عادي لفعل ما تتصورين . ولكنه يعلم أن اسمي معروف على مستوى العالم العربي والدولي . وأنني أستطيع أن أحشد ضده الهيئات الدولية ووسائل الإعلام المختلفة إذا هو ارتكب مثل هذه الحماقة . إنني أعرف الآن شخصية السادات حق المعرفة . وأني أؤكد لك بأنه لن يستطيع أن يتخذ أي إجراءات ضد أفراد عائلتي الذين يعيشون في مصر ، لأنها سوف تكون صفقة خاسرة بالنسبة له» .

إذا نظرنا الآن للخلف وبعد مرور سنتين على هذه المجابهة واسترجعنا تصرفات السادات قبل هذه المجابهة وبعدها لاتضح لنا شخصية السادات الحقيقية . فعلى مدى أربع سنوات كان يتهمني بأنني أنا المسؤول عن ثغرة الدفرسوار . فلما أعلنت المجابهة وأصبح في إمكاني أن أستخدم وسائل الإعلام الصديقة في الرد عليه واتهامه هو بأنه هو المسؤول عن الثغرة وعن حصار الجيش الثالث ، صمت السادات وصمتت معه جميع وسائل إعلامه . لماذا ؟ لأنه يخشى المجابهة الحرة . إنه يرفض النزول إلى حلبة المصارعة إلا إذا ضمن أن غريمه قد تم تقييده بالسلاسل (24) .

انتشار الخبر عبر وسائل الإعلام العالمية :

في الساعة التاسعة من صباح يوم 19 يونيو كنت في مكتبي بالسفارة . وكانت بعض المكالمات التليفونية قد بدأت تصل إلى السفارة للاستيضاح عن البيان الذي كان قد تم توزيعه منذ ساعة . لقد تعمدت أن أكتب البيان على أوراق تحمل اسم السفارة لكي أؤكد أنني أصدر هذا البيان وأنا لازلت سفيرا لبلادي . وأن هجومي ينصب على السادات ونظامه وليس ضد مصر التي أحبها وأنتمي اليها وأعمل على تخليصها من هذا الحكم الأوتوقراطي الفاسد الذي يسيطر عليها . كانت استفسارات وكالات الأنباء تقابل من أعضاء السفارة بوجوم واستغراب . وعندما وصلت إلى مكتبي بالسفارة جمعت أعضاء السفارة وأخبرتهم بما فعلت وطلبت اليهم ألا يردوا على أي مكالمات استفسارية بخصوص هذا الموضوع ، وأن يحولوها إلي حتى لا يتسبب ذلك في إحراج أي منهم .

وقد كانت إذاعة B.B.C. في لندن أول من اتصل بي من خارج البرتغال . وكان ذلك حوالي الظهر حيث أجروا معي حديثا مسجل بالتليفون . وفي المساء عقدت مقابلتين تليفزيونيتين في مكتبي بالسفارة . كانت إحداهما بناء على طلب التليفزيون البرتغالي . وكانت الأخرى بناء على طلب التليفزيون الأمريكي . وفي نهاية المقابلة التليفزيونية علق المذيع الأمريكي مازحا «سوف يراك أقاربك هذه الليلة على شاشة التليفزيون في القاهرة . سوف نذيع هذه المقابلة بواسطة القمر الصناعي» فضحكت وقلت له «إنكم معشر الأمريكيين لا تدرون بما يدور في ظل نظام السادات . ان الإعلام المصري سواء كان تليفزيون أو راديو أو جريدة لا يمكن أن يقول كلمة نقد واحدة ضد رئيس الجمهورية . إني أراهنك بأن أدفع لك 100 دولار إذا أذيعت هذه المقابلة وأن تدفع أنت لي دولارا واحدا إذا لم تذع» فقال «لقد قبلت هذا الرهان» وضحكنا وافترقنا . وعندما قابلني مساء يوم الأربعاء إثناء حضوره للمؤتمر الصحفي الذي كنت قد دعوت اليه ، فإذا هو يخرج من جيبه دولارا ويقدمه لي ، ولكني شكرته واعتذرت عن قبول الرهان . وقلت له لو أني أخذت منه هذا الدولار فكأني أسرقه ، لأني كنت متأكدا 100٪ بأن هذه المقابلة لن تعرض في القاهرة . واستفسر الحاضرون من الصحفيين عن قصة هذا الرهان فقص عليهم القصة ، فكان ذلك دليلا آخر على الديموقراطية الزائفة التي كان يتشدق بها السادات ، والتي كانت هي الهدف الرئيسي للبيان الذي قمت بتوزيعه يوم 19 يونيو .

وفي يوم 20 كان موضوع هجومي على السادات هو الموضوع الرئيسي في جميع وسائل الإعلام في العالم . وهنا قررت أن أدعو إلى مؤتمر صحفي مساء يوم الأربعاء 21 يونيو . وقد

حضر هذا المؤتمر ما يزيد عن خمسين شخصا ، يمثلون الصحافة والإذاعة والتليفزيون من مختلف بلاد العالم . وبالرغم من هذا المؤتمر الصحفي ، فقد أخذ رجال الصحافة والإعلام يلاحقونني كل يريد أن يأخذ حديثا خاصا سواء عبر تليفون من كندا ، أو جنيف ، أو لندن ، أو باريس ، أو روما ، أو بواسطة مندوب حضر خصيصا لذلك من أوروبا أو من إحدى البلاد العربية . كنت أشعر بالحرج أمام شخص قطع آلاف الأميال ،ولكنه وصل إلى لشبونة بعد انتهاء المؤتمر الصحفي ، فأضطر إلى أن أجيب على عدد من الأسئلة حتى لا أرده خائبا أمام رئيسه . واستمر الحال على ذلك حتى يوم السبت . ولكنني قررت بعد ذلك أن أمتنع امتناعا تاما عن مقابلة أي صحفي نظرا للإرهاق الشديد الذي أصابني خلال تلك الأيام الستة ، سواء عن طريق المقابلات الصحفية أو الأحاديث التليفونية .

التعتيم الإعلامي في مصـر :

لقد كان موقفي يوم 19 يونيو مفاجأة تامة للسادات لا شك أنه كان يحس في قرارة نفسه أنني سوف أقف ضده يوما ما . ولكنه لابد وأنه كان يعتقد أن الوقت لم يحن بعد . وقد شعرت بذلك من خطاب له ألقاه خلال شهر أبريل 78 ونسب فيه أقوالا باطلة إلى الرئيس هواري بومدين واستشهد بي دون أن يذكر اسمي عندما قال «ويشهد على ذلك رئيس الأركان السابق وهو حي يرزق» . لقد تعمد السادات أن يقلب المعلومة التي نسبها إلى الرئيس هواري بومدين رأسا على عقب ، وذلك بتقديم جملة على أخرى وإضافة حرف أو حذف حرف . كان بوسعي أن أصحح ما يدعيه السادات سواء برد مباشر أو غير مباشر . ولكني فضلت الصمت لكي لا أفسد ما كنت أقوم بترتيبه .

وحتى مساء يوم الأثنين 19 يونيو لم يصل أي رد فعل من القاهرة . وبينما كانت جميع إذاعات العالم تتكلم عن هذا الموضوع ، فإن وسائل الإعلام في مصر لم تشر إلى هذا الموضوع بكلمة واحدة . كنت مدعوا إلى حفل عشاء يقيمه السفير الهندي على شرف السفير التركي الذي سيغادر لشبونة قريبا . وعندما عدت إلى المنزل حوالي منتصف الليل وجدت بعض الصحفيين في انتظاري ، وعلمت من أحدهم أن وكالة الأنباء الفرنسية أذاعت بأن وزير الخارجية المصري قد أمر بتوقيفي عن العمل . وسألني عما سوف أفعل فقلت له لم يصلني أي إخطار رسمي بذلك من القاهرة . وإني سوف أقوم بتنفيذ تعليمات القاهرة . فليس ضمن خطتي أن أفرض نفسي كسفير . وعموما فإني أتوقع من القاهرة أكثر من ذلك . وفي صباح يوم الثلاثاء وصلت إشارة برقية من القاهرة بتوقيع الوزير إبراهيم كامل وزير الخارجية تنص هذه البرقية على توقيفي عن العمل . وقد أخطرت وزارة الخارجية البرتغالية بهذه البرقية وأعلنتهم بمن سوف يكون قائما بأعمال السفارة والتزمت بيتي إلى أن غادرت لشبونة يوم 28 يونيو [25].

ومنهم من تكلم عني بصفتي أنا المسؤول عن ثغرة الدفرسوار ملفقة ومضحكة .

وفي يوم 20 يونيو ظهرت الصحف المصرية ومعها كالعادة قصص ملفقة ومضحكة . منها أن وزير الخارجية طلب الاستغناء عن خدماتي . ومنها أن الوزارة عرفت بأنني على اتصال بالقذافي وأنه وعدني بمنصب في الجيش أحصل منه على مرتب يوازي أضعاف مرتبي كسفير . وأنني عندما علمت بأن الوزارة تنوي إحالتي إلى المعاش قررت أن أسبقهم باتخاذ هذا الموقف . ومنهم من تكلم عني بصفتي أنا المسؤول عن ثغرة الدفرسوار

وقع الخبر في دول الصمود والتصدي :

كما سبق أن قلت ، كانت الجزائر هي الدولة الوحيدة التي تعلم بنواياي . ولكني كنت متيقنا بأن وحدة الهدف التي تربط بيني وبين دول الصمود والتصدي سوف تدفع هذه الدول إلى تأييد موقفي ، وأن تكون أول من يقف بجانبي . وهذا ما حدث فعلا . ففي يوم الثلاثاء 20 يونيو اتصل بي السفير السوري في لندن والسفير العراقي في باريس ، والمشرف على أعمال السفارة الليبية في لشبونة ، وأخطرني كل منهم على حدة بأنه قد وصلته تعليمات من حكومته بأنهم يرحبون باستضافتي في بلادهم ، وأن عليه أن يقوم بإبلاغي بذلك وأن يعرض علي خدماته ويقوم بتنفيذ كل ما أطلبه[26]. وفي يوم الخميس حضر إلى لشبونة الزميل منذر الونداوي سفير العراق في باريس ، وأخبرني بأن السيد صدام حسين نائب رئيس الجمهورية العراقية قد أمره بأن يتحرك إلى لشبونة وأن يقيم بها ، ويضع نفسه تحت تصرفي وألا يغادرها قط إلا بعد أن أغادرها أنا .

كانت مبادرة العراق بإرسال السفير منذر الونداوي إلى لشبونة عملا ذكيا وذو فائدة كبيرة . وقد وصل الزميل منذر في الوقت المناسب تماما . لقد أصدر السادات تعليماته بأن أغادر منزلي فورا (المنزل هو ملك للدولة المصرية) . وعندما أبلغني بذلك موظف السفارة في صباح يوم الأربعاء ، قلت له إنني لن أنفذ ذلك وإني أحذر الجميع بأني سأطلق النار على كل من يحاول أن يدخل هذا المنزل بدون إذن مني . كنت أستبعد طبعا أن يقوم السادات بمغامرة شبيهة بمغامرة لارنكا Larnaka . ولكني لم أكن أستبعد أن يبعث بمجموعة من ثلاثة أو أربعة من الرجال ليقوموا بعملية إرهابية ضدي . ولذلك كان من ضمن الخطة التي اتفقت عليها مع عبد المجيد فريد هو أن تقوم الجزائر بإرسال مجموعة تأمين . ولكن مجموعة التأمين الجزائرية لم تكن قد وصلت بعد إلى لشبونة ، فطلبت مجموعة تأمين من الونداوي . وفي اليوم التالي كان يعيش معي داخل المنزل أربعة رجال مسلحين من أبناء العراق الشقيق . وقد استمرت هذه المجموعة في القيام بحراستي ليلا ونهارا إلى أن غادرت لشبونة . وفي يوم الجمعة وصلت مجموعة تأمين أخرى من الجزائر بعد ساعات من استلام المجموعة العراقية

مهمة الحراسة . ولكني وجدت من اللياقة أن تستمر المجموعة العراقية في العمل الذي كانت قد بدأته فعلا ، على أن تقوم المجموعة الجزائرية بتأميني أثناء السفر من لشبونة إلى الجزائر .

وبالإضافة إلى عملية التأمين التي قام بها العراق ، فقد كان وجود الونداوي في لشبونة هو المظلة الرسمية التي أصبحت استظل بها بعد أن زالت صفتي كسفير . حقا فإن الحكومة البرتغالية كانت كريمة معي إلى أبعد الحدود . ولم تتخذ ضدي أي إجراء أحمق استجابة لطلبات القاهرة المتكررة . ولكننا يجب أن نعلم أن العلاقات الديبلوماسية هي في النهاية علاقات بين الدول وليست علاقات بين الأفراد . وإذا استعرضنا الماضي فإننا سنجد أن هناك كثير من الحالات التي استقال فيها بعض السفراء احتجاجا على حكوماتهم . ولكن جميع هذه الحالات كانت إما أن تتم بأسلوب هادىء في البلاد التي تكون العلاقات بين الدولة المضيفة ودولة السفير جيدة . وإما أن تكون الاستقالة بأسلوب صاخب إذا ما كانت العلاقة بين الدولة المضيفة ودولة السفير متدهورة . وفي الحالة الأخيرة فإن الاستقالة تكون متبوعة باللجوء السياسي في تلك البلاد . أما بالنسبة لموقفي فقد كان الموقف فريدا وليس له مثيل سابق . إنني لم أستقيل . إنني أهاجم نظام السادات هجوما لم يعرفه العرف الديبلوماسي قبل ذلك . إن البرتغال هي إحدى دول أوروبا الغربية وعضو في حلف شمال الأطلنطي الذي يؤيد ويشجع الخط السياسي للسادات ، الذي كان هو أحد الأسباب الرئيسية لقطع علاقاتي مع نظامه . ومن هنا فإن قيام البرتغال باتخاذ موقف أقرب ما يكون إلى تأييدي منه إلى الحياد بيني وبين نظام السادات ، كان موقفا كريما . ويرجع هذا الموقف إلى العلاقات الشخصية والإحترام المتبادل الذي كان يسود بيني وبين رجال الحكومة البرتغالية . وبالإضافة إلى ذلك فإن نشاط السفير العراقي ، ومن خلفه الحكومة العراقية كان له أثرا لا يمكن إنكاره على الحكومة البرتغالية .

كانت ليبيا كما سبق أن قلت هي الدولة الوحيدة من مجموعة دول الصمود والتصدي التي لديها سفارة في لشبونة . ومع أن هذه السفارة لم يكن بها غير فرد واحد ، إلا أن مجرد وجودها كان يجعلها أقدر من غيرها على القيام بالأعمال التي تحتاج إلى وقت طويل . لذلك فإنه عندما أبلغني السيد محمد بشير الأوسطي ، أن لديه تعليمات من طرابلس بأن ينفذ كل ما أطلبه منه ، فإني طلبت منه أن يخلي إحدى الغرف في مكاتب السفارةلكي أنقل اليها ما أملكه من أثاثات وأمتعة خاصة . وفي اليوم السابق لرحيلي من لشبونة حضر محمد البشير إلى منزلي حيث أستلم جميع الأغراض ونقلها إلى السفارة الليبية . وبعد أن استقر بي المقام في الجزائر تولت السفارة الليبيـة مشكورة نقل هذا الأثاث إلى منزلي في الجزائر العاصمة .

أمة عربية واحدة :

لم أشعر بحيوية ونبض الجماهير العربية كما شعرت بها خلال يوم 19 يونيو 78 والأيام التالية ، إلى أن غادرت البرتغال يوم 28 يونيو. كانت سماعة التليفون في منزلي لا تكاد تستقر في مكانها حتى نستمع إلى رنين جديد . ان تكريم وتمجيد من هم بالسلطة هو أمر عادي وليس بغريب علينا في مصر وفي دول العالم الثالث . أما تمجيد من يرفض السلطة ويتخذ من المعارضة منبرا له ، فقد كان هذا هو المثير حقا . لقد تلقيت مئات المكالمات التليفونية من أشخاص عاديين لا يربطني بهم أي معرفة أو صداقة سابقة . كان الانتساب إلى العروبة هو الرباط القوي الذي يجمع بيننا . كانوا عربا من جميع أنحاء العالم العربي بل ومن المغتربين منهم في البلاد الأوروبية والأمريكية . لم يكتفي الكثير منهم على مجرد التهنئة والتشجيع . بل أن بعضهم تجاوز ذلك فكان منهم من يعرض علي منزله لكي يستضيفني ومنهم من يضع نفسه وسلاحه في خدمتي الخ . كذلك سارعت الهيئات واللجان الشعبية بإرسال تأييدها . وكان في مقدمتها الأمانة الدائمة لمؤتمر الشعب العربي والتي مقرها طرابلس .

السفر إلى الجزائر .

كان رجال الصحافة والإعلام في جميع أنحاء العالم يحاولون أن يعرفوا الدولة التي سوف ألتجيء اليها . ولكني حرصت على ألا أعلن ذلك لأحد . وقد سألني أحد الصحفيين عما أذاعته صحف القاهرة بأنني سأذهب إلى ليبيا ، وأن العقيد معمر القذافي قد وعدني بمنصب مستشار أحصل منه على مرتب يعادل ثلاثة أضعاف مرتبي كسفير ، فضحكت وقلت له ان هذا عرض يستحق الدراسة . لم أكن أريد أن أؤيد أو أنفي أي خبر تذيعه القاهرة عن هذا الموضوع ، حتى أتركهم يسبحون في الظلام ويتمادوا في ضلالهم ، إلى الحد الذي يجعل تراجعهم عما قالوا أمرا غير ممكن . وعندما أختار الوقت المناسب لإعلان الحقيقة فإن وقعها على الكاذبين والمنافقين يكون أشد قوة . وفي مرات أخرى ذكر الصحفيون اسم سوريا والعراق فلم أؤكد أو أنفي . وعلقت قائلا «ان كل ذلك هو مجرد اجتهادات ذكية . فمن المؤكد أنني لن ألتجيء إلا إلى واحدة من الدول العربية الخمس التي اتخذت موقفا حاسما وواضحا من زيارة السادات إلى القدس ، لأن آراؤهم وأفكارهم فيما يتعلق بالسياسة الخارجية تتمشى مع آرائي وأفكاري» .

ولكي أثير بعض البلبلة حول وجهتي ، أرسلت جوازي سفري أنا وزوجتي ومعهما جوازي سفر الصغيران هشام وكريم (حفيداي) إلى السفارة البريطانية ، وطلبت تأشيرة دخول سياحية مع التوصية والرجاء بألا يتسرب هذا الخبر إلى الصحف . وأسقط في يد السفير

البريطاني في لشبونة اللورد موران Lord Moran وبدلا من أن يصدر هذه التأشيرة في دقائق أرسل إلى لندن ليستأذنها في هذا الموضوع . وأن الديبلوماسية الهادئة التي تتبعها لندن في مثل هذه الحالات هي الصمت فلا ترد بنعم أو لا . واستمر الحال على ذلك حتى قمت بسحب جوازي سفري أنا وزوجتي مساء يوم الجمعة وذلك قبل بدء عطلة نهاية الأسبوع بدقائق . وفي يوم الأثنين 26 يونيو بعثت بجوازي السفر إلى السفارة الأسبانية طالبا تأشيرة سياحية لمدة ثلاثة أيام فوافق السفير على هذا الطلب .

في يوم الأحد 25 يونيو أصدر السادات القرار الجمهوري رقم 272 بفصلي من العمل وفي نفس اليوم وصلت ابنتي سامية إلى لشبونة لكي تصطحب ولديها . وفي اليوم التالي أخبرتني السفارة البريطانية بأن لندن وافقت على منح تأشيرة سياحية إلى الصغيران هشام وكريم . وفي يوم الثلاثاء سافرت ابنتي وولديها إلى لندن ، ومنها إلى القاهرة . وبسفر الصغيران لم يعد هناك أي مبرر لبقائي في لشبونة أكثر من ذلك .

السفر من لشبـونــــة :

كان سفير سوريا في لندن وسفير ليبيا في مدريد على اتصال هاتفي دائم معي . وكان سفير العراق مقيما في لشبونة ويمر علي بمعدل مرتين على الأقل في اليوم الواحد ، بينما كانت مجموعة العمل الجزائرية بقيادة المستشار عيسى بوشلاغم تعمل في صمت دون أن يشعر بها أحد . كان كل فريق يعمل دون أن يدري أن هناك آخرون يعملون ودون أن يراهم . وفجأة حضر إلى لشبونة بعد ظهر يوم الثلاثاء 27 يونيو كل من السفير السوري في لندن والسفير الليبي في مدريد واتصلوا بي من فنادقهم هاتفيا يعلموني بحضورهم فدعوتهما للعشاء . وعلى غير موعد حضر السفير العراقي ، وحضر أيضا إثنان من مجموعة العمل الجزائرية فاستبقيتهما للعشاء . وهكذا وبدون أي ترتيب أو تخطيط إنساني اجتمعت دول الصمود والتفت حولي كممثل للصمود المصري . لقد شاء القدر أن يسجل الصمود العربي في صورة تذكارية ليثبت للعالم كله أن هذا الشعب العربي لن يموت أبدا ، وأنه سوف يصمد أمام كل التحديات ويقهرها بصلابته وقوة إيمانه . وعندما جلسنا للعشاء كنا تسعة رجال من خمس دول عربية هي مصر والجزائر والعراق وسوريا وليبيا ، ومعنا سيدة واحدة هي زوجتي . وقبل أن ينصرفوا كنت قد أخطرتهم بأنني سأسافر صباح اليوم التالي إلى مدريد . وشكرتهم على تعاونهم . وطلبت منهم أن يبلغوا شكري إلى حكوماتهم . وأنه مهما كانت البلد التي سوف أذهب اليها فإن ذلك لن يقلل أبدا من تقديري وحبي للآخرين . وقد أصر السفراء على مرافقتي إلى المطار ، ولكني شكرتهم وأقنعتهم بعدم ضرورة ذلك . أما السفير العراقي فقد قال «إنك لن تستطيع أن تقنعني بعدم الذهاب إلى المطار لأنني سوف أسافر على نفس طائرتك إلى مدريد» .

في صباح يوم 28 تحركت إلى مطار لشبونة ، وكان يرافقني السفير العراقي ومجموعة العمل الجزائرية ومجموعة التأمين العراقية . كانت مسؤولية مجموعة التأمين العراقية تنتهي بدخولنا المنطقة الجمركية ، حيث تصبح الحراسة بعد ذلك وإلى أن نصل إلى الجزائر هي مسؤولية مجموعة التأمين الجزائرية . وكانت الوثائق الهامة التي أخشى عليها قد وضعتها في حقيبة تم تجهيزها بأختام الحكومة الجزائرية . وحملها المستشار بوشلاغم لكي تعامل وكأنها حقيبة ديبلوماسية تتمتع بجميع الحصانات الديبلوماسية . وفي أثناء ركوبنا الطائرة أخبرت الزميل منذر الونداوي بأن وجهتي بعد الوصول إلى مدريد هي الجزائر . وأوضحت له أنني كنت قد رتبت ذلك الموضوع مع الحكومة الجزائرية منذ وقت طويل . وكررت شكري له وللحكومة العراقية على كل ما قامت به من أعمال .

وفي مطار مدريد كان هناك مشهد آخر من مشاهد التضامن العربي . فقد كان في استقبالي في المطار ممثلي دول الصمود في مدريد . وبعد أن قضينا في مطار مدريد أكثر من ساعتين ، أقلعت بنا الطائرة الجزائرية متجهة إلى الجزائر ، البلد العربي الذي أخترته لكي يكون وطني الثاني ، وقاعدة كفاحي ضد نظام السادات ، فقوبلت في الجزائر بالترحيب والحب والتقدير الذي كنت أنتظره من هذا البلد الثوري المضياف .



البَابُ الرّابع

الحياة الاجتماعية والسّياحة

الفصل الرابع عشر

الحياة الاجتماعية في بريطانيا

لم تكن الحياة في بريطانيا كلها شقاء وكفاح ، ولكنها كانت مزيجا من الكفاح والاستمتاع بالحياة الاجتماعية الراقية . فهناك حفلات الشاي والحفلات الساهرة الفخمة التي تقيمها الملكة وتدعو اليها السفراء وعلية القوم . وهناك حفلات افتتاح البرلمان . وهناك حفلات سباق الخيول في الأسكوت ASCOT الذي تفتتحه الملكة في شهر يونيو من كل عام . وهناك حفلات سباق القوارب التي تجري في هينلي Henley Regatta في يوليو من كل عام . وهناك موسم صيد الجراوس grouse الذي يفتتح افتتاحا رسميا في اسكتلندا يوم 12 أغسطس من كل عام . وهناك المواسم الأخرى لصيد طائر الفيزانت pheasant وصيد الثعالب وصيد الغزلان الخ . ولكل موسم احتفالاته ومهرجاناته . وبالإضافة إلى ذلك فهناك حفلات العشاء التي يتبادلها السفراء وكبار رجال الدولة ورجال السياسة والأعمال حتى لا يكاد يخلو السفير ليلة واحدة دون أن يكون مدعوا أو داعيا لحفل عشاء . وبالرغم من أن هذه اللقاءات الاجتماعية كان يتم خلالها الكثير من المناقشات السياسية ، إلا أن ذلك لا يمكن أن يقلل من الجوانب الترفيهية التي كانت تتمثل في تلك الاحتفالات .

كان الصيد هو هوايتي . وقد كان ممارسة هذه الهواية في بريطانيا أمرا ميسورا ومتاحا بشكل قل أن يتوفر في أي مكان آخر . ففي موسم الشتاء كنت أقضي عطلة نهاية الأسبوع في صيد pheasants ، وفي صيف كل عام كنت أقضي إجازتي في سكوتلندا حيث أمارس صيد grouse والغزال stag . وبالرغم من أن هذه الهواية كانت تفرض علي أن أستيقظ مع طلوع الفجر وأن أسير مترجلا على أرض وعرة لمسافة 10 ـ 15 كيلومتر في اليوم ، إلا أني كنت أجد متعة كبيرة في تلك الأيام التي أقضيها في الصيد . لكي تنسيني

تلك الحياة المكتبية الهادئة التي كنت أعيشها كسفير ، والتي لم تكن تتناسب مع مزاجي وميولي . وللصيد في بريطانيا قوانينه وتقاليده وقيوده التي يلتزم بها الجميع . فلكل جماعة تخرج للصيد قائد تلتزم الجماعة بتنفيذ أوامره . فهو الذي يصدر الأوامر بالاستعداد لإطلاق النيران ، وهو الذي يصدر الأوامر بإيقافه . وهو الذي يحدد لكل صياد مكانه . وهو الذي ينظم عملية الانتقال من مكان إلى مكان آخر الخ . كانت رحلة الصيد أشبه ما تكون بوحدة عسكرية صغرى تقوم بتنفيذ مهمة قتالية تحت قيادة قائد مجرب .

صيد الفيزانت Pheasants

تتكون جماعة الصيد من حوالي عشرة أفراد . ويقوم قائد الجماعة بتوزيع الجماعة في خط منتشر بفاصل 50 ياردة بين كل صياد . وتكلف مجموعة من الأفراد يبلغ عددهم 10 ـ 20 فرد بدفع طيور الفيزانت في اتجاه الصيادين . ويطلق على هؤلاء اسم الدقاقين The beaters . ويعمل هؤلاء الدقاقين تحت قيادة واحد منهم . ويتقدم هؤلاء الدقاقين في خط منتشر وبفاصل 25 ـ 50 ياردة بين كل منهم . ويقومون باستخدام العصى في ضرب الحشائش أثناء مرورهم بها لكي يفزع الطير الذي يكون مختفيا في الحشائش ، فيطير في اتجاه الصيادين . وعادة يكون كل دقاق مسؤول عن تفتيش منطقة عرضها 25 ـ 50 ياردة وذلك طبقا لعدد الدقاقين وعدد الصيادين . ويبدأ الدقاقين عملهم من مسافة تبعد حوالي 3 ميل ، ويستمرون في دفع الطيور المختبئة في الحشائش . وعندما يقترب الدقاقون إلى مسافة 100 ياردة ، يصدر قائد جماعة الصيادين أوامره بإيقاف الضرب . ويردد أوامره بصوت عال كل من يسمعه من الصيادين وذلك لضمان سماع الأمر وتنفيذه بواسطة جميع أفراد الجماعة .

ولكل ضارب منطقة محددة لا يجوز له أن يتعداها وتحدد بحوالي 25 ياردة ذات اليمين وحوالي 25 ياردة ذات اليسار ، أي منتصف المسافة بينه وبين جيرانه في الجماعة . ويصرح للضاربين باستخدام البنادق ذات خرطوشتين فقط . ولا يسمح بالبنادق ذات الخزنة والتي تستطيع ان تعمر بأكثر من ذلك . ولا يجوز للصياد أن يطلق بندقيته على الطائر الذي يطير على ارتفاع واطي إذا كان خط التنشين على الطائر يشكل زاوية مع سطح الأرض تقل عن 45 درجة وذلك حتى لا يصاب أحد من الدقاقين . وينتهي الشوط الأول بوصول الدقاقين إلى منطقة الضاربين . ثم يبدأ بعد ذلك التحضير للشوط الثاني فينتقل كل من الضاربين والدقاقين إلى أماكن جديدة ويبدأ الشوط الثاني في الميعاد المحدد وبنفس الأسلوب السابق . وعادة يتم أربعة أو خمسة أشواط في اليوم . ويتواجد مع كل صياد مساعد وكلب مدرب . فأما المساعد فلكي يساعد الصياد في تعمير البندقية وفي المراقبة ، وأما الكلب فلكي يحضر

الطائر بعد اصطياده ، وبذلك لا يترك الصياد مكانه طوال فترة الشوط . وتبرز أهمية الكلب في حالة ما إذا كانت إصابة الطائر إصابة ليست قاتلة ، وتسمح له بالتحرك والهروب داخل الحشائش والأحراش . حينئذ يأخذ الكلب في تتبع آثاره إلى أن يقبض عليه ويحضره إلى الصياد . ويفرض قائد الجماعة على الصيادين احتياطات أمن مشددة أثناء فترات الضرب ، وأثناء فترات الراحة . ويشمل ذلك أسلوب حمل البندقية وأسلوب التعمير والتفريغ الخ . ونتيجة لذلك فإنه من النادر جدا أن تقع أي إصابة بطريق الخطأ خلال موسم الصيد . وتبدو أهمية هذه الإجراءات الأمنية إذا علمنا أن اليوم الأول من موسم الصيد في البرتغال عام 1976 أصيب فيه ثمانون شخصا . كنا نخرج لصيد طيور الفيزانت phesants في شهر يناير وفبراير ، حيث يكون الجو باردا والسماء ممطرة وأراضي الصيد موحلة . وكنا نقضي اليوم بطوله في أحضان تلك الطبيعة التي قد لا تعجب الكثيرون ، ولكنها كانت بالنسبة لنا تبدو جميلة وفاتنة . وفي المساء كنا نعود من الغابة إلى حيث نغتسل ونستبدل ثيابنا المبتلة ، وأحذيتنا القذرة الملطخة بالطين . ونلتف حول المدفأة حيث نأكل ونتسامر عما أصبناه من صيد وما حققناه من متعـــة .

رحلة صيـد إلى سكوتلانـدا :

لم أحصل على أي إجازة سنوية خلال العشر سنوات السابقة ، فقد كانت آخر إجازة سنوية حصلت عليها في صيف عام 1963 عندما كنت ملحقا حربيا في لندن . وفي خلال تلك الإجازة التي امتدت أربعين يوما ـ والتي تعتبر أطول إجازة حصلت عليها طوال مدة خدمتي في القوات المسلحة ـ قمت بزيارة فرنسا وإيطاليا وسويسرا والنمسا وألمانيا . وفيما بين عام 64 وعام 73 لم أحصل قط على أي إجازة سنوية . كنت أحصل فقط على إجازات متقطعة تتراوح بين ثلاثة أيام وخمسة أيام . ولكن هذه الإجازات المتقطعة لم تكن قط من النوع الذي يسمح للفرد بالاسترخاء/ونسيان مشاكل العمل . لذلك فقد كنت أنتظر صيف عام 74 لكي أقوم بإجازة طويلة كما ينتظر الطالب انتهاء السنة الدراسية . كنت أحلم بإجازة لا يعكرها أي محادثة تليفونية رسمية . كنت أتذكر تلك الساعات التي كنت أقضيها على شاطىء البحر في الأسكندرية بينما رنين جرس التليفون يهدد ويبدد سعادتي من وقت لآخر.

كنت أمني نفسي برحلة كتلك التي قضيتها عام 63 . ولكن كيف وقد تغيرت الأحوال ؟ لقد كان معي في رحلة عام 63 ،زوجتي وابنتاي سامية وناهد ، وكنا نعيش نحن الأربع في كرفان نجره بعربتنا . كنا نعيش عيشة المعسكرات ونعتمد على أنفسنا في كل شيء نطهو طعامنا. ونغسل ثيابنا . كان لكل منا عمل يقوم به لخدمة الجماعة . وكان كل شي

يتم في نظام دقيق وبسرعة وكفاءة . كانت خدمة المعسكر لا تأخذ منا أكثر من ساعتين في اليوم . وكنا نقضي بقية اليوم في اللهو والمرح . كنا ننتقل من مكان إلى مكان آخر حسب خطة موضوعة . ولكنها كانت خطة مرنة تسمح لنا بزيادة مدة بقائنا في المكان الذي يعجبنا ، أكثر من المدة التي قدرناها في الخطة ، وذلك على أساس اختصار هذه المدة من أماكن أخرى . لم تكن الفنادق تتحكم في مدة إقامتنا . فقد كان فندقنا المتحرك يسمح لنا بأن نضرب معسكرنا حيث نشاء . وقد أتاحت لنا هذه الرحلة أن نفعل الكثير ، وأن نرى الكثير ، وأن نتعلم الكثير . كنا نسبح ونتنزه في شواطىء نيس Nice ، كان Canne في فرنسا وفي شواطىء لوجانو Lugano (سويسرا) ، كومو (إيطاليا) . كنا نتسابق في طلوع الجبل في اينزبروك Innsbruck (النمسا) ، جارميش Garmisch (ألمانيا) . كنا نعبر جبال الألب فوق طريق جبلي ذات ميول حادة وانحناءات صعبة يشرف الجبل على أحد جوانبها ، بينما يطل الجانب الآخر على هوة سحيقة . كان الكرفان يهتز ويتأجج خلف العربة فيثير الفزع في نفس زوجتي بينما يثير الضحك والتعليقات الفكاهية من سامية وناهد . كنا نتجول في الغابات والقرى . ولكننا أيضا لم نتخل عن زيارة المدن الكبيرة حيث الآثار والمتاحف وأماكن اللهو والتسلية . كنا نتنقل بين مطاعم ومقاهي باريس وروما وجنيف وفيينا وميونيخ وبرلين الشرقية وبرلين الغربية . كانت رحلتنا تجمع بين التثقيف وبين اللهو والمتعة . وقد استمتعنا جميعا بكل يوم وكل ساعة في هذه الرحلة .

كانت رحلتنا عام 63 تحمل ذكريات جميلة مما دفع زوجتي إلى أن تلح علي أن نقوم برحلة مشابهة في صيف عام 74 ، ولكني أقنعتها بأن مرور 11 سنة على هذه الرحلة قد أدخل متغيرات جديدة تجعل إمكانية تكرارها أمرا غير ممكن . لقد تزوجت سامية وناهد ، وبدونهما سوف تزداد أعباء خدمات المعسكر علينا . وبالإضافة إلى ذلك فإن متطلبات الأمن كانت تفرض علي أن أكون أكثر حذرا . وهكذا اتفقت أنا وزوجتي على أن نستبعد استخدام الكرفان في إجازتنا عن عام 74 . ولكننا لم نستطع أن نقاوم إغراء السفر بالسيارة بدلا من القطارات والطائرات التي لا تتيح متعة السياحة بالسيارة .

حصلت على إجازة لمدة ثلاثة أسابيع تبدأ من يوم الأثنين 26 أغسطس 74 . وقمت بعمل الترتيبات اللازمة لكي أقضي أسبوعا في صيد الجراوس grouse في سكوتلاندا ، وأن أقضي الأسبوعان الآخران في السياحة ما بين انجلترا وسكوتلندا . ولتحقيق أكبر قدر من السياحة قررت أن أنتخب طريق الذهاب من لندن إلى منطقة الصيد بحيث يسمح لي بزيارة أكبر عدد ممكن من الأماكن السياحية ، وأن أسلك عند عودتي طريقا آخر يتيح لي فرصة زيارة أماكن أخرى لم أتمكن من زيارتها أثناء رحلة الذهاب .

وفي صباح يوم الأحد 25 أغسطس بدأنا رحلتنا السياحية من لندن في اتجاه سكوتلندا .
وفي خلال تلك الرحلة قضينا ثلاثة أيام في وندرمير Windermere
في منطقة البحيرات Lake district حيث المناظر الطبيعية الخلابة . وقضينا يومين في جلاسو glasgow
حيث المصانع والمداخن ، التي ينبعث منها الدخان الأسود فيلوث الهواء ، ويصبغ مباني المدينة
باللون الأسود الذي يقبض النفوس . أما اليومين الأخيرين ، فقد قضيناهما في ادنبرا
Edinborough عاصمة سكوتلندا حيث القصور والمتاحف والقلاع التاريخية ، وحيث
يجتمع فيها جمال الطبيعة بمناظرها الخلابة وجمال المدينة بمبانيها الأنيقة وحوانيتها الكبيرة
وشوارعها الواسعة النظيفة .

وفي عصر يوم الأحد 1 سبتمبر وصلنا إلى فندق Raemoir Hotel الذي يقع على
بعد حوالي 40 كم من أبردين Aberdeen في شمال سكتلندا . ويقع هذا الفندق في
مكان منعزل وسط الغابات ، ويعتبر مركزا هاما لاستقبال هواة الصيد في مواسمه المختلفة .
كنت أول من حضر من مجموعتنا إلى الفندق . وقادني رجل الاستقبال إلى غرفتي حيث
وجدت بها الجدول التفصيلي عن نظام الصيد ، وتوقيتات التحرك ، وبوليصة تأمين على
الحياة ضد حوادث الصيد خلال فترة الصيد الخ . كان الفندق يشغل أحد القصور القديمة .
وقد أدخل عليه بعض التحسينات الحديثة مع مراعاة الإبقاء على الطابع الأثري القديم
للمبنى ، حتى خيل إلي وكأني أعيش في أحد قصور القرون الوسطى .

كانت مجموعتنا تتكون من 15 صياد . وتحركنا في الصباح الباكر من يوم الأثنين
إلى المناطق المحددة للصيد ، تاركين الزوجات في الفندق حيث كان قد تم إعداد رحلات
سياحية وترفيهية لهن لكي تشغلهن طوال فترة غيابنا بالخارج . كانت الرحلة إلى منطقة الصيد
رحلة شاقة حقا . فكنا نركب عربات الجيب فوق أراضي صخرية ، وعبر الأراضي حيث
لا توجد أي طرق ، وكان يرافق كل صياد دليل اسكتلندي ومعه أحد كلاب الصيد المدربة .
وقد قضينا يوما ممتعا للغاية . وعدت إلى الفندق في المساء لأجد مدير الفندق في استقبالي
ليبلغني بأن السفارة المصرية في لندن قد اتصلت بالفندق أكثر من مرة ، وأنها كانت تريد
الاتصال بي لأمر هام وعاجل . اتصلت بالسيد القائم بالأعمال تليفونيا فعلمت منه أن وزارة
الخارجية المصرية قد أرسلت اليهم برقية تطلب فيها حضوري إلى القاهرة على وجه السرعة .
وقرأ لي نفس البرقية التي وردت إلى السفارة حيث لم يرد فيها سبب هذا الاستدعاء المفاجيء .
لم يكن هناك أي سبب يدعو القاهرة إلى أن تستدعي سفيرها في لندن من إجازته السنوية
سوى حديثي مع الطلبة العرب يوم 12 أغسطس الماضي . أخذت أضحك وزوجتي تضرب

كفا على كف وهي تقول «إني أفهم أن يستدعوك وأنت رئيس أركان حرب القوات المسلحة . وقد تعودت على ذلك . أما أن يستدعوك من الإجازة وأنت سفيرا فهذا أمر لا أفهمه» .

لم أخطر أحدا بأني نويت العودة إلى لندن في صباح اليوم التالي . ولكنهم علموا بذلك ونحن نتناول طعام الإفطار صباح يوم الثلاثاء . كانوا جميعا يلبسون ملابس الصيد بينما كنت أنا بملابس السفر . أعتذرت اليهم وودعتهم ثم بدأت رحلة العودة إلى لندن حوالي الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء .

كانت المسافة بين الفندق الذي أقيم فيه وبين منزلي في لندن 1000 كم وكنت أنوي أن أقطعها في يومين . وعندما قطعت منتصف الطريق حاولت البحث عن فندق للمبيت به ولكني لم أوفق في ذلك . ان جميع الفنادق في هذا الوقت من السنة تكون مكتظة بنزلائها . ويندر أن يجد المرء غرفة شاغرة ، ما لم يكن قد قام بحجزها قبل ذلك بعدة أيام أو بعدة أسابيع . كنت أبحث في كل مدينة وكل فندق أمر به عن غرفة خالية فلا أجد ، فاستمر في السير . واستمر الحال على ذلك إلى أن وصلت منزلي في الساعة الثانية من صباح يوم الأربعاء 4 سبتمبر بعد رحلة شاقة ومضنية . وهكذا انتهت إجازتي السنوية عام 74 بعد تسعة أيام فقط .

سبق أن ذكرت في الفصل الثالث بالتفصيل كيف تم التحقيق معي حول حديثي مع الطلبة العرب . وكيف رفضت إصدار تكذيب عما نشرته جريدة السفير حول هذا الموضوع . وكيف عدت إلى منصبي في لندن بعد ذلك رغم الانتقادات اللاذعة التي كنت قد وجهتها إلى نظام السادات . وإني أستسمح القراء في ألا أعود إلى تكرار ما كتبته حتى لا أعكنن على القارىء الذي يريد أن يستمتع فقط بالحياة الاجتماعية ، دون أن يصاب بلسعات الحياة السياسـيـة .

الرحلة الثانيـة والأخيرة داخل بريطانيـا :

لقد صدر قرار نقلي إلى البرتغال في 16 مايو 75 كما سبق أن قلت . كانت البرقية المذكورة تقول «تقرر تعيينكم سفيرا لمصر لدى البرتغال على أن يكون تنفيذكم النقل فور الحصول على موافقة الحكومة البرتغالية . نرجو طلب موافقة حكومة المملكة المتحدة على ترشيح السيد السفير محمد سميح أنور سفيرا لمصر لديها» . وفي 28 مايو وصلتني برقية أخرى تقول بأن الحكومة البرتغالية قد وافقت بتاريخ 26 مايو على ترشيحي سفيرا لديها . وأن الوزارة ستوافيني بأوراق الاعتماد فور صدورها . كان هذا يعني أن القاهرة متلهفة على أن أغادر بريطانيا في أسرع وقت . وأن أتوجه مباشرة من لندن إلى لشبونة دون ما حاجة إلى أن أعود إلى القاهرة للتشاور قبل استلامي لمنصبي الجديد كما جرى العرف بذلك . لم يكن هناك

سببا وجيها واحد يدعو إلى هذا الاستعجال . اللهم إلا رغبة السادات في إبعادي من لندن في أسرع وقت ممكن ، بعد أن اتضح له أن وجودي هناك أصبح من الأمور التي بات لا يستطيع أن يتحملها . ومن هنا قررت ألا أتعجل الأمور . إنني أحتاج إلى شهري يونيو ويوليو لتصفية أعمالي والاستعداد للسفر . وأحتاج إلى شهر أغسطس كإجازة سنوية . وبالتالي فقد قررت ألا أسافر إلى البرتغال إلا في أوائل شهر سبتمبر 75 .

كان آخر عمل رسمي قمت به هو مقابلة الملكة . في الساعة 12,40 يوم 31 يوليو استقبلتني الملكة اليزابيت حيث قمت بتوديعها بمناسبة انتهاء خدمتي بالمملكة المتحدة . وفي يوم السبت 2 أغسطس بدأت الإجازة التي كان مقررا لها أن تمتد ثلاثين يوما . كانت هذه هي آخر إجازة أقضيها في بريطانيا ، ولذلك فقد قررت أن أشاهد فيها أقصى ما يمكن مشاهدته خلال تلك الفترة المحددة .

لقد زرت ويلز Wales وعرفت كيف يعتز شعب ويلز بقوميته ولغته التي تختلف اختلافا كليا عن اللغة الأنجليزية ، حتى يكاد يخيل للمرء أنه في بلد أجنبي . إنني لم أشعر قط وأنا في اسكوتلاندا بأنني أمام شعب يختلف عن الشعب الأنجليزي . إنهم يتكلمون الأنجليزية ، ولكن بلهجة مختلفة سرعان ما يتعود عليها الغريب . أما في ويلز فالأمر مختلف تماما . إنهم يتكلمون لغة تختلف تماما عن اللغة الأنجليزية بل وتختلف بعض حروفها عن الحروف الأنجليزية في الكتابة والنطق . وأنه لمن المألوف أن يقابل المرء الكثيرين ممن لا يعرفون شيئا عن اللغة الأنجليزية . وقد زرنا بانجور Bangor . كايرنارفون Caernarvon ، مضايق ميناي Menai Straits وحدائق سنودينيا Snowdonia National Park . وفي كايرنارفون زرنا حصنها العتيق الذي بني عام 1248 ، والذي يتم فيه تنصيب ولي عهد بريطانيا بصفته أمير ويلز Prince of Wales .

ومن ويلز ذهبنا إلى ليفربول حيث ركبنا المعدية التي نقلتنا إلى جزيرة ايل أوف مان Isle of Man . وهي جزيرة صغيرة تقع بين الجزيرة البريطانية والجزيرة الإيرلندية . وتبعد عن ليفربول 75 ميلا تقطعها المعدية في أربع ساعات . وتعتبر الجزيرة مهجعا مناسبا لطلاب الهدوء والراحة ، حيث لا جلبة ولا ضوضاء ولا مصانع ولا ازدحام . ورغم أن مساحة هذه الجزيرة هي حوالي 300 ميل مربع ولا يسكنها سوى بضعة آلاف فقط ، إلا أن لها عملتها الخاصة ومصرفها الوطني الخاص .

ومن ميناء دوجلاس Douglas في جزيرة إيل أوف مان ركبنا المعدية مرة أخرى إلى ليفربول حيث استأنفنا الرحلة إلى اسكوتلندا . وكلما توغلنا في شمال سكوتلندا ، كلما

اختفت الطرق الجيدة وحل محلها طرق ترابية ضيقة . ان يد الإنسان لم تسرف في تغيير معالم الطبيعة في شمال سكوتلندا . ان الطبيعة لازالت بكرا لم تفسدها الحضارة والمدنية . أراضي واسعة وأناس قليلون ، مياه جارية ، جبال مختلفة ألوانها ، بحيرات هادئة ، غابات كثيفة ، مراعي شاسعة تمرح فيها قطعان الماشية ، طرق ترابية ضيقة . ان فيها كل ما يشتهيه الإنسان من جمال الطبيعة . كنت أقطع بالعربة عشرات الكيلومترات دون أن أقابل أحدا أو ألحق بأحد . وفيما عدا العربة التي نركبها والتي كانت تذكرنا بأننا في أواخر الربع الثالث من القرين العشرين ، فقد كان كل ما حولنا يؤكد وكأن شيئا لم يتغير منذ بضع مئات السنين . كنت أشعر بسعادة غامرة وأنا أقود عربتي وسط هذه الطبيعة الفاتنة . ومع أن زوجتي تحب الطبيعة وتتذوق الرسم والجمال أكثر مني ، إلا أن الوحشة التي كانت تحيط بنا كانت تبعث الرهبة في نفسها . فلا تكاد تستمتع بمنظر حتى تصرخ أو تكتم أنفاسها ونحن نمر فوق طريق ضيق يطل أحد أجنابه على الهاوية ، ثم تثير أمامي كل ما يجول بخاطرها من أسئلة مرعبة . «ماذا لو تعطلت بنا العربة ونحن نبعد حوالي خمسين كيلو متر من أقرب مدينة ؟ ماذا لو خرج علينا بعض قطاع الطرق ؟ الخ» . كانت إجابتي بأن لدي السلاح واحتياطي من الطعام تطمئنها بعض الشيء ولكنها لم تكن لتمحو كل الخوف الذي كانت تشغر به .

وأخيرا وصلت إلى انفرجاري Invergarry والتي تقع على مسافة حوالي 250 كيلو متر شمال جلاسجو ، وكان ذلك يوم الأثنين 11 أغسطس . كان هدفي من البقاء في انفرجاري هو صيد الجراوس grouse والسياحة . كنت أخرج للصيد مع الجماعة يوما ثم أخرج مع زوجتي للسياحة يوما آخر . وفي خلال تلك الأيام زرنا جميع الأماكن السياحية في المنطقة بدءاً ببحيرة نس Loch Ness التي يحكي الأسكتلنديون عنها قصصا أسطورية ، وحتى بحيرة الش Loch Alsh التي عبرناها بالمعدية لكي نزور جزيرة سكاي Island of skye . وفي مساء كل يوم ، كان يجتمع نزلاء الفندق وكلهم من هواة الصيد الذين جاءوا إلى هذا المكان النائي ليمارسوا هذه الهواية ، ويدور الحديث بينهم في شتى المواضيع ، ولكن موضوع الصيد كان يستحوذ معظم اهتماماتهم .

وفي Invergarry مارسنا الصيد بأسلوب يختلف عن الأسلوب الذي مارسناه في العام الماضي . لم يكن هناك دقاقين Beaters ليدفعوا الطيور الينا بينما نقف نحن الصيادون في انتظار مرورها فوق رؤوسنا . بل كنا نسير نحن وسط الأراضي التي تغطيها الحشائش لكي نبحث عن الجراوس الذي يختبيء بينها . وأن هذا النوع من الرياضة يحتاج إلى كفاءة بدنية عالية حيث يقضي الصيادون اليوم بطوله وهم يسيرون وسط هذه الحشائش . كنا نعتمد على الكلاب المدربة في تحديد المكان الذي تختبيء فيه الطيور . وهناك حركات

معينة يقوم بها الكلب المدرب للفت نظر الصياد . فمن حركات الذيل والأذنين والقدمين الأمامين للكلب يمكن تحديد اتجاه الفريسة والمسافة التي تفصلها عن الكلب . وكلما كانت الكلاب نشيطة في الجري والبحث خلال الحشائش كلما استدعي ذلك من الصيادين الجري وراء الكلاب لملاحقتها والاقتراب من الطيور قبل أن تفزع وتطير خوفا من الكلاب .

وفي أحد الأمسيات كنا نتحدث عن شؤون الصيد وتطرق الحديث بيني وبين مدير الفندق الكابتن هانت Cap.L.C. Hunt حول صيد ذكر الغزال Stag . لم يكن في خطتي أن أخرج لصيد الغزال ولم يكن لدي البندقية الخاصة بهذا النوع من الصيد ، ولكن الكابتن هانت أبدى استعداده لتدبير البندقية والذخيرة اللازمة إذا ما أنا رغبت في الخروج لصيد الغزال . كنت أعلم أن هذه قد تكون آخر فرصة لي لكي أحضر إلى اسكوتلندا . فقررت ألا أضيع الفرصة وطلبت اليه أن يقوم بعمل التحضيرات اللازمة .

وفي يوم السبت 16 أغسطس بينما كانت جماعتي تخرج إلى صيد grouse ، كنت أنا وحدي أخرج لصيد ذكر الغزال . كان يرافقني دليل ويطلقون عليه في اسكوتلندا لقب gillie . لقد حملتنا سيارة جيب حتى سفح أحد الجبال ثم انصرفت . وبدأت أنا ورفيقي نصعد الجبل حوالي الساعة الثامنة صباحا . وبعد أربع ساعات من الصعود لم نصادف فيها أي أثر للغزال ، نبهت صاحبي إلى أننا سوف نحتاج إلى أربع ساعات أخرى أو أقل قليلا لكي نعود إلى حيث بدأنا الصعود . ولكنه طمأنني بأننا على وشك أن نصل إلى هدفنا . وبعد حوالي ربع الساعة اكتشف آثار الغزال .وبدأنا نزحف على بطوننا وكأننا نقترب من موقع للعدو يحتله قوم على درجة عالية من اليقظة . كنا نقترب اليهم من تحت الريح حتى لا يشموا رائحتنا . وكنا نزحف على بطوننا حتى لا يرونا . وقد استطعنا بذلك أن نقترب إلى مسافة حوالي 270 مترا من بعض أفراد قطيع يضم أكثر من خمسين غزالا . لم يكن من الممكن أن نخدع القطيع أكثر من ذلك فقد اكتشف وجودنا وبدأ يتحرك ببطء . وهنا كان يجب علي أن أتصرف بسرعة قبل أن تفلت الفرصة . صوبت بندقيتي نحو أحد أفراد القطيع وأطلقت النار . ورأيته من خلال تلسكوب البندقية وهو يعرج ثم يختفي خلال الحشائش العالية . وفزع جميع أفراد القطيع وهربوا بعيدا عنا . قال الدليل إني لم أصبه ولكني أكدت له بأنني أصبته وشاهدته وهو يجري ويعرج وأنه لا يمكن أن يجري بعيدا . أخذنا نمشي في اتجاه الهدف . ولم نكد نسير مائة متر حتى انبطح الدليل أرضا ، وشدني معه لكي اتخذ الوضع راقدا . لقد شاهد قرون الغزال تظهر وسط الحشائش مما يدل على أنه جريح وأنه في وضع الجلوس . قال لي ان ذكر الغزال الجريح شديد الخطورة . لأنه يستجمع كل قواه ويهاجم بشراسة تمكنه أحيانا من أن يبقر بطن الحصان . أخذنا نزحف ونقترب منه شيئا فشيئا حتى

أصبحنا على مسافة حوالي 70 متر . ومن هذه المسافة القريبة أطلقت عليه طلقة ثانية فقتل على الفور .

وقفت أتفرج على الدليل وهو يشق بطنه ، ثم سألته كيف سننقل هذا الحيوان الضخم إلى أسفل الجبل (كان وزنه كما ظهر بعد ذلك هو73 كيلوجرام) . قال إنه قد أعد كل شيء لذلك . سوف يقابلنا حصان في منتصف المسافة التي صعدناها فوق الجبل . وسوف يقوم هو بجره نزولا من الجبل وحتى نقطة المقابلة هذه . بدأنا رحلة العودة حوالي الساعة الواحدة من بعد الظهر . وبعد حوالي ساعتين من الهبوط وعند نقطة محددة ، تقابلنا مع شخص ثالث ومعه حصان . وتعاونا نحن الثلاثة في وضع الغزال على الحصان . ثم استأنفنا السير مرة أخرى . وفي خلال رحلة العودة أخذت أتبادل الحديث مع الدليل . قلت له إني أريد منه أن يسلخه بعد أن نصل إلى أسفل الجبل ، حيث أني لا أفضل أن آخذه معي وهو على هذه الحال فسألني «وهل تريد أن تشتريه ؟» فتساءلت متعجبا «أشتريه ؟ أشتريه من ؟» فقال «من شركة الألومنيوم البريطانية» فتساءلت «وما دخل شركة الألومنيوم البريطانية ؟» قال إنها صاحبة الأرض التي اصطدت عليها الغزال . فقلت له «لقد دفعت ثمن هذه الرحلة إلى الكابتن هانت» . فقال لي ان الكابتن هانت يستأجر حق ممارسة الصيد من الشركة المذكورة صاحبة الأرض . أما كل ما يقع من صيد فوق هذه الأراضي فإنه يعتبر ملكا للشركة . وبعد حوالي ساعتين أخريتين من الهبوط وصلنا إلى سفح الجبل حيث كانت العربة الجيب في انتظارنا . نقلنا الغزال اليها وتركنا الحصان وسائسه . وتحركنا إلى مكان قيل لي أنه مكتب مندوب شركة الألومنيوم البريطانية . وبعد قليل ، وصل مندوب الشركة ومعه ثلاثة عمال . فقام بوزن الغزال وتسجيل عدة بيانات أخرى تشمل تاريخ ووقت ومكان الصيد ومن الذي اصطاده الخ . وبينما كان يقوم بسلخه قلت له «إني أريد أن أشتري هذا الغزال» فقال لي «آسف هذا غير ممكن» فقلت له «لماذا ؟ ألم أقل لك أني سأدفع ثمنه كأي مشتر آخر ؟» فقال ان الشركة مرتبطة بعقد مع ألمانيا لتصدير عدد من هذه الغزلان . وأن هذا هو أول غزال يتم اصطياده في هذا الموسم . وبعد مفاوضات مطولة اشترك فيها العمال الثلاثة والدليل ، وافق مندوب الشركة على أن يبيعني جزءا منه . لم أكن في حاجة إلى أن أشتري الغزال بأكمله لأنه كان سيكلفني كثيرا . ولكني كنت في حاجة إلى شراء جزء منه لكي أقيم عليه احتفالا بهذه المناسبة .

وفي الساعة السابعة مساء كنت أركب عربتي ومعي ربع الغزال ، وأتجه إلى الفندق الذي يبعد خمسين كيلومترا من منطقة الصيد ، والذي كنت قد غادرته في السادسة صباحا

فوصلته في الثامنة مساء . وأنستني حرارة اللقاء وتهنئة الأصدقاء باصطياد هذا الغزال كل ما تحملته من تعب خلال رحلة ذلك اليوم .

وفي صباح يوم 17 أغسطس كنت أشد الرحال مرة أخرى متجها إلى الشمال . كان هدفي هذه المرة هو الوصول إلى مدينة تانج Tongue في أقصى شمال سكوتلندا . كانت تانج تبعد حوالي 220 كم شمال Invergarry . وقد مكثت فيها خمسة أيام ، زرت خلالها جون وجرات John Ogroats في أقصى الشمال الشرقي ، دورس Duress في أقصى الشمال الغربي . وخرجت للصيد خلال يومين آخرين . وفي مساء يوم 20 أغسطس اجتمعت مجموعتنا في فندق هايلاند Scottish Highland Hotel في تانج ، حيث احتفلنا بوليمة عشاء ، كان الطبق الرئيسي فيها هو لحم الغزال stag الذي اصطدته قبل ذلك بأربعة أيام .

وفي يوم 22 أغسطس بدأت أتحرك جنوبا في اتجاه بنزانس Penzance التي تقع في أقصى الجنوب الغربي لأنجلترا . كانت المسافة بين تانج Tongue وبين بنزانس Penzance تبلغ 1400 كيلو متر . وفي طريقي إلى بنزانس ، عرجت على الساحل الجنوبي لمقاطعة ديفون Devon حيث يوجد خليج توربای Torbay الذي تقع عليه المدن السياحية Brixham, Paignton, Torquay ، ويطلق الأنجليز على هذا الساحل اسم الريفييرا الأنجليزية The English Riviera . ومع أن هذه التسمية تسمية مجازية ، إلا أنها فعلا اسم على مسمى . ان كل شيء يراه السائح يوحي بأن الإنسان في فرنسا وليس في أنجلترا . ان التحفظ الأنجليزي لا وجود له في توربای . ان خليج توربای هو حقا فرنسي في مظاهره ومرحه .

ومن خليج توربای تحركت إلى بنزانس فوصلنا في يوم الأثنين 25 أغسطس . وبقدر ما كانت توربای Torbay فرنسية الملامح ، كانت بنزانس أنجليزية في كل شيء . كنا نتزل في فندق الملكة Queen's Hotel الذي يطل على الساحل بهدوئه وجماله . كانت بنزانس هي المحطة الأخيرة في رحلتي . وكنت أنوي أن أبقى فيها ستة أيام ، أعود بعدها مباشرة إلى لندن . لقد كنا حقا في حاجة إلى فترة راحة وهدوء وتأمل بعد كل هذه الرحلة الصاخبة . ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه . ففي صباح يوم 26 اتصلت زوجتي تليفونيا بلندن وعلمت من أحد الأقارب الذين حضروا من القاهرة مؤخرا أن والدتي مريضة جدا وأن حالتها خطيرة وهنا قررت أن أعود فورا إلى لندن وأن أسافر منها إلى القاهرة لكي أعود والدتي . وفي مساء يوم الثلاثاء كنت قد عدت إلى منزلي في لندن بعد فترة غياب بلغت 25

يوما ، قطعت فيها أكثر من 4000 كيلومتر زرت خلالها العديد من الأماكن السياحية في أنجلترا وويلز واسكوتلندا .

الاستعداد النهائي لمغادرة بريطانيا :

وصلت إلى القاهرة مساء يوم الخميس 28 أغسطس . وفي يوم الجمعة كنت بجوار والدتي التي كانت ترقد في إحدى المستشفيات في الأسكندرية . وفي يوم الثلاثاء 2 سبتمبر عدت إلى لندن ، بعد أن تركت والدتي في رعاية الله ورعاية إخوتي . كان علي أن أغادر بريطانيا بحرا إلى لشبونة يوم 6 سبتمبر . وكانت جميع إجراءات السفر وترتيبات التوديع من جانب بريطانيا وترتيبات الاستقبال من جانب البرتغال قد تم ترتيبها ، ومن الصعب إلغاؤها .

لقد كانت رحلتي من لندن إلى القاهرة وبالعكس رحلة مفاجئة . وبالتالي فإني لم أخطر وزارة الخارجية المصرية بهذه الرحلة اعتمادا على أنها تتم ضمن إجازتي . كما أني لم أخطرها بذلك عند حضوري إلى القاهرة لأنني سافرت مباشرة إلى الأسكندرية ولم أعد منها إلا مساء يوم الأثنين أي اليوم السابق للسفر . وفي مطار القاهرة كادت الطائرة تقلع بدوني يوم الثلاثاء لأن ضابط الجوازات كان يصر على أن يكون بيدي تصريحا من وزارة الخارجية يسمح لي بالسفر من القاهرة إلى لندن . وكأن منصبي كسفير لبلادي في المملكة المتحدة لا يشفع لي بالسفر إلى مركز عملي إلا إذا حصلت على تصريح كتابي بذلك من وزير الخارجية . وبعد سلسلة من الاتصالات التليفونية مع وزارة الخارجية ووزارة الداخلية سمح لي بالسفر إلى لندن قبل أن تقلع الطائرة ببضع دقائق . وإني أروي هذه القصة لأبين زيف الإعلام الساداتي عن حرية خروج المواطنين من مصر .

الفصل الخامس عشر

الحياة الاجتماعية في البرتغال

السياحة والاقتصاد :

البرتغال بلد صغير محدود الموارد ، تلعب السياحة دورا هاما في بنيانه الاقتصادي . لقد كانت البرتغال في عهد سالازار تعتمد على ثلاثة مصادر رئيسية لتوفير العملة الصعبة . كانت تعتمد على ثروات المستعمرات ، والعمالة البرتغالية في الخارج ، والسياحة . لم يكن لدى البرتغال ما تستطيع أن تصدره إلى الخارج . فكانت تعتمد على ما تحصل عليه من مستعمراتها بثمن بخس ، وتبيعه في الأسواق العالمية بأثمان مرتفعة . كانت تقوم بتوريد العمال السود من مستعمراتها للعمل في مناجم جنوب أفريقيا ، وتقبض هي ثمن عملهم . ونتيجة لانخفاض مستوى المعيشة في البرتغال بالنسبة للدول الأوروبية ، فقد هاجر كثير من البرتغاليين إلى دول أوروبا ، وأمريكا اللاتينية ، بحثا عن العمل ، حتى وصل عددهم إلى حوالي 2 مليون مهاجر . وهو عدد ضخم يمثل حوالي 20٪ من سكان البرتغال . وكان هؤلاء العمال يبعثون بمدخراتهم إلى البرتغال بمعدل حوالي 2000 مليون دولار سنويا . ثم تأتي السياحة بعد ذلك لتوفر ما بقي من احتياجات البلاد من العملة الصعبة .

ولقد استطاع حكام البرتغال أن يجعلوا من البرتغال نقطة جذب للسياحة الأوروبية . ان انخفاض مستوى الأجور ومستوى المعيشة في البرتغال ، بالمقارنة إلى الدول الأوروبية ، قد جعل منها أرخص بلد سياحي في أوروبا . وأن رخص تكاليف السياحة والخدمات التي تقدمها الدولة للسائح ، قد فتح مجال السياحة في البرتغال ليس أمام الأغنياء فقط ، بل أمام مئات الألوف من السياح المتوسطي الحال . وبالإضافة إلى رخص تكاليف الإقامة ، فإن

اعتدال الجو والقرب من البلاد الأوروبية قد جعل من البرتغال مركزا سياحيا ممتازا ومصدر دخل كبير للدولة .

وبقيام الثورة في البرتغال تغير كل شيء . لقد استقلت المستعمرات وذهب معها ثرواتها وذهب معها العمال الذين كانوا يعملون بالسخرة لصالح أسيادهم البرتغاليين . لقد عاد مئات الألوف من البرتغاليين الذين كانوا يسكنون المستعمرات إلى البرتغال . ولم تستطع الحكومة أن تدبر لهم الأماكن اللازمة لايوائهم ، فأسكنتهم الفنادق التي كانت قد بدأت تخلو من النزلاء . وبذلك فقدت الدولة مصدرا هاما من مصادر الدخل . وقد لعبت الدول الأوروبية الغربية دورا هاما في كساد السياحة في البرتغال عامي 74 ـ 75 وذلك لأسباب سياسية . كانت البرتغال خلال فترة الانتقال (ما بين 25 أبريل 74 ، 25 أبريل 76) تتأرجح بين فكرة البقاء ضمن المعسكر الغربي أو الانتقال إلى معسكر الحياد الإيجابي . وكانت السياحة الأوروبية هي أحد أسلحة الضغط على حكومة البرتغال . وهذا يبين لنا مدى خطورة اعتماد أي دولة على السياحة كعنصر أساسي من عناصر بنائها الاقتصادي . وباقتراب نهاية الفترة الانتقالية ، كانت البرتغال قد اختارت البقاء في المعسكر الغربي ، بل والعمل على توثيق الروابط بينها وبين هذا المعسكر . وفي صيف عام 76 بدأت الحكومة في عملية إجلاء المهاجرين البرتغاليين من الفنادق لكي تستقبل السياح الأوروبيين الذين بدأوا يتوافدون على البلاد . وفي عام 77 امتلأت الفنادق مرة أخرى بالسياح . واستعادت السياحة مركزها كعنصر أساسي من عناصر الدخل .

مصارعة الثيران :

ان مصارعة الثيران هي أمتع شيء يمكن للسائح أن يراه في البرتغال . وهي تقام في البرتغال في موسم الصيف ما بين شهر يونيو وشهر سبتمبر . ويعتبر شهر أغسطس هو أكثر الشهور ازدحاما بهذه الاحتفالات . وأن مصارعة الثيران في البرتغال تختلف عن مصارعة الثيران في أسبانيا . ففي البرتغال يصارعون الثيران وهم ممتطين الجياد في حين أنهم في أسبانيا يصارعونها وهم على أقدامهم . وفي البرتغال لا يقتلون الثيران أثناء المصارعة وهناك قانون يحرم قتل الثور أثناء المصارعة . أما في أسبانيا فإن المصارعة لا تنتهي إلا بقتل الثور .

وقد يتصور البعض أن مصارعة الثور والفرد على قدميه ، تحتاج إلى شجاعة وفن أكثر مما يحتاج اليه المصارع الذي يمتطي صهوة جواده . وهذا خطأ كبير . ان الإنسان الذي يصارع الثور وهو على قدميه يستطيع أن يتحكم في خطواته طبقا للموقف . فيتحرك إلى اليمين أو إلى اليسار في الوقت المناسب . أما من يمتطي منهم صهوة الجواد فإنه مطالب بأن ينقل هذه الرغبات

إلى حصانه وأن يستجيب الحصان لأوامر راكبه بطريقة فورية . وأن تردد الحصان في تنفيذ هذه الأوامر ولو لجزء من عشرة من الثانية قد يكون سببا كافيا لقتل الراكب وحصانه . ويتمتع مصارعي الثيران في البرتغال بشعبية وشهرة لا ينافسهم فيها أحد . ولهذه الرياضة قوانينها وتقاليدها التي استقرت عبر مئات السنين .

وتقوم هذه الرياضة بتجسيد الفروسية ، وإظهار روح الشجاعة والإقدام . فالفارس لا يلبس هو أو حصانه أي نوع من الدروع . كما وأن الحصان لا توضع أي عصابة على عينيه [27] . ان الفارس يعتمد على المهارة وخفة الحركة والتوقيت الدقيق ، والتفاهم الكامل بين الفارس وحصانه . ان كلا من الحصان والثور يجريان بأقصى سرعتهما وجها لوجه وسط الحلبة حتى ليكاد المرء يتصور أن التصادم سوف يقع بينهما لا محالة ، ولكن قبل جزء من الثانية ينحرف الفارس بحصانه ، بعد أن يكون قد غرس إحدى سهامه في عنق الثور. ويتكرر هذا المشهد الرائع حتى يغرس الفارس في عنق الثور ستة سهام . وتبلغ مهارة الفارس في بعض الأحيان إلى الحد الذي يجعله يضع يده على جبهة الثور الذي يطارده داخل الحلبة ، بينما هو يفر بحصانه أمامه . إنه يحافظ على ثبات تلك المسافة القريبة بينه وبين الثور . فإن أسرع الثور أسرع الحصان . وإن أبطأ الثور أبطأ الحصان . وبالتالي تكون المسافة بين قرون الثور وبين الفارس وحصانه لا تزيد عن بضعة سنتيمترات . وفي بعض الأحيان قد تضيق هذه المسافة إلى الحد الذي يستطيع فيه الثور من إصابة الحصان وإدمائه . وكلما اقترب الفارس وحصانه من الثور أثناء تلاحمهم ، كلما اكتسب إعجاب الجمهور وتصفيقهم .

بعد أن يغرس ستة سهام في عنق الثور ، يخرج الفارس من الحلبة ، ويدخل اليها عشرة من الشبان الذين يصارعون الثور بأيديهم بأسلوب مثير يدعو إلى الإعجاب. إنهم يقفون وسط الحلبة على شكل قطار فردي في مواجهة الثور (يقف واحد في مواجهة الثور ويقف الباقون خلفه واحد وراء الآخر) ويطلق على هذه الجماعة اسم فوركادورش forcadores . يبدأ رئيس الجماعة بمعاكسة الثور الذي سرعان ما يبدأ في الاقتحام . ولكن مهارة هذه الجماعة تتلخص في أن الفرد رقم واحد يضع نفسه بين قرون الثور. وسرعان ما يركب رقم إثنين وثلاثة فوق رقم واحد . بينما يقوم الآخرون بمسكه من قرونه وذيله . وبعد أقل من دقيقة يكونون قد نجحوا في السيطرة على الثور وشل حركته تماما .

وبانتصار الفوركادورش Forcadores في شل حركة الثور تعتبر المصارعة قد انتهت ويدفع الثور بعد ذلك إلى خارج الحلبة . ثم يدخل بعد ذلك الفارس ومعه جماعة الفوركادورش ليتقبلوا تهاني الجمهور. وتستغرق هذه المباراة ما بين 20 ـ 30 دقيقة . ويتكون

كل حفل عادة من 6 فرسان ، ومجموعة أو مجموعتين من الفوركادورش . ويستمر الاحتفال الواحد إلى حوالي ثلاث ساعات .

وبالرغم من المهارة الفائقة التي يبديها الفرسان المصارعون وجماعات الفوركادورش في مصارعتهم للثيران ، إلا أنه يندر أن يمر موسم المصارعة دون حوادث مؤسفة . فهناك من يتمكن الثور من قتله أو إصابته بعجز مستديم . وهناك من هم أفضل حظا فتكون إصابتهم بسيطة يعاودون المصارعة بعدها مباشرة أو بعد عدة أيام . وكم من مرة شاهدت أحد جماعة الفوركادورش وهو يطير في الهواء على إثر نطحةقوية ، ثم يهب واقفا بعد ذلك يتابع المصارعة بين تصفيق الجمهور وحماساتهم . لقد شاهدت الكثير في حياتي . ولكن مصارعة الثيران في البرتغال هي أعظم رياضة أعجبتني وشدت انتباهي طوال حياتي . ولكم أتمنى أن تنتشر هذه الرياضة في مصر .

منطقــة الجـــرف : AL GARVE

منطقة الجرف هي المنطقة الجنوبية في البرتغال . وهي أشهر المناطق السياحية في تلك البلاد . حيث يكون الجو معتدلا طوال أيام السنة تقريبا . وحيث تكون مياه شواطئه أكثر دفئا من مياه السواحل البرتغالية الغربية . وإذا كان العرب قد تركوا بصماتهم في البرتغال ، خلال أربعة قرون قضوها في تلك البلاد ، فإن هذه البصمات كانت ولا تزال أكثر بقاء واستقراء في منطقة الجرف . ويمكن للسائح أن يكتشف ذلك ، من أسماء القرى والأماكن ، وفن المعمار ، والعادات ، وطبيعة الحياة في المناطق الريفية من الجرف .

ومن القصص التي تروى للسياح أن أميرا عربيا كان يحكم منطقة الجرف ، اشترى جارية من أهل الشمال كان تجار النخاسة قد باعوها اليه بعد أن اختطفوها من مناطق السويد النائية . وبالرغم من كل وسائل الترف التي كان يقدمها الأمير إلى جاريته الحسناء ، فقد كانت تشعر بالاكتئاب والحزن لافتقادها منظر الثلوج التي تعودت أن تراها في بلادها الأصلية . وفكر الأمير العربي في وسيلة يستطيع بها أن يدخل السعادة إلى قلب أميرته المحبوبة . فأشار عليه البعض بأن يزرع لها أشجار اللوز ، لأن هذه الشجرة عندما تزهر تبدو وكأن الشجرة قد غطتها الثلوج . ونفذ الأمير الفكرة في حديقة القصر فكانت النتيجة باهرة . فأمر بتعميمها في جميع أنحاء البلاد التي تحت أمرته . وهكذا انتشرت زراعة اللوز في منطقة الجرف حتى أصبحت أحد معالمه الرئيسية إلى وقتنا هذا . وفي الأسبوع الأول من شهر فبراير من كل عام تزهر هذه الأشجار فتبدو للناظر وكأن الثلوج قد سقطت عليها ، فأكسبتها لونا أبيضا يسر الناظريــن .

لقد أصبح الأسبوع الأول من شهر فبراير هو ذروة موسم السياحة الشتوية في منطقة الجرف . ان السائح يستمتع في تلك المنطقة بالشمس والدفء وفي نفس الوقت فإنه يستمتع بمنظر الثلوج الصناعية ، التي أوجدتها تلك الزهور البيضاء الجميلة التي تكسو جميع أشجار المنطقة . فإذا أضيف إلى ذلك الخدمات السياحية الأخرى من مأكل ومسكن وانتقال بأسعار في متناول كافة الطبقات السياحية ، اتضح لنا الأسباب التي تجعل من الجرف منطقة جذب ممتازة للسياحة الأوروبية .

رحلة إلى أسبانيا وأندورا :

إنني أعشق السفر والسياحة . ان السياحة هي أفضل مدرسة لدراسة الشعوب . وان السياحة بالسيارة تعطي للسائح أفضل المزايا لمعرفة البلاد والشعوب . انها تمكنه من الوصول إلى القرى والاتصال بالبسطاء من الناس بعيدا عن المدن وضجيجها وزخرفتها الزائفة . كانت البرتغال التي يبلغ طولها حوالي 600 كيلومتر وعرضها حوالي 150 كيلومتر أصغر من أن تحقق نزعاتي للسفر والسياحة . وهكذا قررت أن أقوم برحلة سياحية إلى أسبانيا . وفي يوم السبت 31 أغسطس 76 ، بدأت أنا وزوجتي رحلة امتدت لمدة ثلاثة أسابيع ، قطعت خلالها حوالي 4000 كيلومتر . وزرت خلالها معظم أقاليم أسبانيا ، وكذلك دولة أندورا Andora .

وقد بدأت رحلتي من لشبونة إلى مدريد مارا بقرية باداخوش Badajoz ، التي اغتيل فيها الجنرال دلجادو Delgado بواسطة أعوان سالازار . ومن مدريد تحركت شمالا حيث زرت مناطق الباسك Basque الذين كانوا يطالبون بالاستقلال عن أسبانيا ، وتحدثت مع البعض منهم . وفي مناطق الباسك زرت بلبـاو Bilbao . وسان سباستيان San Sebastian .

وبعد زيارة مناطق الباسك ، انطلقت لزيارة أندورا Andora . وهي دولة مستقلة من أصغر بلاد العالم . وتقع في وسط جبال البرانس Perenes بين أسبانيا وفرنسا . وعندما توقفت بعربتي عند نقطة الحدود وأبرزت جواز سفري المصري ، بدا على وجه حارس نقطة الحدود التعجب لأنه لم يرى جواز سفر مصري طوال حياته . وذهب إلى رئيسه الذي أظهر أمامه بأنه أكثر علما واضطلاعا وقال «نعم نعم إنها جزء من الجمهورية العربية المتحدة United arab Republic . وقد زارنا مرة واحد يحمل جوازها» . فهنأت قائد حرس الحدود على معلوماته وأخبرته بأن الجمهورية العربية المتحدة قد أصبح اسمها جمهورية مصر العربية منذ خمس سنوات .

لقد استمتعت بالسياحة وأنا أقود العربة داخل جبال البرانس لمدة ستة ساعات لكي أصل إلى هذه الدويلة الصغيرة التي لا يزيد عدد سكانها عن 10000 نسمة . فقد كان

الطريق يلتوي كالثعبان فوق الجبال الشاهقة ، وعلى ارتفاع يزيد عن ارتفاع السحب . كنا نسير فوق السحاب . وفي بعض الأحيان كنا نسير داخله . كانت هذه الرحلة الجبلية رغم صعوبتها هي أفضل ما يمكن للمرء أن يستمتع به . أما دولة أندورا نفسها فلا تعدو أن تكون قرية صغيرة على قمة جبل . قضينا فيها بضع ساعات لتناول الغذاء والراحة قبل أن نبدأ رحلة العودة خلال جبال البرانس مرة أخرى . وبالرغم من أن رحلة العودة كانت هبوطا وليست صعودا كرحلة الذهاب . إلا أن حلول الظلام ونحن لازلنا في منتصف المسافة جعل منها رحلة شاقة . ودفع زوجتي إلى التبرم أحيانا والموت رعبا أحيانا أخرى .

ومن أندورا ذهبت إلى برشلونة Barcelona عاصمة إقليم قطالونيا Catalonia وسكان إقليم قطالونيا كانوا يطالبون أيضا باستقلالهم عن أسبانيا (28) . وهم يعتزون بقوميتهم ولغتهم وتاريخهم ، الذي يختلف اختلافا واضحا عن الأسبان الذين سكنوا جنوب ووسط شبه جزيرة إيبريا Eiberia . إنهم يدعون أن الخلاف بينهم وبين الأسبان ، لا يقل عن الخلاف بين الأسبانيين والبرتغاليين . ولذلك فإنهم يعتقدون بحقهم في الاستقلال عن أسبانيا .

ومن برشلونة توجهت جنوبا على الساحل الشرقي لأسبانيا ، والذي يسميه الأسبان الشاطىء المشمس pria del sol . ويمتليء هذا الشاطىء بالمدن والقرى السياحية . ومن هذا الساحل زرت مدينة أليكانت alicante ، والقرية السياحية تورملينو Torre molinos ونظرا لقرب تورملينو من الساحل المغربي فإن كثيرا من المغاربة يصطافون بها . لقد قابلت بعضا منهم كانوا ينزلون في الفندق الذي كنت أنزل فيه . كما قابلت الكثير غيرهم أثناء تجوالي داخل تلك القرية .

وأسبانيا مثلها مثل البرتغال تعتمد على السياح الذين يفدون اليها من أوربا . وتقوم الشركات السياحية الأوروبية بحجز الغرف في الفنادق طوال فترة الموسم ، ثم تبعث بالأفواج السياحية الواحدة تلو الآخر . وفي الفندق الذي نزلت فيه كان حوالي 90٪ من النزلاء من ألمانيا الغربية حتى ليخيل للمرء أنه يعيش في ألمانيا بعد أن نقلوا اليها الشمس والدفء والمياه التي تفتقدها .

ومن تورملينو بدأت أجوب أرض الأندلس Andalusia . ويتكون قلب الأندلس من مثلث رأسه الشمالي هو قرطبة Cordoba وقاعدته هي غرناطة granada في الشرق وأشبيلية Seville في الغرب . والمسافة بين غرناطة وقرطبة 150 كم وبين قرطبة وأشبيلية هي 140 كم .

ها هي غرناطة التي فتحها العرب عام 711 ميلادية وأقاموا فيها إلى أن دالت دولتهم عام 1492 . ها هو قصر الحمراء Alhambra ، الذي يجمع بين فخامة المعمار وبأس الحصون . ان قصر الحمراء ليس قصرا بالمعنى المفهوم . وإنما هو مدينة مستقلة تضم قصر الحاكم ، ودواوين الحكومة ومساكن الجند . ويشغل مساحة حوالي 250000 متر مربع . أما داخل المدينة نفسها فقد بنى العرب أول جامعة إسلامية في الغرب . وأطلقوا عليها اسم المدرسة ولازال هذا الاسم يستخدمه الفرنج حتى الآن La Madraza . وبالإضافة إلى قصر الحمراء والمدرسة فهناك آثار أخرى من حمامات ومستشفيات الخ . وجميعها تشهد بحضارة وثقافة وعز قديم .

وفي قرطبة شاهدت جامع قرطبة ومدينة الزهراء . وقد بني هذا الجامع في عام 785 ميلادية ، ثم تم توسيعه للمرة الثانية عام 833 ، ثم للمرة الثالثة عام 961 ، ثم للمرة الرابعة عام 987 في عهد هشام الثاني ووزيره المنصور . كانت مدينة قرطبة تزدهر عاما بعد عام حتى بلغ سكانها في نهاية القرن العاشر حوالي مليون نسمة . وكان لابد أن يقوم الحكام بتوسيع الجامع لكي يتمشى مع تزايد عدد المسلمين في تلك البلاد ، حتى وصلت مساحة الجامع إلى حوالي 15000 متر مربع . وبعد أن دالت دولة المسلمين في قرطبة عام 1236 ، قام فرديناند بتحويل الجامع إلى كنيسة مع المحافظة عليه كما هو. ولكن هذا لم يرض الكثير من المسيحيين الذين كانوا يريدون أن يغيروا من طابعه . ولكن اتساع الجامع كان يقف عثرة في وجه من يريدون إجراء تغيير شامل فيه . وفي عام 1766 تم بناء كنيسة داخل مبنى الجامع ولكنها لم تكن لتشغل أكثر من عشر مساحته . وبقيت أعمدة الجامع شامخة تتحدى الزمن . وبقي محرابه كما كان عليه تحفة فنية رائعة .

ان جامع قرطبة هو مفخرة للعرب والمسلمين في كل مكان . وان السائح العربي عندما يدخل هذا الجامع يتملكه شعور جامح لا يستطيع أن يسيطر عليه . ويقال أن الملك فيصل ال سعود كان في زيارة رسمية لأسبانيا وكان من ضمن برنامج الزيارة أن يقوم الملك بزيارة جامع قرطبة . وعندما وصل الملك فيصل إلى المحراب داخل الجامع ، أذن للصلاة وأقام الصلاة وصلى من خلفه مرافقيه ، بين دهشة مرافقيه من الرسميين الأسبان . وبعد أن أتم الملك الزيارة عرض على المسؤولين في الحكومة الأسبانية أن يشتري منهم هذا الجامع بالثمن الذي يرغبونه ، وأن يتعهد لهم أيضا بأن يبني لهم كنيسة أخرى أكبر وأفخم من تلك التي بناها الصليبيون الأوائل داخل حرم الجامع . وقد وعدت الحكومة الأسبانية بدراسة الموضوع . ولكنها لم تتخذ حتى الآن أي قرار بخصوص هذا الموضوع .

أما مدينة الزهراء التي بناها الخليفة عبد الرحمن الثالث على مسافة خمسة كيلومترات من قرطبة لتكون مقرا للحاكم ، فقد زحف الإعمار حتى ربط بينها وبين قرطبة . وقد بدأ بناؤها في عهد عبد الرحمن الثالث عام 936 واستغرق بناؤها أكثر من عشرين عاما . ولكنها دمرت ونهبت على مر السنين . ولم يبق منها إلا بعض الأعمدة والنقوش الفنية التي تشهد بعظمة الحكم الذي قام في تلك المدينة منذ نيف وألف عام .

وفي أشبيلية Seville نجح الصليبيون في تدمير الآثار العربية فلم يبق منها إلا القليل . ولعل أهم ما بقي من آثارعربية هو القصر Alkazar . ويرجع السبب في عدم تدميره إلى أنه آية في الجمال والفن ، مما دفع حكام الفرنجة لأن يحتفظوا به ويقيمون فيه .

لقد قضيت أسبوعا في الأندلس . كنت أشعر في كل دقيقة منها بعظمة الشعب العربي وقوة الدين الإسلامي . وقد أعجبتني أيضا السياسة الجديدة التي انتهجتها الحكومة الأسبانية منذ العشرينات من هذا القرن ، والتي ترمي إلى المحافظة على الآثار العربية والإسلامية بدلا من تخريبها وتدميرها . وإذا كانت الحكومة الأسبانية لم تبذل مجهودا يذكر نحو ترميم وإصلاح المساجد والمدارس ومباني الخدمات العامة ، فإن جهودها في المحافظة على طابع تلك المدن الأندلوسية قد حقق نجاحا باهرا . إنهم يحافظون على الطابع المعماري ، حتى أنه إذا هدم أحد البيوت القديمة أقاموا مكانه منزلا جديدا بنفس المعمار ونفس الطابع . وأن من يمشي الآن في قرطبة القديمة بشوارعها الضيقة التي لا تجوبها وسائل النقل الحديثة ، ثم يدخل بيوتها ذات الطابع الأندلسي ليشعر وكأنه يعيش في هذه المدينة منذ أكثر من ألف عام .

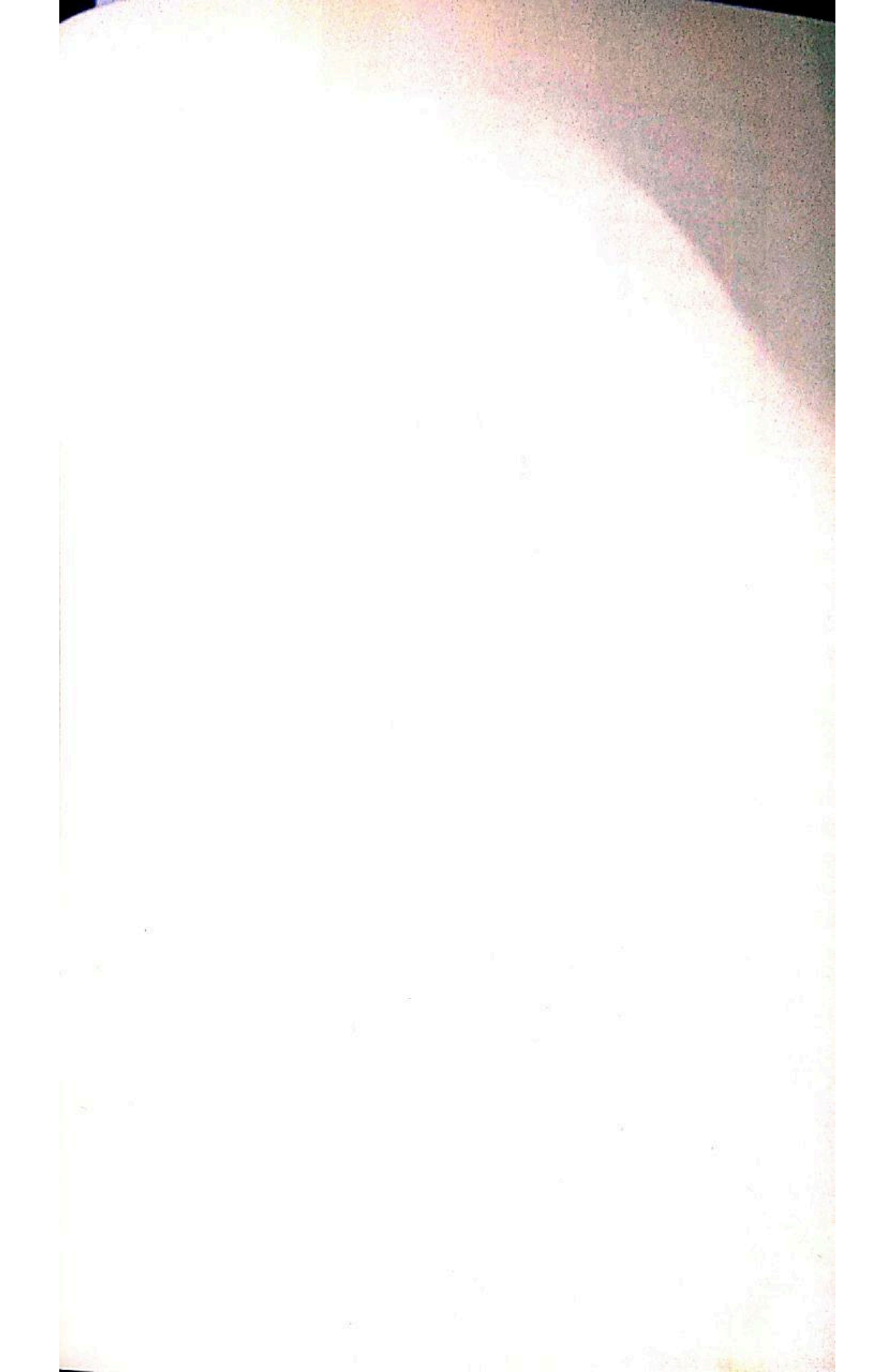
من شتوتجارت إلى لشبونـــة :

كنت قد اشتريت عربة مرسيدس وتحدد ميعاد تسليمها من المصنع ليكون يوم 22 نوفمبر 76 . وكان علي إما أن أسافر إلى شتوتجارت لاستلامها ، أو أن تقوم الشركة بترحيلها إلى لشبونة مقابل 1000 دولار . وهنا فكرت أن أقوم برحلة تجمع بين الاقتصاد والسياحة . ان المسافة بين شتوتجارت ولشبونة حوالي 2000 كيلومتر وهي مسافة يمكن قطعها في ثلاثة أو أربعة أيام . فلو أنني قطعتها في أسبوعين فإني أستطيع أن استمتع بالسياحة أنا وزوجتي لمدة عشرة أيام . إنها سوف تكون رحلة سياحية رخيصة إذا نحن خصمنا من تكاليفها مبلغ الألف دولار الذي كان يتحتم علي أن أدفعه ثمنا لشحن العربة من ألمانيا إلى البرتغال .

وفي يوم الأحد 21 نوفمبر سافرنا بالطائرة من لشبونة إلى شتوتجارت . وفي رحلة العودة قضينا يومين في ألمانيا ، وأربعة أيام في باريس ويومين في بودرو . وعند وصولي إلى أسبانيا كان أسهل الطرق وأسلكها هو الطريق من سان سباستيان San Sebastian إلى مدريد

ومنها إلى لشبونة . ولكني كنت قد سلكت هذا الطريق من قبل وكنت أريد أن أستطلع طرقا أخرى . وقررت أن أسلك الطريق الجبلي الذي يمر عبر الساحل الشمالي لأسبانيا عبر سانتاندير Santander ثم لاكرونيا La Coruna في أقصى الركن الشمالي الغربي لأسبانيا . ولم تكن الرحلتين من سانتاندير إلى لاكرونيا سهلة وذلك نظرا للطبيعة الجبلية لهذه المنطقة . ونظرا لسوء الأحوال الجوية في ذلك الوقت من السنة . ولكني أؤكد للقارىء بأن التعب الذي يلاقيه المسافر لا يوازي مطلقا الفوائد والمعرفة التي تعود عليه نتيجة اتصاله بالشعوب الأخـرى .

ومن لاكرونيا بدأت أتحرك جنوبا إلى فيجو Vigo وهي آخر مدينة أسبانية على الساحل وعلى مقربة من الحدود البرتغالية ومنها تحركت إلى بورتو Porto ثم لشبونة فوصلت اليها بعون الله يوم الأحد 5 ديسمبر 1976 .



الخاتمة

كان وصولي إلى الجزائر يوم 28 يونيو 78 هو نهاية مرحلة وبدء مرحلة جديدة في حياتي . لقد أنهيت في هذا اليوم حياتي الديبلوماسية وبدأت حياتي السياسية . لقد خدمت في السلك الديبلوماسي المصري أربعة سنوات ونصف قضيت منها أكثر من أربعة سنوات كسفير لمصر في لندن ولشبونة . لم أكن أحب كثيرا هذا العمل الديبلوماسي . وقد سألني الكثيرون «هل تفضل الحياة العسكرية أم الحياة الديبلوماسية ؟» كنت أسخر من هذه الأسئلة وكانت إجاباتي لا تخلو من اللوم والتجريح لم يسألني هذا السؤال . كيف أضع سنوات شبابي وعمري وهواي وحبي للقوات المسلحة في ميزان مع بضع سنوات في العمل الديبلوماسي ؟ لقد اخترت الحياة العسكرية لنفسي وأنا دون السابعة عشرة من عمري عندما دخلت الكلية الحربية في فبراير 39 ، وفي خلال ما يقرب من 35 سنة قضيتها في القوات المسلحة ، فإني لم أندم يوما واحد على هذا الاختيار . أما العمل في السلك الديبلوماسي فقد تحكمت فيه الأقدار ، ولم يكن بمحض اختياري . حقا لقد وافقت وقبلت العمل بهذا السلك بعد تردد ولكن هذه الموافقة جاءت محصلة لكثير من العوامل المتعارضة . فكيف أوازن بين عمل اخترته وأحببته وعمل ساقتني الأقدار اليه . كيف أوازن بين حياتي واتصالاتي اليومية مع رجال بسطاء من الجنود والضباط ، يبوح لسانهم بما يجول في صدورهم ، وبين أناس يتحدثون بالألغاز ويحتاج المرء إلى مجهود ضخم ليعرف ماذا يقصدون أو بماذا يلمحون ؟

ان رجال السلك الديبلوماسي قوم ظرفاء ومهذبون . ولكنهم مكبلون بالأغلال . ان تطور وسائل المواصلات من تليفون ولاسلكي وتلكس قد لعبت دورا كبيرا في الحد من حرية تصرفهم . لقد أصبحت القرارات الهامة تتخذ في عواصم الدول بواسطة رجال السياسة . وأصبح واجب السفراء ورجال السلك الديبلوماسي هو تبرير قرارات رجل السياسة . وهذا عمل لا بأس به إذا كان السفير مقتنعا بهذه القرارات السياسية . أما إذا لم يكن مقتنعا بها

فهو إما أن يلعب دور المنافق ، أو دور السفير الغير ملتزم . ولقد كان قيامي بدور السفير غير الملتزم عملية صعبة للغاية . فقد كان علي أن أحتفظ بحريتي في انتقاد النظام الذي أمثله . وفي نفس الوقت كان علي ألا أدفع الأمور إلى حد المجابهة إلا عندما يحين الوقت المناسب . كنت أريد أن يكون وقت المجابهة من أختياري وليس من اختيار السادات . وقد نجحت والحمد لله في تحقيق ذلك .

ان الخدمة في السلك الديبلوماسي هي متعة وفتنة لمن يريدون أن يستمتعوا بمباهج الحياة . لقد كنت أحصل على ماهيات ومرتبات في العام الواحد كسفير ، ما يوازي إجمالي ما حصلت عليه طوال خدمتي في القوات المسلحة . لقد كنت أنام كل ليلة في بيتي وكنت أقضي أنا وزوجتي عطلة نهاية الأسبوع والإجازات السنوية في السياحة . لقد عوضت زوجتي خلال تلك السنوات كل ما كانت قد افتقدته من حياة عائلية خلال سنوات خدمتي في القوات المسلحة . لذلك فإنه عندما كان يطلب إلى زوجتي المقارنة بين خدمة القوات المسلحة وخدمة السلك الديبلوماسي فإنها كانت تجيب بدون تردد «السلك الديبلوماسي طبعاً» . ومع ذلك فإني لم أترك لمباهج الحياة في السلك الديبلوماسي أن تفتنني . كنت أستمتع بها ما دام الله قد رزقني بها . ولكني لم أكن على استعداد لكي أتنازل عن مبادئي في سبيل الاحتفاظ بها . كنت أنتظر الوقت المناسب . فلما جاء هذا الوقت ركلت تلك الحياة السهلة ، واخترت حياة الكفاح من أجل مبادئي .

ان أعظم متعة في الحياة هي أن يعيش الإنسان في سلام مع نفسه . وأن هذا السلام مع النفس لا يمكن الحصول عليه إلا إذا كان الإنسان راضيا في قرارة نفسه بما يقوم به من تصرفات . لقد كنت أعلم بأن قراري بمجابهة السادات سوف يتبعه الفصل والنفي ، ومع ذلك فإني لم أتردد في اتخاذ هذا القرار . ورغم وجودي الآن في المنفى ، إلا أنني أشعر بسعادة وحرية لم أكن أحس بها وأنا سفير لبلادي في لندن ولشبونة . وأن الحب والتقدير الذي ألقاه من السلطات الجزائرية والشعب الجزائري وكافة الشعوب العربية ، لمما يزيد من قوتي وتصميمي على السير في الطريق الذي أخترت أن أسير فيه ، والله ولي التوفيق .

الملحق 1

نص البيان الذي ألقاه الفريق سعد الدين الشاذلي على الصحفيين ووكالات الأنباء في لشبونة يوم الأثنين 19 يونيو 1978

بسم الله الرحمن الرحيم

السادات يحاول أن يخفي حقيقة نظامه الأوتوقراطي وراء ستارة من المؤسسات الدستورية التي لا حول لها ولا قوة

ان نظام السادات ليس أفضل من نظام سالازار Salazar أو نظام كايتانو Caetano الذي أسقطته الثورة البرتغالية في 25 أبريل 74 . كما وأنه ليس أفضل من نظام فرانكو Franco الذي سقط في أسبانيا بعد موته في 20 نوفبر 75 . ان إجراء الانتخابات ، وخلق بعض المؤسسات الدستورية في بلد ما لا يعني بأي حال من الأحوال أن الديموقراطية قد تحققت في هذا البلد . ففي خلال حكم سالازار كان هناك دائما انتخابات . كان هناك انتخابات لاختيار رئيس الجمهورية . وكانت هناك انتخابات لاختيار أعضاء البرلمان . ولكن نتيجة هذه الانتخابات كانت معروفة ومؤكدة قبل أن تجرى ، لأن تزوير هذه الانتخابات كانت حقيقة معروفة . لقد كان سالازار يزج بخصومه السياسيين إلى السجون بموجب قوانين وضعها هو بنفسه وصادق عليها أعضاء البرلمان الذي أتى هو بهم إلى البرلمان - نتيجة تزييفه للانتخابات - لكي يكونوا أداة طيعة بين يديه . وان السادات يفعل في مصر نفس ما فعله سالازار في البرتغال .

ان القوانين التي قام السادات بإصدارها مؤخرا (مايو 78) لهي أشد قسوة وصرامة من كل ما أصدره سالازار طوال حكمه من قوانين ظالمة . وتحت شعارات الوحدة الوطنية ، والسلام الاجتماعي ، فإن السادات يستطيع الآن أن يسوق من يشاء من معارضيه إلى السجون ، أو حتى إلى حبل المشنقة . إنه يعتبر كل من ينتقد زيارته للقدس بأنه يهدد الوحدة الوطنية . إنه يعتبر كل مظاهرة أو إضراب أو احتجاج يقوم به العمال والفئات الكادحة ، للمطالبة بتحسين أجورهم وحصولهم على نصيبهم العادل من عائد

عملهم ، وكأن هذا العمل تهديدا للسلام الاجتماعي . ان السادات هو صورة طبق الأصل من صورة سالازار . ان السادات نفسه لا يخفي إعجابه بهذا الدكتاتور . إنه يهاجم النظام الثوري الذي أرسى قواعد الديمقراطية في البرتغال خلال عامين فقط بعد نصف قرن من الحكم الديكتاتوري . إنه يهاجم النظام الديموقراطي الحالي في البرتغال ويتهمه بالفوضى . ان السادات يعتبر حرية التعبير وحق الأفراد في معارضة السلطة وتوجيه النقد اليها علنا وكأنه نوع من الفوضى . وإني وقد قضيت ما يقرب من ثلاث سنوات كسفير لبلادي في هذه البلاد ، أود أن أسجل إعجابي بالأسلوب والسرعة التي تم بها تحول البرتغال من النظام الديكتاتوري إلى النظام الديمقوقراطي . إنها تجربة جديرة بالدراسة والتقدير . وإني أتمنى أن أرى ديموقراطية في مصر شبيهة بتلك الديموقراطية التي تمارس حاليا في البرتغال .

لو أن هناك ديموقراطية حقيقية في مصر ، لما اختار أبناء مصر هذه السياسة الخارجية الخاطئة التي يدفعنا اليها السادات . وقد أدت هذه السياسة الخارجية الخاطئة إلى نتائج واضحة ، تؤكد فشل هذه السياسة وخطأ مسارها . ومن هذه النتائج ما يلي :

1 ـ لقد أصبحت إسرائيل أكثر تعنتا في مطالبها . فقد أصبحت اليوم ترفض ما سبق لها أن أبدت استعدادها لقبوله في أحلك أيام هزيمتنا عام 1967 .

2 ـ لقد تدهورت الكفاءة القتالية للقوات المسلحة المصرية . وأن قدراتها القتالية اليوم تقدر بحوالي 60٪ من قدراتها القتالية قبل حرب أكتوبر 73 ، في حين أن القدرات القتالية للقوات المسلحة الإسرائيلية قد تعاظمت وأصبحت اليوم حوالي 160٪ بالنسبة لقدراتها قبل حرب أكتوبر . وحيث أن القدرات القتالية للقوات المسلحة هي العامل الحاسم الذي يمكن القادة السياسيين من التفاوض من مركز قوة لكي يتحقق السلام ، فإنه من المستحيل أن يتحقق سلام مشرف تحت مثل هذه الظروف .

3 ـ لقد اهتز التضامن العربي وبدأ يتفكك . وأن الانقسام الذي يسود العالم العربي الآن يفوق في أبعاده كل ما حدث خلال الثلاثين سنة الماضية .

4 ـ لقد تدهور مركز مصر الدولي نتيجة فقدانها لمركزها القيادي في العالم العربي وبين الدول الأفريقية ودول العالم الثالث .

لو أن هناك ديموقراطية حقيقية في مصر ، لما تجرأ السادات على نشر مذكراته بينما هو يزاول سلطاته كرئيس للجمهورية . لقد تعودنا أن نقرأ مذكرات لكبار السياسيين والعسكريين ولكن بعد اعتزالهم الخدمة ، أما أن يكتب أحدهم مذكراته وهو لازال يشغل منصبه ، فإن هذا لم يحدث قط في أي دولة في العالم خلال التاريخ الحديث . وهكذا فإن السادات أصبح الآن أول رئيس دولة يكتب وينشر مذكراته بينما هو لا يزال في السلطة . ما الذي يريده السادات من وراء قيامه بمثل هذا العمل المشين ؟ هل يريد المال ؟ أم يريد تزوير تاريخ مصر ؟ أم يريد أن يتستر وراء منصبه لكي يحكي قصصا كاذبة ويتهم خصومه بالباطل ، دون أن يكون لهم الفرصة للرد عليه ؟ ان قيام السادات بإصدار مذكراته هو عمل لا أخلاقي لا يمكن أن يكون مقبولا في أي بلد ديموقراطي . ومع ذلك . ويا للأسف فإن الإعلام المصري أخذ

يهلل لهذه المذكرات ويمجدها وكأنها عمل خارق وليست مجرد مجموعة من القصص المختلقة . ان الإعلام المصري يقوم بترديد ما ورد في هذه المذكرات والترويج لها دون أن يحاول أي رجل منهم أن يتأكد من صحة ما ورد فيها . إني أرثي لحالهم ، ولحال غيرهم من المصريين الذين تضطرهم لقمة العيش إلى أن يشيدوا بالسادات ونظامه ، مثلهم في ذلك مثل كل المستضعفين من عباد الله الذين يشيدون بعدل جلاديهم .

والآن فلننتظر سويا لنرى كيف سيتصرف السادات . هل سيتصرف بأسلوب ديموقراطي ؟ أم هل سيتصرف طبقا لأسلوبه الأوتوقراطي ؟ وعموما فإني قد جهزت نفسي لكلا الاحتمالين . وإني لواثق من أن الإعلام المصري ـ الذي تعلمون جميعا بأنه ملكا للدولة ـ سوف يشن هجوما شديدا على شخصي ، ولكني أعلن بأني لن أهتم بما يقولوه الآن . إني أعلم أنهم إنما يرددون صوت سيدهم . إن ما يهمني حقا هو ما سوف يقولونه بعد سقوط نظام السادات . ان هذا الإعلام المصري هو نفسه الذي مجد عبد الناصر عندما كان في السلطة ، وهو نفسه الذي هاجم عبد الناصر بعد وفاته دون أن يشعر بأي خجل أو تأنيب للضمير . إنهم يكررون أنفسهم الآن بتمجيد السادات أثناء وجوده في السلطة ، اعتمادا على قدراتهم في تغيير لون جلودهم بما يتناسب مع مطالب من بيدهم السلطة . ولكن يجب علي أن أحذرهم ، بأن الشعب المصري لن يسمح لهم بتكرار أنفسهم ، ولن يشجع هؤلاء الانتهازيين . من كان منهم لا يستطيع أن يقول كلمة الحق فليصمت . إننا لا نريد منهم أن يهاجموا السادات ونظامه . ولكننا نريد منهم ألا يقوموا بترويج الادعاءات الباطلة ، والقصص المختلقة التي يدعيها السادات . ان طريق الديموقراطية في مصر هو طريق صعب ، ولكنه هو الطريق الوحيد ، الذي يمكن من خلاله أن تصل مصر إلى مستقبل أفضل . عاشت مصر وعاشت الديموقراطية ؟

لشبونـة 19 يونيو 1978 فريق سعد الدين الشاذلي

سفير جمهورية مصر العربية في البرتغال

الملحق 2

زيارة السادات للقدس
من هو صاحب الفكرة

ماذا يقول السادات :

عندما قمت بكتابة هذه المذكرات ، لم يكن لدينا فكرة واضحة عن الأسرار التي واكبت زيارة الرئيس السادات للقدس في 19 نوفبر 1977 . من هو صاحب الفكرة ؟ من هو المخرج ؟ ما هي الأطراف التي شاركت وساهمت في التحضير والإخراج ؟ لم يكن لدينا سوى ما أعلنه السادات في أحاديثه ، وما سجله في كتابه البحث عن الذات والذي نشره في ربيع عام 1978 .

يتحدث السادات في صفحتي 395 ، 396 من مذكراته عن زيارته لواشنطن في أبريل 1977 ، وعما دار بينه وبين كارتر من محادثات فيقول «وضعت أمام كارتر استراتيجية سلام محددة .. وقلت له لا أنكر على إسرائيل حقها في أن تعترف بها دول المنطقة .. ولكن اتفاقية السلام يجب أن تتضمن إقامة دولة فلسطين في الضفة الغربية وقطاع غزة ، على أن تنسحب إسرائيل من الأرض المحتلة عام 1967 . وأن إسرائيل يجب أن تعطي جميع الضمانات التي تطلبها حتى إذا رأت أن تسلح كل مواطن فيها بدبابة أو طائرة ... وإذا اختارت إسرائيل أن تعقد مع أمريكا ميثاق دفاع مشترك ، فلن أطالب بالمثل لا مع أمريكا أو الاتحاد السوفيتي أو أي دولة أخرى ... وأكدت له أننا اليوم في سنة 1977 مستعدون للسلام كما كنا عندما قمت بمبادرتي في 1971 بل وأكثر» .

وفي الصفحة 401 من نفس المرجع يقول السادات «قبل المبادرة بشهرين تقريبا فوجئت برسالة من السفارة المصرية في واشنطن تقول أنها تسلمت خطابا خاصا للرئيس السادات من الرئيس كارتر وأنه مكتوب بخط اليد ومختوم بالشمع الأحمر . وأنه نظرا لأهمية هذا الخطاب فقد أرسل مع أحد أعضاء السفارة . وقد قمت بالرد عليه وأرسلته بنفس الطريقة إلى كارتر» . ويستطرد السادات فيقول أنه يجب ألا يتبادر إلى ذهن البعض أن خطاب كارتر تضمن طلبا منه بالقيام بهذه المبادرة ، فهو لا يستطيع ذلك

لأنه يعلم أن بيننا وبين إسرائيل حاجزا نفسيا رهيبا . ولكن السادات يقول أن الخطاب كان يتضمن آخر تقييم للموقف ، ويمثل في الحقيقة بدء التفكير في المبادرة التي حدثت بعد ذلك بشهرين .

وفي صفحة 407 من نفس المذكرات يقول السادات أن فكرة زيارة القدس تبلورت في رأسه بعد زيارته للرئيس شاوشسكو في رومانيا . وفي ذلك يقول «لذلك عندما ركبت الطائرة في طريقي إلى إيران ـ وبالذات عندما مرت الطائرة فوق تركيا ـ وجدت ملامح المبادرة تبرز بوضوح أمامي .. كان معي في الطائرة وزير الخارجية فقط ، الذي لم تستطع أعصابه تحمل المبادرة واستقال .. مسكين .. قلت له إني أتصور دعوة الخمسة الكبار : كارتر ، بريجنيف ، ديستان ، كالاهان ، هواكوفينج ، إلى اجتماع في القدس .. في الكنيست . وأن أدعو معهم الأطراف المعنية في العالم العربي : سوريا ، الأردن ، لبنان ، فلسطين ، مصر. وذلك للتحضير لمؤتمر جنيف وإعداد ورقة عمل تحدد فيها الموضوعات الرئيسية (Head lines) حتى تبدأ مؤتمر جنيف بنجاح تام» . وقد حرص السادات ـ كعادته عندما يريد أن يكذب ـ أن يتحاشى ذكر التواريخ . فلم يذكر تاريخ حصوله على خطاب كارتر ، ولم يذكر تاريخ زيارته لرومانيا .

كانت رواية السادات غير مقنعة ، بل وساذجة . إذ كيف يضمن أن رؤساء الدول الخمسة الكبار وسوريا والأردن ولبنان سوف تهرع إلى القدس لمجرد أن السادات يريد ذلك . كانت كل الشواهد تشير إلى أن هناك أطراف أخرى ساهمت في التحضير لهذه الزيارة ، ولكن كان ينقصنا الدليل على ذلك . وفي ربيع عام 1981 نشر دايان مذكراته عن الفترة التي شغل فيها منصب وزير الخارجية (مايو 77 ـ أكتوبر 79) وفي 28 مايو 1982 أجرت صحيفة المصور حديثا مطولا مع حسن تهامي حول هذا الموضوع . وفي خريف عام 82 نشر كارتر مذكراته عن فترة رئاسته بالبيت الأبيض (يناير 1977 حتى يناير 1981) . وفي ربيع عام 1983 نشر سايروس فانس مذكراته تحت عنوان الخيارات الصعبة فماذا قال هؤلاء الأربعة ؟

ماذا يقول موشي دايان ؟

يقول موشي دايان في كتاب «سلام في الصحراء Break Through » . اتسمت الفترة بين منتصف أغسطس 77 ومنتصف سبتمبر 77 بسلسلة من اللقاءات السرية التي قادتني إلى الهند ، وإيران ، وانجلترا ، والمغرب . كان اللقاء الأول شاذا وقليل الأهمية في آن واحد ، وكان اللقاء الرابع ينبيء باحتمال عقد معاهدة صلح مع مصر.

ويقول دايان أنه سافر إلى الهند في 14 أغسطس حيث استقبله ديساي رئيس الوزراء الهندي في منزله في دلهي الجديدة في نفس اليوم،وأنه عاد إلى إسرائيل مساء اليوم التالي.ثم سافر يوم 18 أغسطس إلى طهران حيث التقى بشاه إيران محمد رضا بهلوي . ثم عاد بعد ذلك إلى إسرائيل ليسافر مرة أخرى مرة أخرى إلى لندن يوم 22 أغسطس حيث التقى بالملك حسين ملك الأردن في الساعة 21,30 من نفس اليوم في منزل خاص . ويقول دايان أن محادثاته السرية مع الملك امتدت ساعة ونصف ساعة . وأنه التقى به مرة ثانية في الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم التالي .

ويستمر دايان في سرده لهذه المقابلات فيقول أنه زار المغرب في يوم الأحد 4 سبتمبر بناء على دعوة من الملك الحسن الثاني ملك المغرب . وأن الملك الحسن قال له أنه كان يرغب في هذا اللقاء كي يعرف رأيه في المشكلة الأساسية الحاسمة في الشرق الأوسط ألا وهي كيف نصنع السلام . ويقول دايان أن الملك وعده بأن يفعل كل ما بوسعه لتدبير لقاء بينهم وبين ممثلي مصر السياسيين . وأن دايان قال له أنهم يريدون إجراء محادثات على أعلى مستوى إما مع نائب الرئيس حسني مبارك ، وإما مع السادات بالذات ، ولكن على أي حال مع شخصية تملك الصلاحيات اللازمة ولها معرفة جيدة بالقضية . وأنه من جانب إسرائيل فإن من يمثلها سيكون رئيس الوزراء أو دايان . وقد وعده الملك بالجواب بعد خمسة أيام . وقال له أنه سوف يرسل إلى القاهرة مبعوثا يثق فيه لبحث هذا الموضوع . فإذا وافق المصريون ، أمكن أن يتم اللقاء قبل ميعاد سفره (دايان) إلى واشنطن ونيويورك لحضور دور الجمعية العمومية .

ويستمر دايان في روايته فيقول «ولم يتأخر الملك فقد وفى بوعده . وفي التاسع من سبتمبر ، أي بعد أربعة أيام على مغادرتي المغرب ، تلقينا رسالة تفيد أن المصريين موافقون على عقد لقاء على مستوى رفيع بين السادات وبيجن ، ولكنهم يفضلون أن يتم لقاء أول بين حسن تهامي نائب رئيس الوزراء وبين دايان . وبعد الاتصال مع المغرب تحدد مساء يوم 16 سبتمبر لإتمام هذا اللقاء في الرباط ، كي أستطيع الذهاب من هناك إلى واشنطن» .

ثم يستطرد دايان في شرح لقائه مع حسن تهامي بالتفصيل . كيف سافر إلى باريس ، ثم كيف قام بعمل مكياج لإخفاء شكله وملامحه كما تم في رحلته السرية السابقة ، وكيف استقل طائرة مغربية خاصة نقلته من باريس إلى الرباط ، وكيف دارت المناقشات بين الرجلين ، وما هي التدخلات والملاحظات التي كان يبديها الملك أثناء هذه المناقشات الخ . ثم كيف سافر مرة أخرى إلى باريس ومنها إلى نيويورك صباح يوم 18 سبتمبر . وكيف تكررت مقابلته مع حسن تهامي والملك في المغرب مرة أخرى بعد ذلك بأسبوعين .

ماذا يقول كارتر ؟

لقد بدأت جريدة الشرق الأوسط في نشر مذكرات الرئيس كارتر على حلقات اعتبارا من 1982/10/4 . وقد تحدث كارتر في الحلقة الأولى عن لقائه مع السادات في أبريل 1977 ، وعن اتصالاته مع السادات بعد ذلك . وعن لقاء شهر أبريل يقول كارتر «عندما سألته عن انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة أجاب بأنه قد يكون من المعقول إجراء بعض التعديلات الطفيفة في حدود عام 1967 . ويعلق كارتر على ذلك قائلا أن هذا كان يعتبر تنازلاهاما لم يسبق أن قبله أي زعيم عربي ... وقد حسّن السادات إلى حدما موقفه الذي كان يتبناه بخصوص ما يمكن أن تكون عليه طبيعة السلام الدائم ، فذكر إمكانية إنهاء المقاطعة التجارية العربية لإسرائيل ... وقد ألححت عليه مرة أخرى في موضوع الإنجاز النهائي الأكمل وهو الاعتراف الديبلوماسي بإسرائيل وتبادل السفراء . ولكن السادات هز رأسه قائلا بأنه لا يظن أن ذلك يمكن أن يحدث في حياته . ولكنه قال في النهاية أن الاتفاقية يمكن أن تتضمن بندا بالاعتراف الديبلوماسي بإسرائيل بعد خمس سنوات إذا ما سارت الأمور على ما يرام» .

ويقول كارتر أنه أرسل رسالة شخصية إلى السادات في 77/10/21 جاء فيها «عندما التقيت معك لقاء خاصا في البيت الأبيض كنت شاكرا وممتنا جدا لوعدك الذي وعدتني به بأنني أستطيع الاعتماد

على تأييدك في أية لحظة حرجة ، إذا ما قامت عقبات في سبيل مسعانا المشترك لتحقيق السلام في الشرق الأوسط . وأعتقد أننا بلغنا لحظة حرجة من هذا النوع ، وإنني أحتاج إلى مساعدتك» .

ويستمر كارتر في سرد مذكراته فيقول «طلبت منه أن يعرب علناً عن تأييد مقترحاتنا مؤكدا أن تأييده لها مهم جدا بل وربما كان حيويا في التقاء الأطراف المتنازعة معا ...... وكان السادات قد أخبر من قريب سايروس فانس وزير الخارجية الأمريكي أنه يريد الاجتماع مع بيجن . وقام فانس بإيصال هذه المعلومات إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي» .

لم يذكر كارتر التاريخ الذي طلب السادات فيه من فانس أن يجتمع مع بيجن ولكن بالرجوع إلى تاريخ زيارات ورحلات كل من السادات وفانس ، ظهر أن آخر لقاء بين الرجلين ، قبل قيام السادات بزيارة القدس ، تم في القاهرة في أول أغسطس 1977 أثناء زيارة كان يقوم بها فانس للدول العربية واستمرت حتى 11 أغسطس ، وزار فيها كل من مصر وسوريا والأردن .

ماذا يقول حسن تهامي ؟

يعترف حسن تهامي في حديثه مع جريدة المصور (28 مايو 1982) بأنه قابل موشي دايان فعلا في المغرب ثلاث مرات . وأن المرة الأولى تمت يوم 17 سبتمبر 77 ، وأن المرة الثانية تمت بعدها بحوالي أسبوعين . وبالإضافة إلى اعتراف حسن تهامي بهذه اللقاءات ، فقد جاء في حديثه نقطتين هامتين . النقطة الأولى هي قوله «كانت قد تمت اتصالات بين الرئيس أنور السادات والأمريكان والملك الحسن دون أن أدري أنا بها . وفوجئت في يوم من الأيام بالرئيس السادات يطلبني في التليفون . وعندما ذهبت إليه قال لي أننا نريد أن نقيم سلاما مع إسرائيل وقال أن الأمريكان والملك الحسن يعرفون هذا الموضوع» وهذا القول تؤكده مذكرات موشي دايان الذي ذكر أن زيارته الأولى للملك الحسن كانت في 4 سبتمبر 77 . كذلك فإن مذكرات كارتر تؤكده عندما قال أن السادات أخبر فانس بأنه يريد أن يقابل بيجن (أول أغسطس 1977) .

أما النقطة الثانية التي ذكرها حسن تهامي فهي أنه طلب من موشي دايان ألا يخطر أحدا بهذا اللقاء . ولكن دايان قال له أنهم لا يستطيعون إخفاء تفاصيل هذه اللقاءات عن أمريكا . حيث أن أمريكا لها وجود كامل في إسرائيل ، وأنها على علم بهذه اللقاءات .

ماذا يقول فانس ؟

عن لقاء السادات وكارتر في واشنطن في أبريل 1977 يقول سايروس فانس «كان كارتر صريحا في ضرورة صدور التزام عربي بالسلام الكامل وتطبيع العلاقات وبقبول إسرائيل كدولة شرعية إذا كان يراد قيام تسوية دائمة في المنطقة . وأن أمريكا ملتزمة التزاما لا يتزعزع بسلامة إسرائيل . وعارض السادات معارضة نصف قلبية مبدأ عقد معاهدة صلح مع إسرائيل واقترح عقد اتفاقية سلام بدلا منها ، على أن يبدأ التطبيع بعد الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي المحتلة . وفي نهاية المفاوضات عدل السادات موقفه قائلا أن السلام الكامل مع تطبيع العلاقات قد يكون ممكنا في ظرف خمس سنوات بعد التسوية» .

ما هي الحقيقة ؟

1 ـ ان أمريكا تمارس الضغط على العرب بصفة عامة وعلى مصر بصفة خاصة لكي يجلسوا على

مائدة المفاوضات مع إسرائيل ، وذلك منذ عام 1967 . وقد استجاب السادات لهذا الضغط في نوفمبر 1973 عندما قبل بمفاوضات الكيلو 101 بين مصر وإسرائيل والتي اشترك فيها اللواء عبد الغني الجمسي عن الجانب المصري ، والجنرال ياريف عن الجانب الإسرائيلي . فكان ذلك هو أول لقاء مباشر بين العرب وإسرائيل منذ إنشاء الدولة اليهودية عام 1948 .

2 ـ ولكن الغضب الذي أحدثته مفاوضات الكيلو 101 على مستوى العالم العربي ، دفع السادات إلى الإقلاع عن أسلوب المفاوضات المباشرة والاستمرار في المفاوضات غير المباشرة عن طريق أمريكا . واستمر الحال على ذلك طوال الأعوام 74 ، 75 ، 76 . وفي خلال تلك السنوات لم تتوقف أمريكا قط عن ممارسة ضغوطها على العرب للتفاوض المباشر مع إسرائيل . وبالإضافة إلى هذه الضغوط فقد أخذت أمريكا تعمل بجدية على خلق الظروف التي تضعف مقاومة العرب وتجعلهم أكثر استعدادا للجلوس مع إسرائيل على مائدة المفاوضات . ولكي تضعف أمريكا مقاومة العرب ، كان عليها أن تعمل على إيجاد قطيعة بين مصر والاتحاد السوفيتي في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية . وقد نجحت أمريكا في ذلك نجاحا باهرا . فبحلول عام 1977 لم تكن مصر قد خسرت الاتحاد السوفيتي كحلف فحسب ، بل أن السادات قد جعل منه عدوا لدودا . وهكذا أصبح السادات في مواجهة أمريكا وإسرائيل بعد أن تم تجريده من جميع أسلحته السياسية والاقتصادية والعسكرية . وهذا هو ما كانت تهدف اليه أمـريكـا .

3 ـ عندما سافر السادات إلى أمريكا في أبريل 1977 ، لم يكن معه مشروع سلام كما يدعي ، بل أنه استمع إلى شروط الرئيس الأمريكي كارتر للسلام ، وأبدى تنازلات لم يسبق أن تنازل بها أي زعيم عربي قبل ذلك . إن محاولات أمريكا للضغط على السادات لم تتوقف قط . وأن السادات أبلغ فانس في أول أغسطس 77 بأنه يوافق على مقابلة بيجن . فكان ذلك هو قمة النجاح بالنسبة للسياسة الأمريكية ، ونهاية محتومة لسياسة السادات الخاطئة في معالجة قضية الصراع العربي الإسرائيلي .

4 ـ استغلت أمريكا وإسرائيل انهيار مقاومة السادات واستسلامه للضغوط الأمريكية ، فعملتا بسرعة مذهلة لتحقيق اللقاء بين السادات وبيجن . فبعد أيام من عودة فانس إلى واشنطن (عاد يوم 11 أغسطس) ، كان دايان يطير في رحلاته إلى نيودلهي وطهران ولندن والرباط ، كما سبق أن بينا . وقد قابل دايان الملك الحسن في 4 سبتمبر وقد أدى هذا اللقاء إلى لقاء بين دايان وحسن تهامي يوم 16 سبتمبر ثم لقاء آخر بين الرجلين بعد ذلك بأسبوعين . وقد تمت جميع هذه اللقاءات في إطار التجهيز والتحضير للقاء الكبير بين السادات وبيجن .

5 ـ بعد أن مضى حوالي ثلاثة أسابيع على آخر لقاء بين دايان وحسن تهامي ، دون أن يتم اللقاء بين السادات وبيجن ، قام كارتر بإرسال خطاب شخصي إلى السادات بتاريخ 21 أكتوبر ، يحثه فيه على إتمام هذا اللقاء ، بجملة يفهمها كل واحد منهما ، وذلك عندما قال (ضرورة التقاء الأطراف المتنازعة مـعـا) .

6 ـ عندما قام السادات بزيارة رومانيا في 30 أكتوبر ، فإنه ذهب للاتفاق ـ مع عناصر إسرائيلية أو عن طريق الرئيس شاوشسكو ـ على اللمسات النهائية الخاصة بالمقابلة المنتظرة بينه وبين بيجن . وبعد

هذا الاتفاق توالت الأحداث كما تم الإعلان عنها في حينه . في 9 نوفمبر أعلن السادات أمام مجلس الشعب المصري بأنه مستعد للذهاب إلى القدس . وفي 15 نوفمبر أرسل مناحم بيجن رد حكومته الكتابي إلى كارتر لكي يبلغه إلى السادات . وفي يوم 19 نوفمبر قامت طائرة الرئيس المصري بالإقلاع من مطار الاسماعيلية في أول رحلة يقوم بها زعيم عربي لدولة إسرائيل منذ إنشائها عام 1948 .

من هو صاحب الفكـــرة ؟

ومن هذا العرض فإننا نعتبر أن أمريكا هي صاحبة الفكرة ، وأن السادات وغيره ممن اشتركوا في هذه اللعبة ، لم يكونوا سوى مجرد أدوات استخدمتها أمريكا في إخراج هذه التمثيلية ، لأنها وجدت فيهم استعدادا للقيام بهذا الدور . وسواء كان السادات مقتنعا بهذا الدور الذي اختير له ، أو أنه خدع بواسطة الإدارة الأمريكية التي دفعته إلى طريق لم يكن يود أن يسير فيه ، فإن ذلك لا ينفي أنه كان مجرد ممثل في مسرحية من تأليف وإخراج أمريكي .

وبالتالي فإن ما يدعيه السادات بأن فكرة زيارته للقدس تبلورت في ذهنه عندما كانت الطائرة تعبر به أجواء تركيا ، هو مجرد تبريرات ، لكي يضفي على نفسه صفة المشارك في التأليف والإخراج . ويكفي لإثبات ذلك ، أن كل ما طالب به السادات في محادثاته مع كارتر في أبريل 77 ، لم يتحقق منه شيء ، في حين أن كل ما قاله كارتر للسادات في هذا اللقاء تحقق بالكامل .



الهوامش

الباب الأول :

(1) بعد بضعة شهور من وصولي إلى لندن ، وبعد أن شعر بالإحراج الشديد نتيجة قيام سوريا بمنحي أعلى وسام عسكري لديها ، قام السادات بمنحي نجمة الشرف . ومنذ ذلك الحين بدأت ألبس أوسمتي في المناسبات التي تتطلب ذلـك .

(2) اللهم لا شماتة . فقد اختطف سليم اللوزي في فبراير 80 أثناء زيارة قصيرة كان يقوم بها في بيروت . ثم وجدت جثته بعد ذلك بعد عدة أيام وقد قُطِعَتْ يده التي كان يكتب بها . وفي 6 أكتوبر 81 قام أربعة رجال بقيادة الملازم أول خالد الأسلامبولي بقتل السادات أثناء العرض العسكري الذي أقيم في القاهرة احتفالا بذكرى حرب أكتوبـر المجيـدة .

(3) علمت فيما بعد من الصحفي عبد الستار طويلة ، أن اسماعيل فهمي وزير الخارجية هو الذي تدخل وطلب إيقاف توزيع مجلة روز اليوسف ، بعد أن عرف منه بحديثي مع الشرقاوي . مرة أخرى أقول لو أن اسماعيل فهمي يعرف أن السلطة زائلة . وأنه سيأتي عليه اليوم الذي هو نفسه لن يستطيع أن يعبر عن رأيه ويدافع عن نفسه ضد اتهامات من بيدهم السلطة ، لاحترم رأي الآخرين ولما سعى لمصادرة هذا العدد من مجلة روز اليوسف . ولكن هذه هي حال الدنيا . الحياة تسير والناس لا يتعلمون .

(4) حضر القذافي الاحتفال الذي أقامه السادات في مجلس الشعب المصري يوم 28 فبراير 74 ، ولم تتدهور علاقته مع السادات إلا في يوليو 1977 .

(5) اللورد كارينجتون أصبح وزيرا للخارجية في حكومة المسز تاتشر التي وصلت إلى الحكم في شهر يونيو 1979 .

(6) الدكتور عبد الرزاق عبد المجيد تولى منصب وزير الاقتصاد والمالية والتخطيط في حكومة السادات مايو 80 . وقد كان السادات يطلق عليه إيرهارد المصري نسبة إلى الاقتصادي الألماني الذي أعاد بناء اقتصاد ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية . وبعد مقتل السادات بأقل من ثلاثة شهور تكشفت الحقائق حول ما وصل اليه الاقتصاد المصري من تدهور في عهد السادات . وفقد الدكتور عبد الرزاق عبد المجيد جميع مناصبه .

(7) نتيجة مقابلة خاصة بين ديفيد جيلمور والرئيس السادات تم زيادة مدة الأمتياز إلى 70 سنة ثم إلى 90 سنة . وقد عرفت هذه المعلومة من خلال المناقشات التي دارت في مجلس الشعب حول هذا الموضوع عام 79 .

(8) غادرت المملكة المتحدة يوم 6 سبتمبر 75 .

(9) ان تصويت الدول في الأمم المتحدة هو أحد المقاييس الحساسة لفرز الأعداء والأصدقاء .

(10) ساكارنيرو أصبح رئيس وزراء البرتغال في ديسمبر 79 .

(11) لقد روعي تأجيل تشكيل أول حكومة دستورية إلى أن يتم تنصيب أول رئيس جمهورية منتخب . وقد جرت انتخابات رئاسة الجمهورية يوم 27يونيو 76 .

(12) سورة البقرة الآية رقم 11 ، 12 .

(13) ولدت لوسيا في 22 مارس 1907 ، أما فرانسيسكو فكان من مواليد 11 يونيو 1908 ، وكانت جاسينتا من مواليد 11 مارس 1910 . ولم يكن أي من الأطفال الثلاثة يعرف القراءة أو الكتابة .

(14) توفي فرانسسكو في 4 أبريل 1919 . وتوفيت جاسينتا في يوم الجمعة 20 فبراير 1920 . أما لوسيا فقد دخلت الملجأ في مايو 21 وبقيت به حتى تخرجت منه في 23 أغسطس 25 . ثم دخلت الدير ضمن نظام سان دوروثيST.Dorothy في قرية على الحدود الشمالية للبرتغال. وفي 10 ديسمبر 25 ظهرت لها العذراء مرة أخرى. وفي عام 1935 انتقلت إلى مدرسة في بونتفيدرا Ponteverdaحيث ظهرت لها العذراء مرة أخرى . ولازالت لوسيا تعيش حتى الآن .

(15) يتم ذلك بأن يبقى الفرد في حضرة السيدة مريم لمدة ربع ساعة في يوم السبت الأول من كل شهر حيث يعترف بخطاياه . ويردد أدعية خاصة ويطلب الصفح عن الأخطاء التي ارتكبت ضد الأم الطاهرة . ويتكرر ذلك خلال خمسة شهور متتالية .

(16) قال الأطفال أن العذراء قالت لهم ثلاثة أسرار ولكنها طلبت منهم ألا يذكروها لأحد . ومات فرانسسكو وجاسينتا ومعهما سرهما . ومنذ عام 39 بدأت إذاعة الأسرار . ومع كل سر يذاع يقال أن العذراء أو المسيح قد أذن بإذاعته . ففي سبتمبر 39 أذيع أسلوب وطريقة إجراء الدعوات في أيام السبت الخمسة . وفي عام 42 أذيع السر الخاص بجهنم والخاص بالدعوات من أجل روسيا حتى تعود إلى الدين . أما السر الثالث فإنه لم يتم إذاعته حتى الآن . ويقال أن لوسيا قد سلمت البابا جون الثالث والعشرين Pope John XXIII ابان الحرب العالمية الثانية مظروفا مغلقا يحوي السر الثالث . وأن البابا قام بفتح المظروف عام 1960 في حضور الكاردينال Cardinal Ottaviani. وأنه بمجرد أن اطلع على السر تجهم وجهه وأسرع بإعادته إلى المظروف وأعاد إغلاقه . ولم يعلن البابا أو أي من خلفائه عن هذا السر حتى الآن . ولكن الإشاعات التي تسربت خارج الفاتيكان تقول أن هذا السرنبوءة بأنه ستحدث خلافات عنيفة داخل الكنيسة . وأن الشيطان سيحقق انتصارا داخل الفاتيكان . ويبدو أن هناك الكثيرون ممن يؤمنون بهذه النبوءة ، ويطالبون بكشفها وإذاعتها على الناس . ففي يوم 2 مايو 1981 اختطف الراهب جيمس داونر James Downer طائرة إيرلندية وأرغمها على الهبوط في فرنسا . وهدد بنسف الطائرة بمن فيها إذا لم يقم الفاتيكان بإذاعة السر الثالث لفاطمة . ولكن القوات الخاصة الفرنسية نجحت في اقتحام الطائرة وقبضت على الراهب دون خسائر في الأرواح . وإذا كان الراهب قد فشل في إرغام الفاتيكان على إذاعة هذا السر . فإنه لا شك قد نجح في إظهار مدى تمسك واقتناع الكثير من المسيحيين بقصة ظهور العذراء في فاطمة . وأن كل ما رواه أبطال هذه القصه هو حق . وأن كل ما ذكرته لوسيا من نبوءات لابد وأنه سيتحقق .

(17) راجع ما سبق أن ذكر مع العلم بأن الأسرار الثلاثة لم ترد في تقرير المطران . فحتى ذلك التاريخ كان كل ما أذاعه الأطفال الثلاثة هو أن العذراء أطلعتهم على أسرار وأنها طلبت منهم عدم إذاعتها وقد التزموا بذلك .

(18) أخذت الصفة الرسمية لهذا الاحتفال تزداد عاما بعد عام حتى أصبح سالازار يحضر بنفسه هذه الاحتفالات ويشترك فيها سفراء الدول المعتمدين في البرتغال .

(19) لا يعرف حتى الآن عدد الأسرار التي لم تعرف حتى الآن . وأن ما ذكرناه ، فيما سبق لا يعدو أن يكون ما تم معرفته حتى الآن . ولكن من الناحية النظرية فإنه يمكن إضافة أي أسرار جديدة على اعتبار أنها كانت جزءا من هذا السر . وذلك قياسا على أن السر الخاص بجهنم والخاص بروسيا اعتبر كأنه سر واحد ، وهو ما يطلق عليه المؤمنون بهذه القصة بالسر الثاني .

الباب الثالث

(20) أنظر نص هذا البيان في الملحق أ .

(21) لقد علمت حوالي منتصف ليلة 14/13 مايو بأن الفريق محمد فوزي وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة قد قدم استقالته إلى رئيس الجمهورية . وأن الرئيس السادات قد قبلها وعين الفريق محمد صادق وزيرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحة .

(22) يستخدم بيجن لفظ **Samaria & Judea** عندما يريد الإشارة إلى أراضي الضفة الغربية لنهر الأردن . وهي الأسماء العبرية التي أطلقتها إسرائيل على تلك المنطقة .

(23) بعد أن تسربت الأخبار عن لقاء موشي دايان مع حسن تهامي إلى وسائل الإعلام الغربية ، قام السادات بنفي هذه الأخبار . وبالرغم من أن إنكار حدوث لقاءات بين موشي دايان وبين حسن تهامي لم يعد له ما يبرره بعد لقاء السادات مع بيجن علنا في القدس ، إلا أن السادات لم يعترف قط بوقوع هذه اللقاءات . وبالرغم من أن موشي دايان اعترف بتلك اللقاءات في مذكراته وأحاديثه ، إلا أن القاهرة لم تعترف بها إلا بعد مقتل السادات بحوالي ثمانية شهور . ففي 28 مايو 82 طالعتنا جريدة المصور الأسبوعية بحديث طويل مع حسن تهامي . وقد اعترف حسن تهامي بأنه التقى مع موشي دايان في الرباط يوم 17 سبتمبر 77 وذلك بتكليف من السادات . وأنه قابل موشي دايان مرة ثانية في قصر الصخيرات في المغرب بعد ذلك بأسبوعين . وأنه قابله مرة ثالثة بعد أسبوعين أخرين في قصر بالقرب من مدينة فاس . وذكر أن الملك الحسن الثاني ملك المغرب قد حضر جميع هذه اللقاءات الثلاثة .

(24) مع بداية عام 1981 كانت المعارضة ضد نظام السادات تتزايد يوما بعد يوم . وكانت الجبهة الوطنية المصرية التي شرفتني بأن أكون أمينها العام تقود أشرس المعارك ضد السادات ونظامه . وبدأ السادات يفقد أعصابه . وفي 8 يونيو 81 لم يكتني السادات بأن يضعني تحت الحراسة، بل أنه وضع بناتي أيضا تحت الحراسة بالرغم من أنهن غير قاصرات بل ومتزوجات منذ أكثر من عشر سنوات قبل وضعهن تحت الحراسة . وفي 4 سبتمبر من نفس العام اعتقل 1536 من زعماء المعارضة داخل مصر . وفي 6 أكتوبر 81 قتل السادات .

(25) في يوم 25 يونيو 78 صدر القرار الجمهوري رقم 272 بفصلي من العمل من السلك الديبلوماسي . ثم صدر بعد ذلك القرار الوزاري رقم 1587 بنفس المضمون بتاريخ 27 يونيو 78 . ولكني لم أعرف بهذه القرارات إلا بعد وصولي إلى الجزائر بمدة طويلة .

(26) لم يكن لسوريا تمثيل دبلوماسي في لشبونة . وكان العراق له تمثيل غير مقيم (كان سفير العراق في باريس هو الذي يقوم بتمثيل بلاده في لشبونة) . أما ليبيا فقد كان لها تمثيل مقيم في لشبونة حتى يونيو 77 . ولكنها سحبت القائم بالأعمال الليبي في هذا التاريخ على إثر اعتراف حكومة البرتغال باسرائل . ولم يبق في السفارة الليبية سوى شخص واحد للقيام بالأعمال الإدارية .

الباب الرابع

(27) قبل أن يبدأ مصارع الثيران الأسباني في مقابلة الثور ، يدخل الحلبة حصان معصوب العينين وحول جسمه دروع ثقيلة ، وفوق ظهره فارس يلبس حول جسده دروعا ثقيلة ويحمل بيده حربة طويلة . وعندما يقوم

الثور بمهاجمته فإن الفارس يقوم بغرس الحربة في عنق الثور وهو ما يزال على مسافة مترين تقريبا من الفارس وحصانه . وكلما اندفع الثور في اتجاه الفارس ، كلما زاد انغراس الحربة في عنقه . والغرض من هذه العملية هو اختبار شجاعة الثور وإضعافه قبل أن ينازل المصارع الرئيسي ، الذي يصارعه وهو مترجل . ويختلف هذا الأسلوب اختلافا جذريا عن أسلوب المصارعة في البرتغال .

(28) حصل كل من أقليم الباسك في شمال أسبانيا وأقليم قطالونيا في الشرق على حكم ذاتي اعتبارا من أكتوبر 1979 .

فهرس الأسماء

ا

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

س

ش

ص

ق

ك

ل

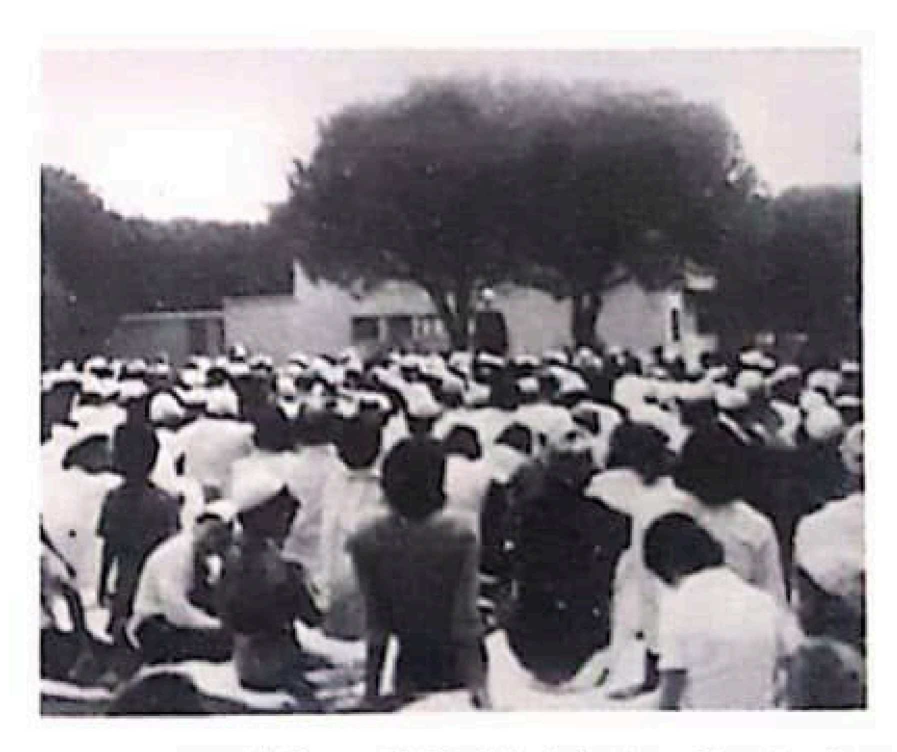
هـ

و

ي



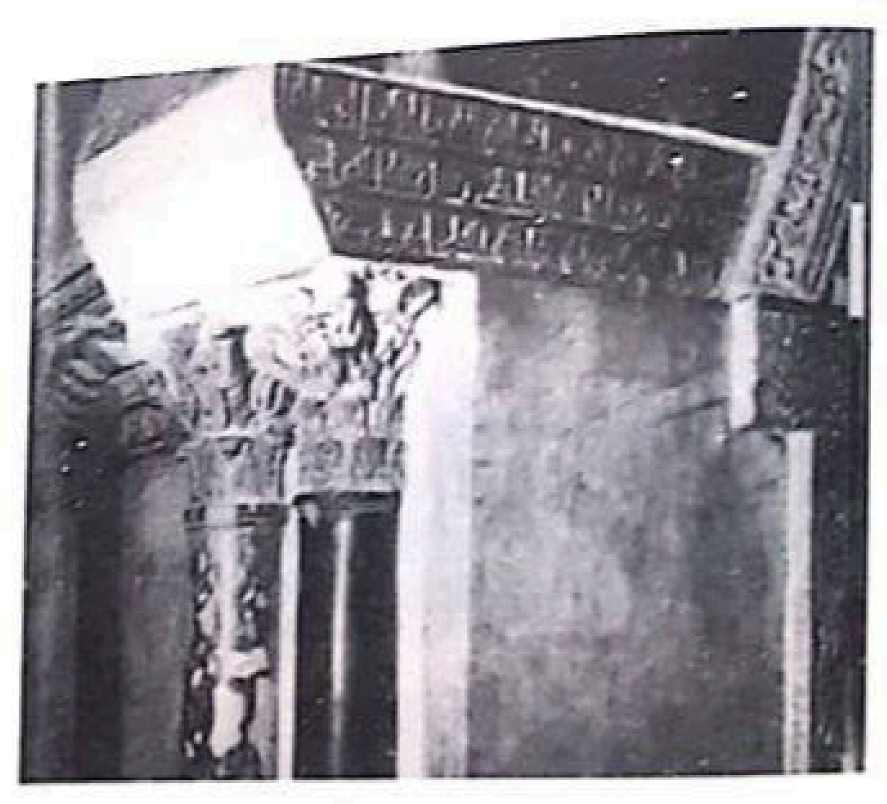
المصلون في الجامع المؤقت بمبنى السفارة المصرية بالبرتغال يرددون الدعاء



صلاة العيد في نهاية رمضان المعظم لعام 1397 هجرية الموافق 16 سبتمبر 1977 في حديقة منزل السفير . وقد حضر هذه الصلاة حوالي 1000 شخص



الأرض التي تبرعت بها بلدية لشبونة لبناء المسجد . ويظهر في الصورة كل من الدكتور سليمان والي زعيم المسلمين في البرتغال والفريق الشاذلي



نقوش داخل محراب جامع قرطبة حيث تظهر الآية الكريمة «الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ...»



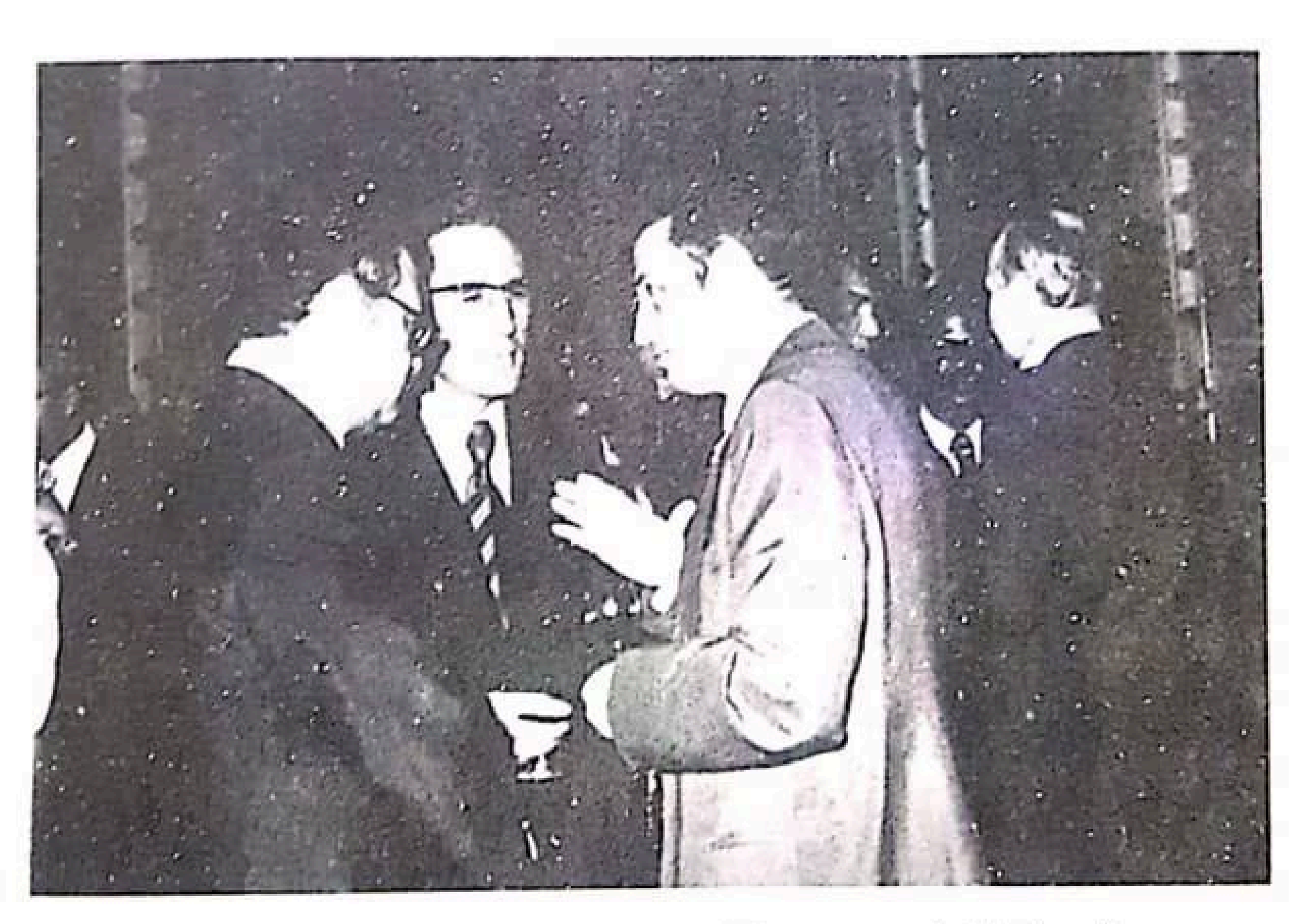
الفريق الشاذلي في حديث مع الجنرال كوشتا جومش رئيس الجمهورية البرتغالية الذي بقى في السلطة حتى 5 يوليو 76 وظهر بينهما عزيز سيف النصر الوزير المفوض بالسفارة



الفريق الشاذلي مع عمدة هارو



الفريق الشاذلي في رحله صيد في اسكتلنــدا



الفريق الشاذلي في حديث مع الجنرال ايانش رئيس الجمهورية البرتغالية اعتبارا من يوم 6 يوليو 76 ، وظهر بينهما الميجور ميلو أنتونش وزير الخارجية



حفل تسليم حجر العلمين الى مدينة هـارو



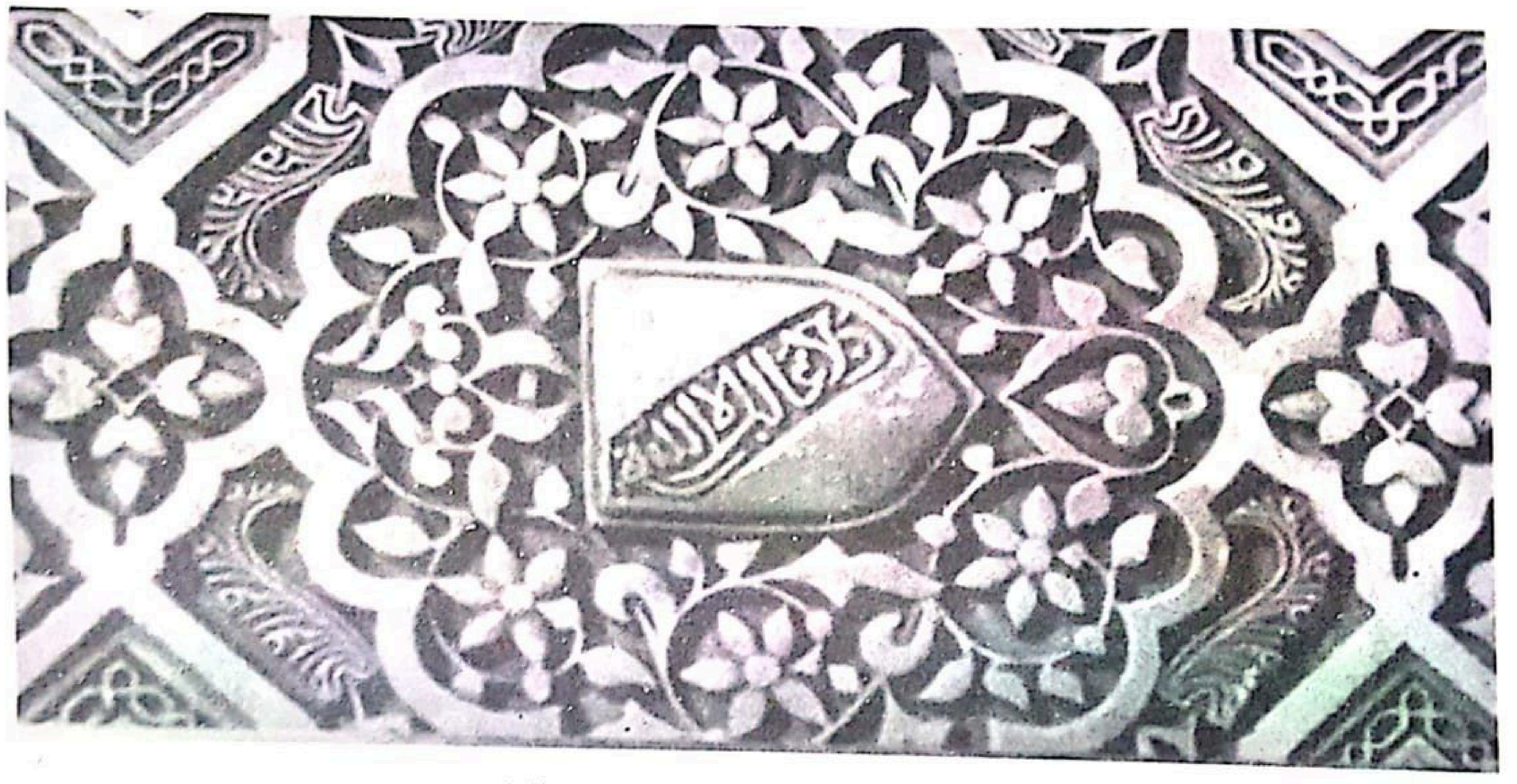
الفريق الشاذلي مع عدد من أعضاء مجلس العموم البريطاني في فناء مبنى وستمنستر



الفريق الشاذلي يرحب بالسنيور ماريو سوارش رئيس الوزراء في السفارة المصرية بالبرتغال



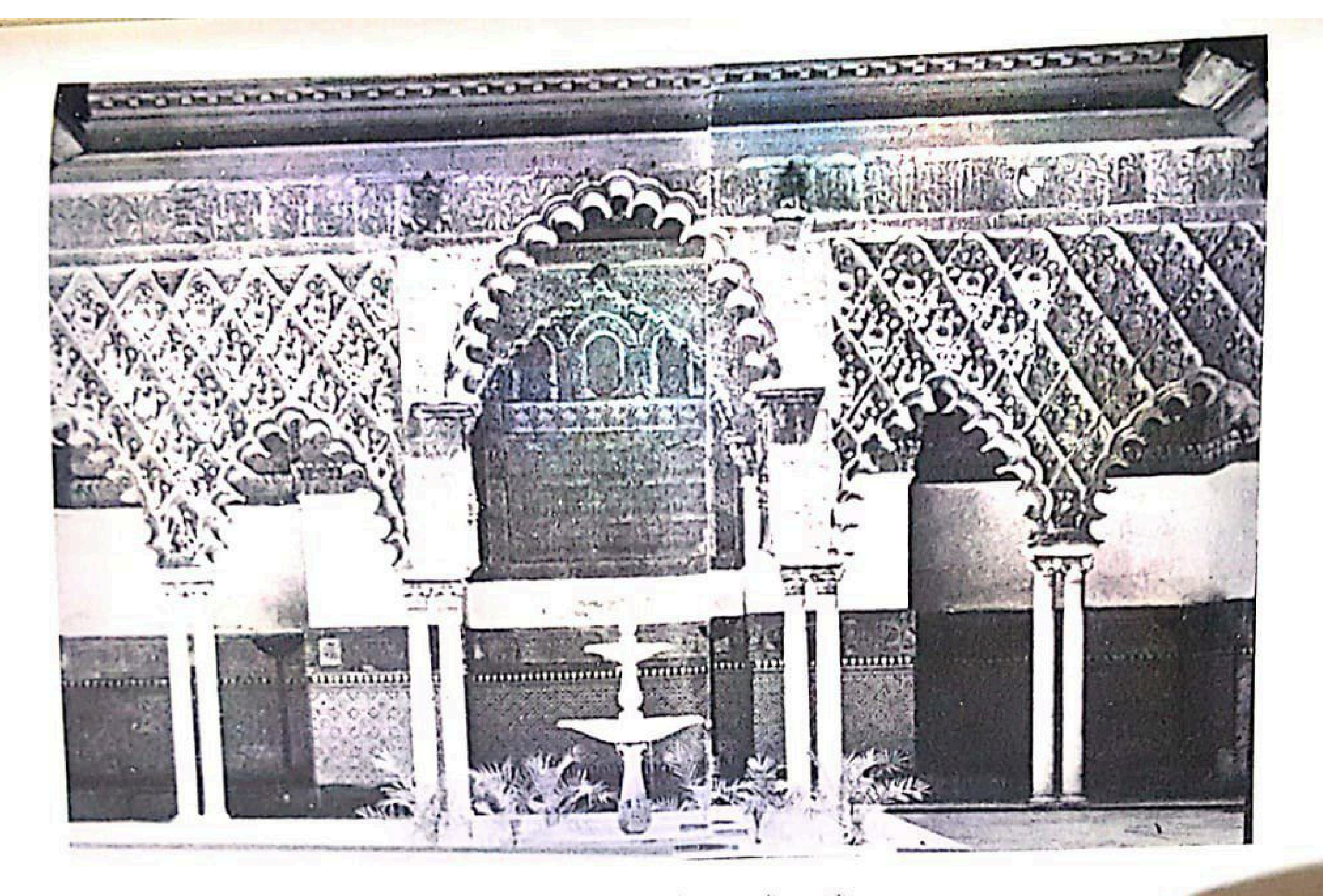
الفريق الشاذلي وحرمه وبعض أعضاء السفارة قبل ذهابه الى قصر باكنجهام لتقديم أوراق اعتماده للملكة



النقوش العربية في قصر الحمراء ويظهر فيها «ولا غالب الا الله»

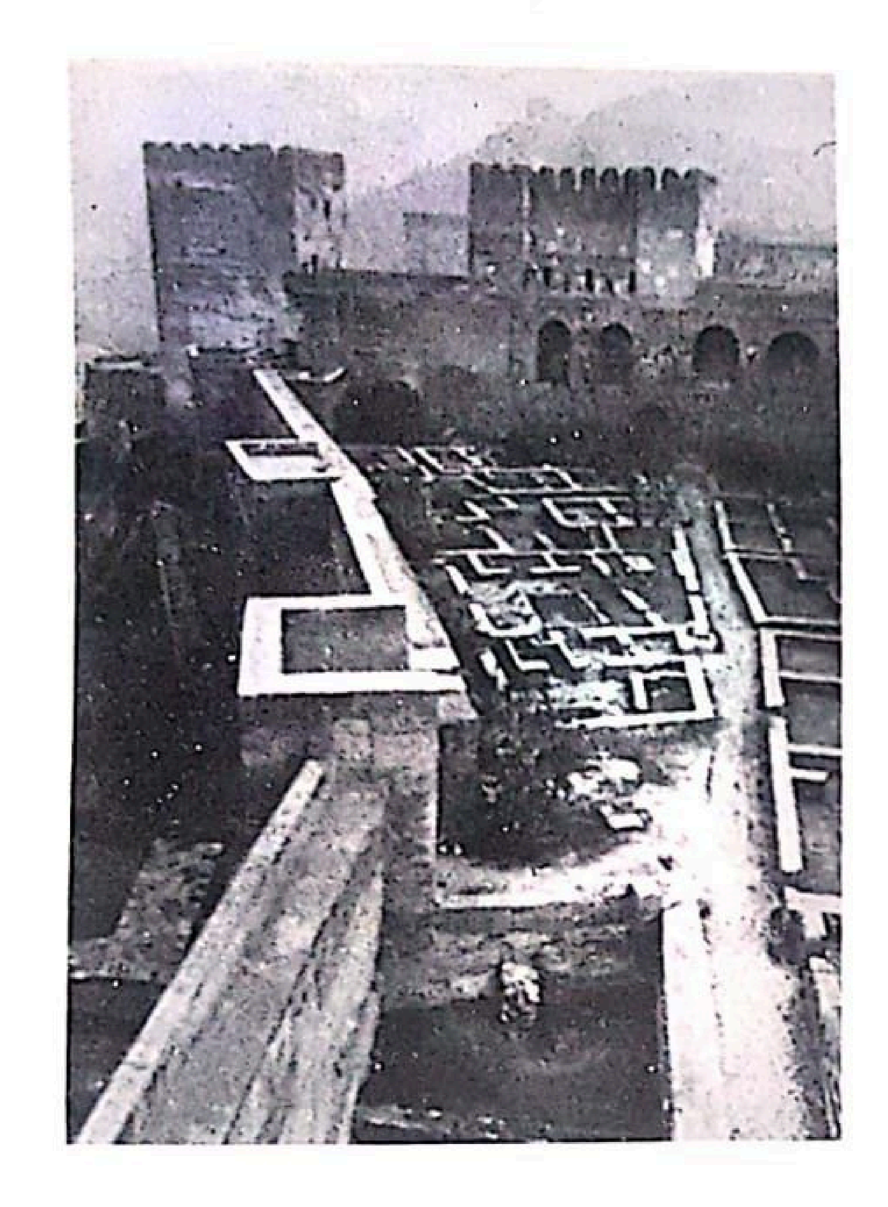


قصر الحمراء في غرناطة

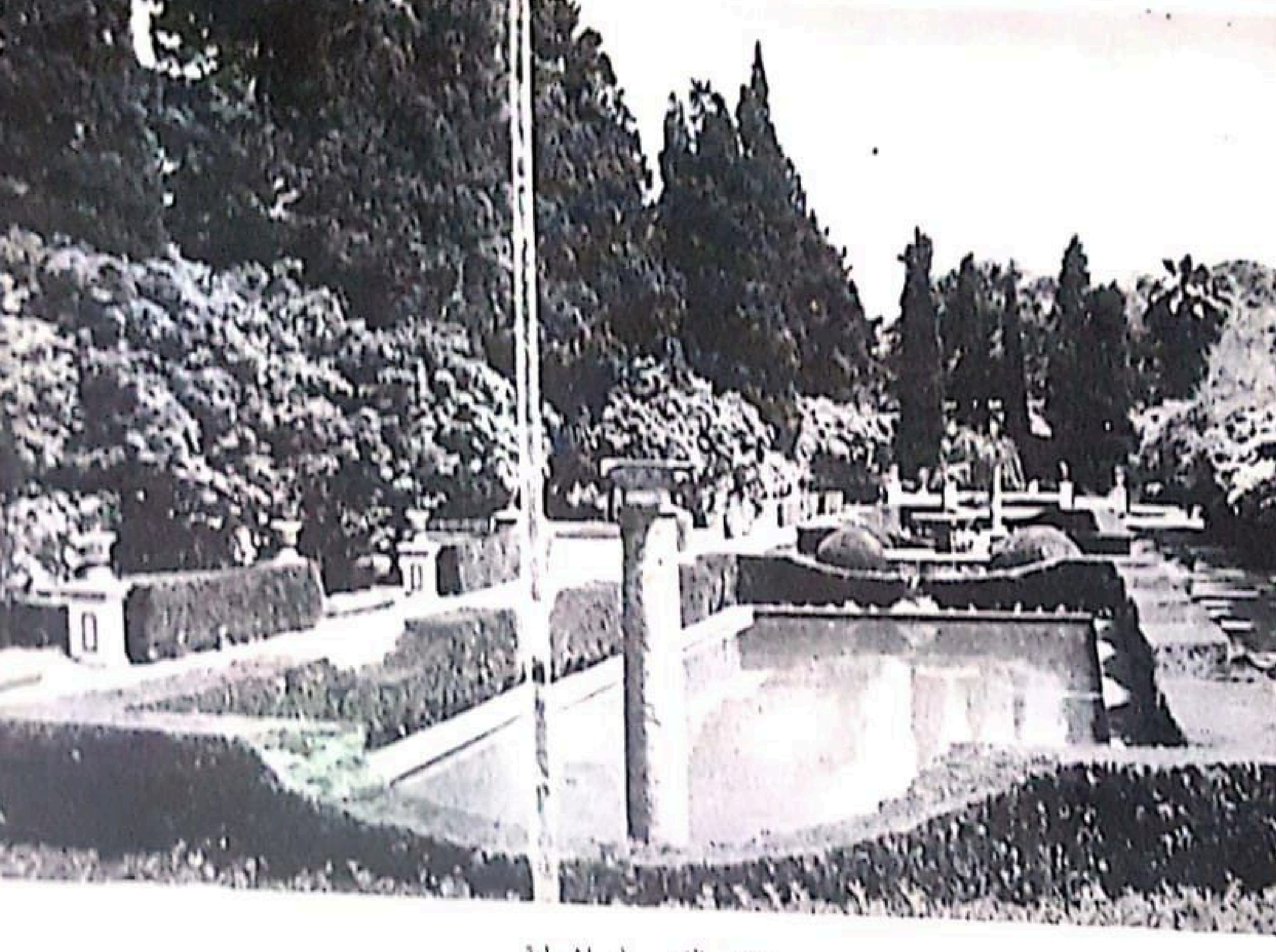


النقوش العربية داخل مبنى القصر في اشبيلية

صورة للمحراب داخل جامع قرطبة . وتظهر في أعلى المحراب نقوش بأسماء الله الحسنى



دار السلاح في قصر الحمراء

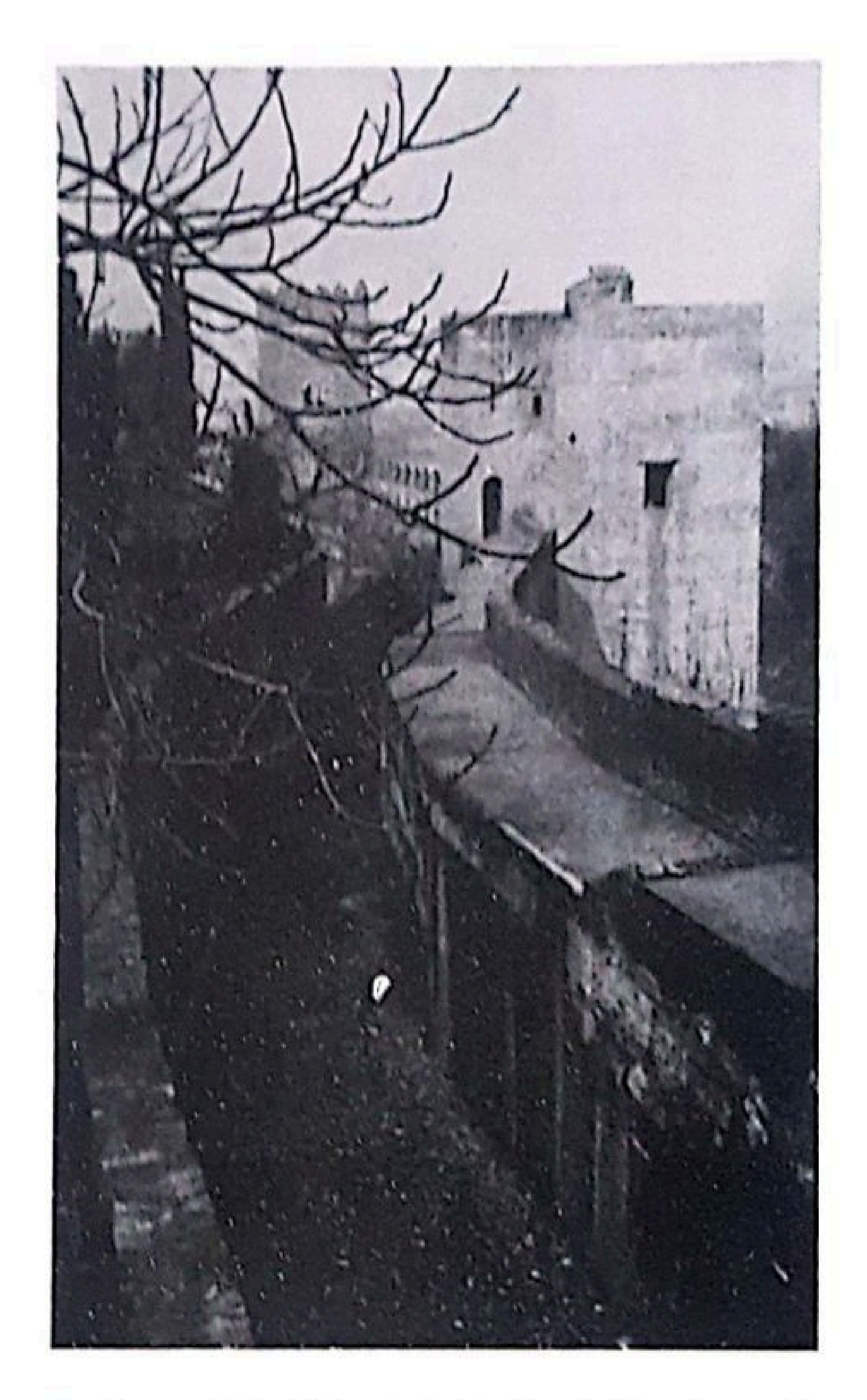


حدائق القصر في اشبيلية

مقر الحاكم العربي في أشبيلية ويطلق عليه اسم القصر



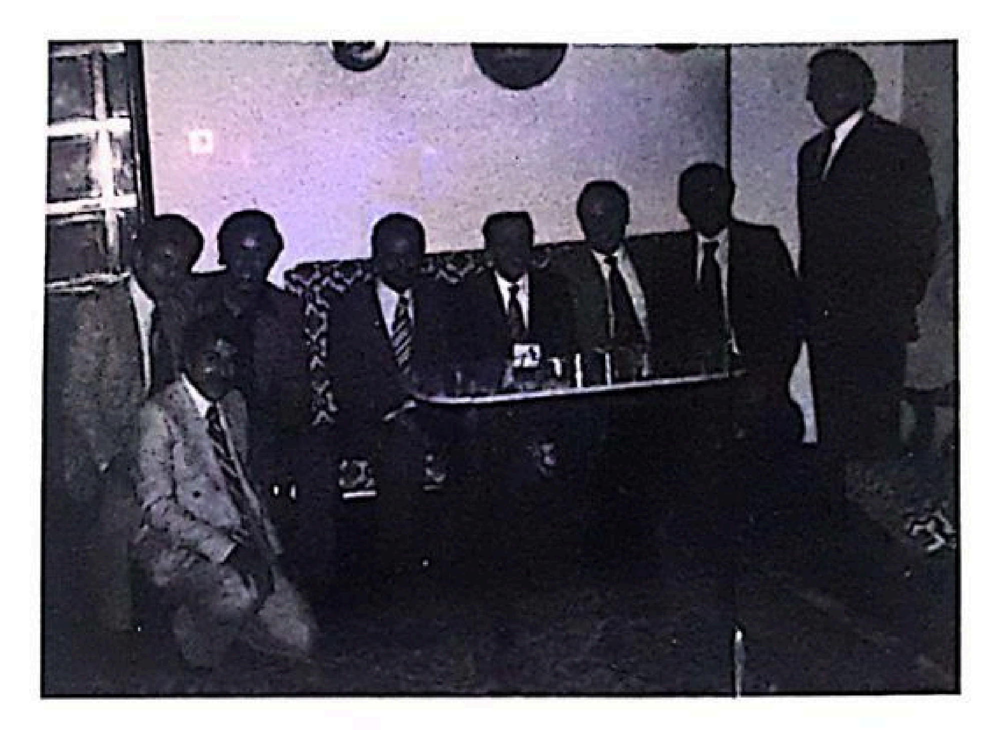
الواجهة الشرقية لجامع قرطبـة



جانب من قصر الحمراء ويظهر فيه اسلوب الدفاع الدائري عن المعسكر



أعضاء المجلس الاسلامي في البرتغال ويبدو في الصورة من اليسار الى اليمين : سفير المغرب ، سفير تركيا ، الدكتور سليمان والي زعيم المسلمين في البرتغال ، سفير مصر، القائم باعمال باكستان ، القائم باعمال نيجيريا



صورة تذكارية تجمع سفراء وممثلي دول جبهة الصمود والتصدي العربي في منزل الفريق الشاذلي في لشبونة يوم 27 يونيو 1978

فهرس الموضوعات

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية ـــ 1984



كان نجاح القوات المسلحة المصرية في عبور قناة السويس وتدمير خط بارليف خلال 18 ساعة يوم 6 أكتوبر 1973 مفاجأة كبيرة للأصدقاء والأعداء على حد سواء . فلم يكن أحد يتوقع أن يتم العبور بمثل هذه القوة والسرعة والكفاءة . وقد أرجعت الصحافة العالمية والعربية هذا النجاح إلى الفريق سعد الدين الشاذلي الذي كان يشغل منصب رئيس أركان القوات المسلحة المصرية ، ووصفته بأنه هو العقل المدبر لهذا العبور العظيم ، وأنه هو الذي درب تلك القوات وبعث فيها روح المظلات التي كان الفريق هو مؤسسها وقائدها لفترة طويلة . وفي مؤتمر صحفي عقده الرئيس السادات في تلك الأيام علق صحفي أجنبي قائلا : «إذا كنتم قد نجحتم في بناء عشر كبارى فوق قناة السويس في 8 ساعات وعبرتم فوقها بألف دبابة وخمسة عشر ألف عربة في 6 ساعات ، فهذا يعني أنه كان هناك تنظيما دقيقا للمرور يفوق بكثير تنظيم المرور فوق كوبري قصر النيل في القاهرة . فلماذا لا تستفيدون بهذه الخبرات في تنظيم المرور في القاهرة وفوق الكباري المقامة على نهر النيل ؟»

• • •

كانت شهرة الفريق الشاذلي بين الضباط والجنود في مصر ، بالإضافة إلى الشهرة الواسعة التي حصل عليها ابان حرب أكتوبر 73 على المستوى العربي والدولي ، مثار قلق للرئيس المصري . كان السادات بطبيعته يريد أن ينسب إلى نفسه كل إنجاز ضخم في مصر . وكان يخشى أن ينافسه في ذلك أحد ، فقرر إبعاد الفريق الشاذلي عن القوات المسلحة ، وقام بتعيينه سفيرا لمصر في المملكة المتحدة . وفي لندن قام الشاذلي بانتقاد سياسة السادات الخارجية في أحاديث إذاعية وعلى شاشات التليفزيون البريطاني ، مما اضطر السادات إلى نقله من لندن إلى لشبونة ، بعد سنة واحدة من تعيينه سفيرا في لندن . وقد بقي الشاذلي سفيرا لبلاده في البرتغال مدة ثلاث سنوات ، درس خلالها التجربة البرتغالية وتأثر بها .

وازدادت انتقادات الشاذلي للرئيس المصري بعد أن زار السادات القدس في نوفمبر 77 ، وبعد أن قام بإصدار عدد من القوانين القمعية خلال شهر مايو 78 ، لردع كل من يعارض الخط الاستسلامي الذي كان قد صمم على أن يسير فيه . وفي 19 يونيو 78 قرر الشاذلي أن يقطع شعرة معاوية التي كانت ما تزال تربطه بالنظام . ففي هذا اليوم ومن مكتبه في السفارة المصرية بلشبونة هاجم السادات ونظامه واتهمه بالدكتاتورية ، وأنه يسير على نفس نهج سالازار ديكتاتور البرتغال السابق . فهو يزور الانتخابات ويصدر القوانين الظالمة ويدعي أنها تصدر بموافقة الشعب ، وهو يبطش بخصومه السياسيين بغير رحمة أو ضمير . وكما كان متوقعا فقد قام السادات بعزله من منصبه ، فاتجه من لشبونة إلى الجزائر حيث اتخذها وطنا ثانيا له ، وحيث يعيش فيها بصفة دائمة اعتبارا من 28 يونيو 78 وحتى يومنا هذا .

السعر في الجزائر : 32,12 دج